إسكندر رياشي

نسوان من لبنان

قَدَّمَ له لقمان سليم



مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

إسكندر رياشي

نسوان من لبنان

قَدَّمَ له لقمان سليم

مؤسّسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسّسة دار الجديد
Dar al Jadeed

طبعـةٌ طِبْـقُ الأصْــلِ عـن الطَّبْعَـــةِ الثَّانِيَـةِ
الصـــادِرَة عن دار الأندلـــس، بيـــروت، ١٩٦٦
الـمقدّمة والهوامــش والتشـكيل: لقمان ســليم
ودار الجـــديـد

دارة محسن سليم، حارة حريك
بيــــــروت ـ لبـنـــــــان
www.dar-al-jadeed.com
www.LokmanSlim.org

ألَّف الغلافَ: تـامر الأحمر، صاغته: رشـــا الأمير،
لوّنتْه: إليسار الرّشعيني
خَـطُّ نَسَوانُ مِن لُبنَان : طِبْـقُ أَصْـلِ طَبْعَـةِ ١٩٦٦
أنشـأه كتابًـا: لُقـمان سـليم وفريـق دار الجديـد
حـــــرَّره: صـــلاح الچيـلاني ودار الجـــديـــد
شـكرٌ خـاص: هــنري زغيــب، قُطْـرُب، بقجـة
وروبيرتـو بانشـيك
طُبِـعَ مـن هـذا الكتـاب ألـفُ نسـخةٍ غـيرِ مرقَّمـة
مطبعة أنيس، الأشرفيّة

تـرقيـم دولـي: 978-9953-11-133-9

مؤسّسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عَنْ لُبنان وشُفَعائِهِ الشَّياطين

إسكندر رياشي: الباطِلُ يُحَرِّرُكُم!

مؤسسة دار الجديد

Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

«إنَّهُ لا يَتَـمَسْخَرُ بَلْ يَضَعُ حالَهُ على الوَرَق. إباحَـتُهُ لِذاتِهِ هِيَ المَصْدَرُ، والسُّخْرِيَةُ فَـرْعٌ مِنْ هذا المَصْدَر. طَرافَـتُهُ أنَّهُ يَتَـعَرَّى بالكامِلِ، ويَتَحَدَّاكَ أنْ تُجارِيَه. لَمْ يُجارِهِ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الصِّحافَةِ ولا مِنْ أهْـلِ الأدَب [...] كارِجٌ كَـرْجَ الحَجَلِ، في لُغَةٍ حَـيَّةٍ، نِصْـفِ شَفَهِيَّةٍ، أشَـدُّ ما يُدْهِشُ فيها أنَّها لا تُخاطِـبُكَ على أساسِ أنَّها ظَرِيفَةٌ خَفيـفَةٌ، بَلْ على أساسِ أنَّها عابِسَةٌ مُتَوَتِّـرَةٌ وقَليلَةُ الصَّبْر...».

أُنـســـــي الحـــــاجّ[1]

---

(١) جـان دايــة، «الشَّـاعِر أُنْـسي الحـاجّ: تَعامَلْـتُ مَـعَ اسْـمِ والـدي بِـشَـيْءٍ مِنَ الانْـتِـــهازِيَّة»، **الشَّـــرْق الأوْسَــط**، ٢٩ آب ٢٠٠٧.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

عَنْ لُبنان وشُفَعائِهِ الشَّياطين

إسكندر رياشي: الباطِلُ يُحَرِّرُكُم!

... وفي اليَوْمِ المُسَمَّى ـ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ، ويُوضَعُ الميزانُ، وَيَمْثُلُ لُبنانُ في مَوْقِفِ الدَّيْنونَةِ، ويُحْصَى ما لَهُ، ويُحْصَى ما عَلَيْه، وَتَشيلُ كِفَّةُ السَّيِّئاتِ التي أَساءَها إلى مَنْ أَحْسَنوا الظَّنَّ بِهِ ـ عَنْ سَذاجَةٍ مِنْ هَؤلاءِ، أَوْ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، أو عَنْ طَيْشٍ وتَهَوُّرٍ، أيْ عَنْ رَغْبَةٍ صَريحَةٍ أَوْ مَكْتومَةٍ بِأَنْ يَكونَ لُبنانُ لَهُم، وَبِأَنْ يَكونَ مِنْهُم، وَطَنًا يَسْتَحِقُّ الحُبَّ والإكْبارَ، بَلْ ويَسْتَحِقُّ «البَذْلَ» في سَبيلِهِ ـ بَذْلَ الرُّوحِ، أوِ الدَّمِ أوِ الأَوْهام ـ يَوْمذاكَ، نَقولُ، يَوْمَ تَشيلُ كِفَّةُ السَّيِّئاتِ على كِفَّةِ الحَسَناتِ، وَيُسْأَلُ لُبنانُ، قَبْلَ النُّطْقِ بِالحُكْمِ عَلَيْهِ بِما يُجازَى بِهِ مَنْ كانَ دَيْدَنُهُ قِلَّةَ الوَفاءِ، والحَنْثَ بالعُهودِ، والإخْلافَ بالوعودِ والمَواعيد ـ ويُسْأَلُ، مِنْ بَابِ رَفْعِ التَّكْليفِ، أنْ يَأْتِيَ بِمَنْ يَشْفَعُ لَهُ ويَتَوَسَّل، فَمَا مِنْ شَكٍّ بِأَنَّ إسْكَنْدَرَ الرياشِيَّ ـ الرَّجُلَ ذا الوُجوهِ الكَثيرَةِ

ـ حتَّى لَيُظَنَّ أنْ لا وَجْهَ لَهُ وإنَّما وَجْهُهُ الأقْنِعَةُ التي لا يَفْتَأُ يُبَدِّلُها ـ وَالصُّعْلوكَ الأنيقَ، وَ«الصِّحافِيَّ»، و«التَّائِهَ» في حَياتَيْهِ الشَّخْصِيَّةِ والعامَّةِ ـ مَا مِنْ شَكٍّ بأنَّهُ، ومَنْ هُم في مَنزِلَتِهِ ـ أولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ شَياطينِ الإنْسِ المَكْتوبينَ، على غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُم، أحْيانًا كَثيرَةً، في خانَةِ «الأبْناءِ» مِنْ قَيْدِ لُبْنانَ ـ ما مِنْ شَكٍّ بأنَّ الرِّياشِيَّ يَسَعُهُ أنْ يَشْفَعَ بالبَلَدِ الصَّغيرِ، لُبنانَ، فَوْقَ ما يَسَعُ القِدِّيسينَ والأوْلِياءَ والأبْطالَ والشُّهَداءَ مِنْ ذَوي السِّيَرِ العَطِرَةِ حَدَّ الاخْتِناقِ بِعِطْرِها، والأخْلاقِ الرَّفيعَةِ حَدَّ الهُزالِ، والمَبادِئِ الرَّاسِخَةِ حَدَّ الشَّلَل، أنْ يَفْعَلوا ـ بَلْ أنْ يَفْعَلوا فُرادَى وبالاتِّحادِ... وإذ يَتَقَدَّمُ الرِّياشِيُّ هذا النَّفَرَ فلَيْسَ لأنَّهُ لَمْ يَخْشَ في الحَقِّ لَوْمَةَ اللُّوَّامِ، بَلْ لأنَّهُ لَمْ يَخْشَها في البَاطِلِ والضَّلالِ، وفي الخِفَّةِ والعَبَثِ واللَّهْوِ والمُجونِ... وفي التَّصْريحِ بِذلِكَ جَميعًا، وفي المُجاهَرَةِ بِه حتَّى لا يَدَعَنَّ لِقائلٍ قِيلا ولا لِمُغْتابٍ نَمَّامٍ سَبيلا...

وإذا كانَ إسْكَنْدَرُ الرِّياشِيُّ الصِّحافِيُّ والكاتِبُ والمُتَرْجِمُ بِرَسْمِ أنْ يُقرَأَ في المَقالاتِ والكُتُبِ التي نَشَرَها، وفي الصُّحُفِ التي أنْشَأَها، وإذا كانَ إسْكَنْدَرُ الرِّياشِيُّ «المُغامِرُ» بِرَسْمِ أنْ يُقْرَأَ في ما سافَرَهُ مِنْ

أسْفارٍ وجابَهُ مِنْ أفْكارٍ وَمِنْ آفاقٍ سَواءً بِسَواءٍ، وإذا كانَ إسْكَنْدَرُ الرِّياشيُّ «السِّياسيُّ» بِرَسْمِ أنْ يُقْرَأَ في تَشَوُّشِ مَواقِفِهِ، وَفي غُموضِ ما اتَّصَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أهْلِ الحَلِّ والرَّبْطِ مِنَ اللُّبنانِيِّينَ ومِنْ غَيْرِ اللُّبنانِيِّينَ مِنْ صِلاتٍ ـ وَهوَ غُموضٌ يَزيدُ مِنْهُ أنَّهُ لَمْ يَخجَلْ مِنَ الصُّدوعِ بِهذه الصِّلاتِ، ولا تَعَفَّفَ عَنْ سَرْدِ الكَثيرِ من تَفاصيلِها ـ وفي ما راوَدَتْهُ المناصِبُ عن نَفْسِهِ، فالأرْجَحُ أنَّهُ، بِوَصْفِهِ جِماعَ كُلِّ هُؤلاءِ ـ جِماعَ الصِّحافيِّ وَالكاتِبِ وَالمُتَرْجِمِ وَالمُغامِرِ وَالسِّياسِيِّ وزيرِ النِّساءِ الفاسِقِ المارِقِ بَيْنَ العَشيقاتِ، الحَقيقيَّاتِ والافْتِراضِيَّاتِ، مُروقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، الكَسَّابِ بِالحَلالِ والحَرامِ، مَعَ إيثارٍ للثَّاني على الأوَّلِ، المُبَذِّرِ على مَتاعِ الدُّنْيا، المِتْلافِ المُسْرِفِ إلى آخِرِهِ... ـ الأرْجَحُ أنَّ إسْكَنْدَرَ الرِّياشيَّ هذا لا يُقْرَأُ في كِتابٍ طَالَعَهُ بإحْدى اللُّغاتِ التي أجادَها، أوْ في كِتابٍ وَضَعَهُ، أو في مُغامَرَةٍ، (حَقيقيَّةٍ أوِ افْتِراضيَّةٍ، نِسائِيَّةٍ أوْ سِياسِيَّةٍ)، خاضَها، أو في سُلوكٍ سَلَكَهُ، أو في «عَهْدٍ» مِنْ عُهودِ لُبنانَ انْبَرى، على بَيِّنَةٍ مِنْ فَسادِهِ وفسادِ أهلِه، للدِّفاعِ عَنْهُ ـ الأرْجَحُ أنَّهُ لا يُقْرَأُ إلَّا على هَدْيٍ مِنَ المصادفات التي حَلا لها أنْ يُولَدَ في الخِنْشارة، (مِنْ أعْمالِ المَتْنِ الشَّماليِّ مِنْ جَبَلِ

لُبنـان)، حَوَالَـي ١٨٩٠، علـى مَغـارِبِ القَرْنِ التَّاسِـعَ عَشَـرَ، أيْ علـى الهَزيعِ الأخيرِ مِنْ عُمْرِ السَّلْطَـنَـةِ العُثْـمانِيَّةِ، أيْ قَبْـلَ ثَلاثيـنَ عامًـا مِـنْ ذَلِـكَ اليَـوْمِ مِـنْ غَـدَواتِ الحَـرْبِ العالَمِــيَّةِ الأُولـى الـذي شـاءَتْ ظُـروفٌ ومَقاديـرُ أنْ يَنْزِلَ مِـنْ «لُبنـانَ الدَّوْلَـةِ»، بالمَعْنـى القانونِـيِّ لِلْكَلِمَةِ، بقُــدرَةِ حاكِـمٍ عَسـكَرِيٍّ فَرنْـــسِيٍّ، مَنْــزِلَةَ يَـوْمٍ، يَـوْمِ الميـلادِ ـ وهـي ظُـروفٌ ومَقاديـرُ يَتَلَــذَّذُ الرِّياشـيُّ فـي الشَّـهادَةِ عَلَيْهـا، وفـي رِوايَـةِ مـا يَعْرِفُـهُ، بالتَّجْرِبَـةِ الشَّـخْصِيَّةِ، مِـنْ تَفاصيلِهـا ومُلابَسـاتِها تَلَــذُّذَ «قابِلَـةٍ قانونِيَّـةٍ»، قَليلَةِ المُبـالاةِ بـآدابِ المِهْــنَةِ، بالشَّـهادَةِ علـى مـا حَضَرَتْـهُ مِــنْ وِلادات...[٢]

(٢) للرِّياشـيِّ، فـي مـا نعلـم، كِـتـابٌ واحِـدٌ باللُّغَـةِ الفَرَنْسِـيَّةِ عُنْوانُـهُ *Nous Vivons avec les Dieux* («نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة»)، وهـذا الكِـتابُ هـوَ الأدْنـى بَيْـنَ مُؤَلَّفاتِـهِ مِـنْ حَيْـثُ تَسَلْسُلُ السَّـرْدِ فيـهِ، وعلـى مَـرِّ فُصولِـهِ، إلـى السِّيرَةِ الذَّاتِـيَّةِ الصَّريحَـةِ، وَلَـوْ أنَّ الذَّاتِـيَّ لَـدَى الرِّياشـيِّ قَـلَّما يَنْـفَصِلُ عَـنِ العـامِّ والعَـامَّ عَـنِ الذَّاتِـيِّ. فـي الفَصْـلِ الأوَّلِ مِـنْ هـذا الكِتـابِ يَقـولُ إنَّـهُ لا يَعْـرِفُ تاريخًـا دَقيـقًا لِـمَوْلِدِه.
يَرِدُ في مُسْـتَهَلِّ الكِـتابِ، وعلى خِتامِهِ، أنَّهُ «الجُزْءُ الأوَّل» (*Tome I*). حتَّى إثْباتِ العَكْسِ، فـإنَّ الكِـتابَ الـذي بَيْـنَ أيْدينا هـوَ الجُـزْءُ الواحِـدُ وَالوَحيدُ مِـنْ «**نَعيشُ مَـعَ الآلِهَـة**». لا تاريـخَ نَشْـرٍ صَريحًـا وإنَّما يُسْـتَدَلُّ علـى ذَلِـكَ تَقْريبِيًّا مِـنْ إهْدائِهِ إلـى رَئيـسِ الجُمْهورِيَّـةِ كميـل شـمعون وَزَوْجِـهِ زَلْفـا. وبِمـا أنَّ الشَّـيْءَ بالشَّـيْءِ يُذْكَـر، لا بَـأْسَ مِـنَ الإشـارَةِ إلـى أنَّ ناشِـرَ الكِتـابِ المَزْعـومَ هُـوَ دارُ نَشْـرٍ تُدْعـى « *Edition Julia Felix* » (كَذا).
ثلاثَةٌ تَدْعو إلى التَّشْكيكِ بأنَّ الناشِرَ ليس من أحدٍ سوى الرِّياشِيِّ نَفْسِهِ:

بَـلْ أكْثَـرُ مِـنْ ذَلِـك: بِمَعْـنًى مـا، لا شَـطَطَ فـي القَـوْلِ إنَّ إسْـكَنْدَرَ الرِّياشِـيَّ يَـرَى إلـى «لُبنـانَ» ـ لُبنـانَ علـى مـا انْــتَهى إلَيْنـا، وعلـى مـا نَعْرِفُـهُ نَحْـنُ، وعلـى مـا نَحْمِلُـهُ مِـنْ مَحْمَـلٍ، لبنـانَ الدَّوْلَـةِ ورِجالِها وعائِلاتِهـا، الشَّـعْبِ، الجُمهوريَّـةِ، المُؤسَّسـاتِ، الرُّمـوزِ والشَّـاراتِ والأعْيـادِ المَوْصوفَـةِ بالوَطَنِــيَّةِ والمُناسَـباتِ التــي يُـرادُ لها أنْ تَـكونَ جامِعَـةً، إلـخ... ـ يَـرَى إلَيْـهِ بِـعَيْنِ مـا لَـهُ، هُـوَ، الرِّياشِـيُّ، عَلَيْـهِ، علـى لُبنـانَ، مِـنْ حَـقٍّ بُكورِيَّـةٍ لا مِـراءَ فيـه، لا علـى مـا لِلُبنـانَ عَلَيْـه...

ومَـنْ يُطالِـعُ أدَبَ الرِّياشــي، و«قِلَّـةَ أدَبِـهِ»، وسـيرَتَهُ، علـى مـا دَوَّنَها بِنَفْـسِهِ، لا يَعْـتَمُ أنْ يَسْتَـدِلَّ، ثُـمَّ أنْ يَتَـثَـبَّتَ، أنَّ هـذا الحَـقَّ التَّكْوينِـيَّ هُـوَ مُسْتَـنَدُهُ فـي اسْـتِخْفافِهِ بِكَثيـرٍ مِـنْ أقْداسِـنا ـ لا مُسْتَـثْـنِيًا «الوَطَنِيَّةَ» مِنْهـا و«الدِّينِــيَّة»، عِلمًـا أنَّ هـذِهِ البُكورِيَّـةَ، بُكوريَّـةَ الرِّياشــيِّ، وَهــيَ، بالطَّبْـعِ، لَيْسَــتْ ممَّـا يَنْفَـرِدُ بـه، لا تُقـاسُ بالسَّـنَواتِ فَحَسْـبُ وإنَّمـا بِمـا راكَمَـهُ، ولا

(أ) لا أثَـرَ لِـدارِ نَشْـرٍ بِهـذا الاسْـمِ فـي لُبنانَ أوْ خارِجَـهُ، (ب) لا عُنْوانَ لِدارِ النَّشْـرِ هـذِهِ، (ج) التَّسَـرُّعُ الرِّياشِـيُّ المَوْصوفُ الـذي يَشِـي بِـهِ خُلُوُّ « *Edition* » مِـنَ الـ« s » ـ عَلامَةِ الجَمْعِ الحُكْمِيَّةِ في هذا المَقام!

نُحيـلُ فـي مـا يأتـي إلـى الطَّبْعَـةِ الأُولـى والوَحيـدَةِ مِـنْ «**نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة**» مُؤَمِّليـنَ أنْ نُحيـلَ عَمّـا قَريـبٍ إلــى طَبْعَـةٍ مُسْـتَأْنَفَةٍ بِعِنايَـةِ «دارِ الجَديـد» وَتَوْقيعِهـا.

سِـيَّما فـي شَـبابِهِ، مِـنْ تَجـارِبَ حياتِـيَّةٍ ومِـنْ مَعـارِفَ كُتُـبِيَّةٍ، وفَـوْقَ ذَلِـكَ جَميعًـا بِمـا ارْتَضـاهُ لِنَفْـسِهِ نَهْجَ حَيـاةٍ ومِنْهـاج.

مِـنَ القَليـلِ المُتَوَفِّـرِ عَـنْ سِـيرةِ إسْـكَنْدَرَ الرِّياشـيِّ أنَّـهُ كانَ الثَّانِـي بَيْـنَ خَمْسَـةِ أوْلادٍ مـاتَ عَنْهُـم والِدُهُـم بَرْجيـس بِعُمْـرِ المَسِـيح (٣٣ عامًـا)[٣]، وأنَّ روزا زَلْـزَل، والِدَتَـهُ، كانَـتْ «فِتْـنَةَ القَرْيَـةِ» وأنَّهـا «أوَّلُ امـرأةٍ بُهِـرَ بِجَمالِهـا»، وَأنَّ حُسْـنَهُ هـوَ، وَهـوَ حُسْـنٌ لا يَزْهَـدُ، هُنـا وَهُنـاكَ، فـي تَزْكِيَتِـه بالتَّـفاصيلِ،[٤] وفـي تَـقْرِيظِ مـا أشْـرَعَهُ لَـهُ مِـنْ مَخـادِعَ، وَوَطَّـأهُ لَـهُ مِـنْ أسِـرَّةٍ عالِيَـةِ المَقـامِ،[٥] هـوَ بَقِيَّـتُها فيـه![٦]

•

(٣) يَرْفَـعُ صَقْـر صَقْـر نَسَـبَهُ علـى النَّحْـوِ الآتـي: «هـوَ [إسكَـندَر] بـنُ بَرْجيـسَ بـنُ يعقـوبَ بـنُ يوحَنَّـا الرِّياشـي. وَهُـم فَـرْعٌ مِـنْ أُسْـرَةِ الحَـدَّاد. قَـدِمَ جَدُّهُـم مَخْلـوف بـنُ داود بـنُ شـرفان بـن داود أو جبرائيـل الحَـدَّاد الحَوْرانـي إلـى قَرْيَـةِ زَبُّوغَـة بِلُبْنـانَ ولُقِّـبَ بالرِّياشـيِّ ثُـمَّ انْتَـقَلَ أولادُهُ مِنْها: حـنَّا سـارَ إلى طرابلـس ويُوسُـفُ إلـى قـاعِ الرِّيم، ويعقـوبُ سَـكَنَ الخِنْـشارة»، «قصَّـة الصِّحافة فـي لُبنـان»، إعـداد صقـر يوسـف صقـر، **معلومـات**، العـدد ٧٧، نيسـان ٢٠١٠، المركـز العربـي للمعلومـات.

(٤) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، ص. ١١.

(٥) من ذلك: تَغَزُّلُهُ بِنُعومَةِ بَشَرَتِهِ، ص.٣٢٧، **حِسانٌ فاضلاتٌ بالرَّغْمِ عنهنّ**.

(٦) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، ص. ١١.

بَيْـنَ الحَداثَـةِ والمُراهَقَـةِ، ارْتـادَ الرِّياشـيُّ مَدْرَسَـةَ «الكُلِّـيَّةِ الشَّرْقـيَّة» المُلْحَقَـةَ بِـدَيْرِ مار يُوحَـنَّا الصَّابِغ التـي كانَ افْتِـتاحُها علـى خَريفِ ١٨٩٨؛ وخِلالَ الثَّمانِـيَةَ عَشَـرَ شَـهْرًا التـي قَضاهـا فـي هـذِهِ المَدْرَسَـةِ، أُغْـرِمَ، علـى ذِمَّتِـهِ، بـ«سَـلْوى» التـي «نَهَـدَ نَهْدَاهـا ذاتَ يَـوْمٍ فصـارَتِ امـرأةً كامِلَـةَ الأوْصـافِ بَيْـنَ لَيْلَـةٍ وضُحاهـا»، وخِلالَهـا أيْضًـا، علـى ذِمَّتِـهِ دَوْمًـا، حـاوَلَ قَـتْلَ نَفْسِـهِ مَرَّتَيْـنِ: مَـرَّةً لمَّـا حِيـلَ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مُغـادَرَةِ الدَّيْـرِ لِزِيـارَةِ أهْلِـهِ ولِقـاءِ سَـلْوى تِلْـك، ومَـرَّةً ثانِيَـةً، ذاتَ مُلابَسـاتٍ أكثَـرَ غموضًـا، يُسْتَـدَلُّ مِـنْ رِوايَتِـهِ لَهَـا أنَّ وَراءَهـا مَزيجًـا مِـنْ حَسْـرَةٍ علـى غَرامِـهِ بِـسَلْوى التـي صَرَمَتْـهُ، ومِـنْ نَوْبَـةِ تَدَيُّـنٍ اسْـتَوْلَتْ عَلَيْـهِ مِـنْ جَـرَّاءِ ذلـكَ الصَّرْمِ وَزَيَّـنَتْ لَـهُ الالْتِحـاقَ بِـسِلْكِ الكَهَنـوت.

كانَ ذلِـكَ، وَمِـنْ حُسْـنِ حَظِّنـا أنْ كانَ، فَـتَحْتَ تِلْـكَ الظُّـروفِ والمُلابسـاتِ ضَـلَّ الرِّياشـيُّ عَـنْ طَريـقِ الدَّعْـوَةِ، أو ضَلَّـتْ هِـيَ عَنْـهُ، ووُلِـدَ رِياشِـيُّنا![٧]

لَـمْ يَـدَعْ إسْكَـنْدَرُ الرِّياشـيُّ نَوْبَةَ تَدَيُّـنِهِ وَتَـقْواهُ تَذْهَبُ سُـدًى؛ فَـلَقَدِ اسْـتَسْـنَحَها لِيَنْـكَبَّ علـى المُطالَعَـةِ فـي

(٧) **نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة**، الفصـل الثالـث، وعُنْـوانُ هـذا الفَصْـلِ: «عاشِـقٌ أمْ كاهِـن؟».

تاريـخِ المِلَـلِ والنِّحَـلِ والفِـرَقِ التـي تَعُـجُّ بِهـا هـذِهِ البِـلادُ، واسْتَوْقَـفَـتْهُ مِنْهـا، علـى حَـدِّ قَـوْلِهِ، النُّصَيْرِيَّـةُ لأفْرودِيَّتِها والإيزدِيَّـةُ لِشَيْطانِيَّـتِها... وَلَمْ يَفُـتْهُ مـا يَعْمَلُ بِـهِ «المَتاوِلَـةُ»، (مَتاوِلَـةُ جَبَـلِ عامِـلَ علـى حَـدِّ قَوْلِـه)، مِـنَ «الزَّواجِ المُنْقَـطِعِ»، (زَواجِ المُتْـعَةِ)، فَحَمِدَهُ وأشـادَ بِـهِ وغَبِـطَ بِـحَسْرَةٍ ذاكَ الزَّعيـمَ الـذي كان يُزَيِّـنُ فِراشَـهُ كُلَّ لَيْلَـةٍ بِـ«زَوْجَـةٍ» جَديـدة![8]

وَكَمـا أفـادَتِ الرِّياشـيَّ هـذِهِ المُطالَعـاتُ مَعـارِفَ عامَّـةً تَـتْرُكُ بَصَمـاتٍ ظاهِـرَةً علـى كُلِّ مـا كَتَبَـهُ، بمـا فيـهِ الأعْبَـثُ والأخَـفُّ، فَـلَقَدْ كانَ لَهـا الفَضْـلُ فـي صَرْفِـهِ صَرْفًـا لا رَجْعَـةَ عَنْـهُ عمَّا اسْـتَوْلى عَلَيْـهِ مِنْ دَعْـوَةٍ دينيَّةٍ إلـى بـابٍ آخَـرَ مِـنَ المُطالَعَـةِ ـ مُطالَعَـةِ «الرِّوايـاتِ الأجْنَبِيَّـةِ»... ولكِـنْ لَيْـسَ هـذا فَحَسْـبُ... فَـ«لَقَـد ألْهَبَتْ مُطالَعَـةُ هـذِهِ الرِّوايـاتِ شَـهْوانِيَّتي السِّـنْخِيَّةَ، وأثْـرَتْ بمـا لا يُقـاسُ خَيالِـيَ الجَمـوحَ المُتَفَـلِّت».[9]

علـى السَّـابِعَةَ عَشْـرَةَ مِـنَ العُمْـرِ، أيْ حوالَـي ١٩٠٧، إذْ كانَـتْ قُـرَّةُ العَيْـنِ مِـنَ الرِّياشـيِّ النِّسـاءَ والمُطالَعَـةَ، وإذْ

---

(٨) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، ص. ٢٥.

(٩) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، ص. ٢٧.

كانَ ما يَزالُ يَعْتَمِدُ في مَعاشِهِ على نَفَقَةِ والِدَتِهِ مُسْتَأْثِرًا بِما يُفْتَرَضُ أنْ يَؤولَ إلى إخْوَتِهِ الصِّغارِ، ارْتَأَتِ العائِلَةُ أنَّ الأوانَ قَدْ آنَ لِيَقومَ بِأَوَدِ نَفْسِهِ فألْحَقَتْهُ بِأخوالِهِ آلِ زلزل المُهاجِرينَ إلى مِصْرَ والنَّاشِطينَ هُناكَ في قِطاعِ المُقاوَلاتِ وسِواه.[١٠]
أمْضى الرِّياشيُّ في القاهِرَةِ أرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أنِ اسْتَبَدَّ بِهِ الحَنينُ إلى الوَطَنِ فعادَ عَوْدَهُ، وما هيَ أنْ ألْقى عصاهُ حتَّى اقْتُرِحَ عَلَيْهِ أنْ يَعْمَلَ لِحسابِ مُقاوِلٍ الْتَزَمَ بِناءَ تَحْصيناتٍ لِحسابِ السُّلُطاتِ التُّرْكِيَّةِ في حورانَ فاسْتَجابَ للاقْتِراحِ، ولكنَّ قِصَّةَ حُبٍّ انْتَسَجَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فتاةٍ هُناكَ سَرْعانَ ما انْقَلَبَت وَبالًا عَلَيْهِ وعلى رَبِّ عَمَلِهِ، وأدَّتْ بالمُقاوِلِ المَذْكورِ وَرَهْطِهِ إلى مُغادَرَةِ حَورانَ هَرَبًا مِن سُوءِ العاقِبَةِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلام.[١١]
مُجَدَّدًا عادَ الرِّياشيُّ إلى لُبنانَ ـ ولكِنْ هذِهِ المَرَّةَ إلى زَحْلَة التي كانَتْ والِدَتُهُ قَدِ انْتَقَلَتْ إلَيْها مِنَ الخِنْشارَة... وإذا افْتَرَضْنا أنَّ مُغامَرَتَيْهِ المِصْرِيَّةَ

(١٠) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، ص. ٤٢.
التَّفْصيلُ ذو الصِّلَةِ بالأخْوالِ آلِ زَلْزَل، روايَةً عَنِ الأُسْتاذِ ملحم رِياشي.
(١١) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفَصْل التَّاسِع. مراجعة السَّالِفَةِ في هذا الكِتابِ في الفَصْلِ المُعَنْوَنِ «آخِرُ أميراتِ بني غسّان»، ص. ٥٤ أدناه.

والحَورانيَّـةَ قـد دامَتـا نَحْـوَ عامَيْـنِ، فهـا نَحْـنُ، إذًا، علـى نِهايَـةِ العَقْـدِ الأوَّلِ مِـنَ القَـرْنِ العِشْـرين.

لـم يَطُـلِ المُقـامُ بالرِّياشـي في زَحْلَـة... وإذْ لَمْ تَخْـتَـلِفِ الأسْبابُ التـي حَـدَتْ بِـهِ إلـى الفِـرارِ مِنْها عَـنِ الأسْبابِ التـي أخْرَجَتْـهُ، هـوَ وصَحْبَـهُ مِـنْ حَـوْرانَ، فهـوَ يَنْسِـبُ إلـى فِـرارِهِ مِـنْ أحَـدِ مَنـازِلِ زَحْلَـة، رَبِّي كمـا خَلَـقْـتَـني، اعْتِـناقَهُ التَّـيَهانَ سَـبيلًا فـي الحَياةِ، وإلـى اتِّخاذِهِ كُنْـيَةَ «التَّائِـه»...[١٢]

وَنِعْـمَ التِّـيهُ... فَـ«قَـبْلَ فِـراري مِـنْ زَحْلَـة كُنْـتُ جاهِـلًا بِتاريـخِ هـذا الجَبَـل[١٣] وَبِمـا يَحُـفُّ بِهـذا التَّاريـخِ مِـنْ أسـاطيرَ وَمَرْوِيَّـاتٍ» و«فـي تِـيهي لَـمْ أكْتَـفِ بِمُطـارَدَةِ النِّسـاءِ فَحَسْـبُ بَـلِ انْصَرَفْـتُ أيْضًـا إلـى تَقَصِّـي تاريـخِ كُلِّ قَرْيَـةٍ مِـنَ القُـرى التـي لُـذْتُ بِهـا»... بل أكْـثَرُ... ففي رِحْلَـةِ الفِـرارِ هـذِهِ سـارَتْ بالرِّياشِـيِّ قَدَمـاهُ، فـي مـا سـارَتْ، إلـى بعبـدا...[١٤] وفـي بعــبدا، دَرَسَ الحُقـوقَ![١٥]

---

(١٢) **نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة**، الفصـل الحـادي عشـر. يَـرْوي الرِّياشـي قِصَّـةَ فِـرارِهِ هـذِهِ فـي الفَصْـلِ المُعَـنْوَنِ «الحَمَّامـات السّـحريّة»، ص. ٦٤ أدنـاه.

(١٣) المَقْصودُ بِطَبيعَةِ الحالِ جَبَلُ لُبنان.

(١٤) كانَ ابْتِنـاءُ سـراي بعبـدا، واتِّخاذُهـا مَقَـرًّا شَـتَوِيًّا لِدَوائِـرِ المُتَصَرِّفِيَّـةِ فـي عَهْـدِ المُتَصَـرِّفِ واصَـه باشـا (١٨٨٢ ـ ١٨٩٢)؛ **نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة**.

(١٥) وَيَزْعُـمُ فـي مـا يَزْعُـمُ أنَّـه تَرافَـعَ لِـمَرَّةٍ واحِـدَةٍ في حياتِـهِ دِفاعًـا عَـنْ بِنْـتِ هَـوًى... **نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة**، ص. ٧٤.

وفـي بعــبدا بَـدَأَ اهْتِمامُـهُ بالسِّياسَـةِ، وفي بعــبدا ارْتَجَلَ نَفْــسَهُ صِحافِيًّــا «علــى غَيْــرِ تَمَــرُّسٍ بِفَــنِّ الكِتابَــةِ أو بِفَـنِّ الكَـذِبِ»،[١٦] وفيهـا، علـى ذِمَّــتِهِ، كانَ أوَّلُ إصْـدارٍ لِــمَطْبوعَةٍ بِعُنْـوانِ **الصِّحافـي التَّائِــه**.[١٧] دامَـتْ هـذِهِ المُغامَـرَةُ الصِّحافِـيَّةُ ثمانِيَـةَ عَشَـرَ شَـهْرًا انْـتَهَتْ ذاتَ يَـوْمٍ بـأنْ نَفَـضَ الرِّياشِـيُّ يَـدَهُ مِنْهـا، وتَبِـعَ هَوى نَفْــسِهِ، ورَكِـبَ البَحْـرَ مُيَمِّمًـا شَـطْرَ فَرَنْسـا...[١٨]
بِناءً عَلَيْهِ، يَكونُ ذلكَ، إنْ صَحَّ تَقْـديرُنا، حَوَالَي ١٩١٢.

وَمِـنْ فَرَنْسـا، علـى مَتْـنِ عِشْـقٍ جَديـدٍ، قَطَـعَ الرِّياشِـيُّ الأطلَـــسيَّ إلـــى الوِلايـاتِ المُتَّحِـدَةِ الأميركيَّـةِ.[١٩] لَـمْ يُكْــتَبْ لِهـذا العِشْـقِ عُمْـرٌ مَديـدٌ ولا دامَــتْ إقامَــتُهُ النّـــيويوركيَّةُ طَويـلًا ولكــنْ، علــى الرَّغْـمِ مِــنْ قِصَـرِ هـذِهِ الإقامَـةِ، فَــلَقَدِ اتَّسَـعَتْ لِكَـي يَبْـــنِيَ الرِّياشِـــيُّ لِـنَفْــسِهِ، علــى مـا يَـرْوي، مَكانَــةً مـا بَيْــنَ لُبنانِـــيِّي نيويـورك... بَـلْ... لِكَـيْ يُباشِـرَ هُنـاكَ، إصْـدارَ مَطْبوعَـةٍ باسْــمِ **ذي نيــو كونـــتري**![٢٠]

---

(١٦) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفَصْل الثاني عشر والفصل الثالث عشر.
(١٧) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفصل الثالث عشر.
(١٨) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفَصْل الثالث عشر.
(١٩) مراجعة الفَصْلِ المُعَنْوَن: «كُنْتُ حَفيدَ الكاردينال دو ريشليه»، ص. ٦٩.
(٢٠) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفصل الرابع عشر ص. ٩٢.

وكما قَطَعَ الأطْلَسِيَّ ذَهابًا على مَتْنِ عِشْقٍ جَديدٍ، فَلَقَدْ قَطَعَهُ إيابًا، إلى فَرَنْسا، تَلْبِيَةً لاشْتِراطاتِ عَلاقَةٍ ألْجَأَهُ إليها ضيقُ ذاتِ اليَدِ ـ كانَتْ قَدِ انْتَسَجَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيِّدَةٍ يَصِفُها بـ«الشَّمْطاءِ اللُّبنانيَّة».[٢١]

لا غَرْوَ إذًا أنِ اسْتَسْنَحَ الرِّياشيُّ أوَّلَ فُرْصَةٍ سَنَحَتْ لِيَتَمَلَّصَ مِنْ أسْرِ شَمْطائِهِ اللُّبنانيَّةِ تِلْك، ولِيَفِرَّ مُجَدَّدًا عائِدًا إلى لبنان... وكأنَّما المصادفات أعادَتْهُ إلى لُبنانَ في الوَقْتِ المُناسِبِ لِتَكْتَمِلَ حَبْكَةُ سيرَتِهِ المُدْهِشَةَ: فـ«لَمْ يَمْضِ يَوْمانِ على وُصُولي إلى بَيْروتَ حتَّى انْدَلَعَتِ الحَرْبُ العالميَّةُ الأُولى»![٢٢] و[٢٣]

(٢١) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفصل الرابع عشر ص. ٩٣.

(٢٢) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفصل الخامس عشر. للتَّذْكير: كانَ انْدِلاعُ هذِهِ الحَرْبِ في تَمُّوزَ ١٩١٤.

(٢٣) في سيرَةِ الرِّياشيِّ أيْضًا، على ذِمَّتِهِ، أنَّهُ عَمِلَ في هذِهِ الفَتْرَةِ مِنْ حَياتِهِ مُراسِلًا لِصَحيفَةِ «**الطان**» الفَرَنْسِيَّةِ التي كانَتْ، في حينِهِ، كُبْرى الصُّحُفِ الصَّادِرَةِ في باريسَ بلا مُنازِع. حتَّى إشْعارٍ آخَرَ، تَبْقى هذِهِ المَعْلومَةُ بِرَسْمِ التَّحْقيق... أنَّى يَكُن، وبِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ صِحَّتِها، فالظَّاهِرُ أنَّ دَعْوى الوَصْلِ بِلَيْلى، وَمُراسَلَةَ «**الطَّان**»، أو النَّشْرَ فيها، كانَ أيَّامذاكَ «عالمُوضَة»، وَمِنْ مَخايل السَّبْقِ والتَّفَوُّق. فَعُمَر، بَطَلُ الرِّوايَةِ التَّاريخيَّةِ **٦ أيَّار ـ قِصَّة شُهَداءِ الوَطَن** التي كَتَبَها سميح الزِّين ـ (و«ساهَم» في قَصِّ وقائِعِها التَّاريخيَّةِ وجيه علم الدين «الضَّابط في الجَيْشِ العَرَبِيِّ خِلالَ الحَرْبِ العالميَّةِ الأولى»، ١٩٦٦) ـ عُمَرُ ذاكَ، مثلًا، يَكْتُبُ في **الطَّان** «مَقالاتٍ حَوْلَ القَضِيَّةِ العَرَبِيَّة».

فـي بَيْـروتَ التـي لا تَفـوتُ الرِّياشـيُّ الإشـارَةَ إلـى أنَّ والِدَتَـهُ كانَـتْ قَـدِ انْتَـقَـلَـتْ للسَّـكَنِ فيهـا، اسْتَأْنَـفَ مُغامَراتِـهِ العاطِـفِيَّةَ، وإذْ فَتَحَـتْ لَـهُ هـذه المُغامـراتُ أبْـوابَ المُجْتَمَعِ المُخْـمَـلِيِّ فَـلَقَدْ قرَّبَـتْهُ أكْثَـرَ فأكْثَـرَ مِـنَ «السِّياسَـةِ» وصُـنَّاعِها، وهـو مـا حَـدا بِـهِ، «حادِسًـا بـأنَّ السَّلْطَـنَةَ العُثْـمانِيَّةَ علـى وَشْـكِ السُّـقوطِ، إلـى مُعاوَنَـةِ أُولئـكَ السَّـاعينَ إلـى تَعْجيـلِ هـذا السُّـقوطِ»، مُضيفًـا بـلا تَـرَدُّدٍ أنَّ دافِعَـهُ مِـنْ وَراءِ ذَلِـكَ كانَ حُـبَّ المُغامَـرَةِ والكَسْـبَ المـادِّيَّ لا الشُّـعورَ الوَطَنِـيَّ ولا مَـنْ يَحْزَنـون...[٢٤]

كان اتِّصـالُ الرِّياشـي بِهـؤلاءِ، علـى مـا يَـروِي، عـام ١٩١٧، وكانَ هَـؤلاءِ السَّـاعونَ إلـى تَعْجيـلِ سُـقوطِ السَّلْطَـنَةِ الذيـن ارْتضـى الرِّياشـيُّ العَمَـلَ لِحِسـابِهِم «جَماعَـةَ أرْواد»... وأرْوادُ، يـا سـادَةُ يـا كِـرام، كمـا لا يُحِـبُّ اللُّبنانيُّـون أنْ يَذْكُـروا وأنْ يُذَكَّـروا، «قِصَّـةٌ كَبـيرة»، علـى مـا تَقـولُ العامِّـيَّة اللبنانيَّـةُ، فـي تاريـخِ لُبنـان...

ففـي الأوَّلِ مِـنْ أيْلـولَ ١٩١٥، تَحْـتَ ذَريعَـةِ فَـكِّ الحِصـارِ المَضْـروبِ علـى جَبَـلِ لُبنـان، سَـيْطَرَتْ قُـوَّاتٌ

(٢٤) **نَعيشُ مَعَ الآلِهَة**، الفصل التاسع عشر.

فَرنْسِـيَّةٌ علـى جَزِيـرَةِ أرْوادَ وحَوَّلَتْهـا، بِلُغَـةِ اليَـوْمِ، إلـى غُرْفَـةِ عَمَلِـيَّاتٍ مُتَقَـدِّمَةٍ يُـدارُ مِنْها المَجْهـودُ الإغاثِـيُّ والعَمَـلُ الاسْـتِخباريُّ الأمْنِـيُّ سـواءً بِسـواء...(٢٥) لَيْـسَ مِـنْ شَـأْنِ هـذِهِ العُجالَـةِ أنْ تُحْصِـيَ كُلَّ المَهـامِّ التـي عَهِـدَتْ بِهـا أرْوادُ، والتـي عَهِـدَ بِهـا الانْتِـدابُ الفَرَنْسِـيُّ، بَعْـدَ الحَـرْبِ، إلـى الرِّياشـيِّ، والتـي يُطالِعُنـا بِكَثيـرٍ مِـنْ تَفاصيلِهـا فـي كُتُـبِهِ ومنهـا **نِسْـوان مِـنْ لُبنـان**، وإنَّمـا المُـؤَدَّى مِـنَ الإشـارَةِ إلـى هـذِهِ المَهـامِّ مـا أتاحَتْـهُ لَـهُ مِـنْ أسْـفارٍ فـي أرْجـاءِ الشَّـرْقِ الأوْسَـطِ ـ أسْـفارٍ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ إنَّهـا غَـذَّتْ فُضولَـهُ الشَّـرِهَ أصْلًا، وَفَتَحَـتْ عَيْـنَيْهِ على مَسائِلَ وقَضايـا مـا يَـزالُ مُعْظَمُهـا علـى جَـدْوَلِ أعْمـالِ اليَـوْمِ وَهُمومِـهِ وَسِـجالاتِه ـ وَلَيْـسَ أقَـلَّ هـذِهِ المَسـائِلِ خَطـرًا مَسْـأَلَةُ نُشُـوءِ، بَـلِ ارْتِجـالِ، الـدُّوَلِ فـي هـذِهِ المِنْطَقَـةِ مِـنَ العالَـم ـ عِـلاوَةً علـى أنَّهـا أسْـفارٌ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ إنَّ رِوايَتَـهُ لَهـا، وسَـرْدَهُ لِمُشـاهَداتِهِ خِلالهـا، واسْـتِطراداتِهِ الجَـمَّةَ بِـمُناسَبَةِ هـذِهِ أو تِلْـكَ مِنْهـا،

(٢٥) ومِـنْ نافِـلِ القَـولِ أنَّ حَـقَّ أرْوادَ «اللُّبنانِيَّـةِ» هـذِهِ أنْ يُـؤَرَّخَ لَهـا بالتَّفاصيـلِ المُمِلَّـةِ... بَـلْ نَتَمَـادَى، علـى هَـدْيٍ مِمّـا أُتيـحَ لَنـا مُطالَعَتُـهُ هُنـا وهنـاكَ، فَـنَقَول: لا يَكْتَمِـلُ تَاريـخٌ لِلُبْنـانَ لا يَلْحَـظُ أيـادي أرْوادَ و«جماعَـةِ أرْواد» عَلَيْـهِ قَبْـلَ إنْشـائِهِ دَوْلَـةً فـي ١٩٢٠ وَبَعْدَهـا.

جَديـرٌ بـأنْ يُعَـدَّ فـي أدَبِ السَّـفَرِ والرِّحْلَـةِ، وجَديـرٌ بـأنْ يُضيـفَ إلـى أسْـماءِ الرِّياشـيِّ الحُسْـنى اسْـمَ الرَّحَّالَـةِ الفُضُولـيِّ، جَـوَّابِ الآفـاقِ المُقْـبِلِ علـى اكْتِـشافِ العالَـمِ بِـنَهَمٍ لا يَصُـدُّهُ حَيـاء.

فـي سَـنَةِ ١٩٢٠ عُيِّـنَ الرِّياشـي مُعاوِنًـا لِـمُسْتَـشارِ البِقـاعِ فـي المُفَوَّضِيَّـةِ الفَرَنْسِـيَّةِ، وفـي هـذهِ السَّـنَةِ أيْضًـا كَمَّـلَ الرِّياشِـيُّ نِصْـفَ دِينِـهِ وَدُنْـياه واقْـتَرَنَ بـماري قهوجـي التـي رُزِقَ مِنْهـا بِسَـبْعَةِ أوْلاد،[٢٦]

(٢٦) يَـرْوِي يُوسـف إبراهيـم يزبـك فـي «**حِكايَـةِ نـوَّار**» قِصَّـةَ زَواجِ الرِّياشـي فَـيَقول: «فـي سَنَةِ ١٩٢٠ كانَ إسكَـندَرُ رياشِـيّ مـارًّا بِـعَرَبَةِ خَيْـلٍ فـي سُـوقِ زحلـة، واتَّـفَـقَ أنْ نَظَـرَ إلـى عَـلٍ فَشاهَدَ علـى شُـرْفَةِ أحَـدِ المَنـازِلِ فَـتَاةً يُسَـبِّحُ اللَّـهُ جَمالَهـا، فَـسَأَلَ الحُـوذِيَّ:

- مَن سَكَنَ هذا البَيْت؟

- هُنا بَيْت القَهْوَجي.

- وهذهِ الفَـتاة الفَـتَّانَة "إللِّي قَـدّ اللّه؟"، (قالها باللُّغَةِ الزَّحْلِيَّة).

- هذِهِ ابْنَـتُـهُم، مدموزيل ماري... هِيَ مَلاكٌ طاهِرٌ مَعَ جَمالٍ وتَهْذيب.

وسَكَتَ الحُوذِيُّ قَـليلًا وقالَ: مْدَوَّخَة شَباب زحلة!

- شو؟ وأنا ما عِندي خَبَر؟ ارجع... ارجع!

ورَجَـعَ الحُـوذِيُّ، وصَعِـدَ صاحِبُنـا إلـى الطَّابِـقِ الأوَّلِ وقـالَ لِسُـكَّانِه: "داعيكُـم إسْكَـنْدَر رياشـي، سـكرتير المُسْتَـشار. مـا مِعـي قـرش... نـوري أنْدَبـوري ولكنِّـي كَريـم وطَـيِّب القَلْـب. أعْجَبَـتْني ابْنَتُكُـم الحُلْـوَة فهـل تُعطونَنـي إيَّاهـا؟"

... وتَمَّ النَّصيبُ بَعْدَ قِصَصٍ طَرِيفَةٍ طالَت أسْبوعًا.

وهكـذا تَوالَـت أيَّـامُ إسْكَـنْدَر رياشـي طَـوالَ حَياتِـه علـى مِثـالِ زواجِـهِ، فَهَـلْ عَرَفْـتَ تيهَـه؟».

وَوَسْـطَ هَـذِهِ الزَّحْمَـةِ مِـنَ المُسْتَـجَدَّاتِ فـي حياتَـيْهِ الخاصَّـةِ والعامَّـةِ، استَأنَـف، فـي ١٩٢٢، إصْـدارَ **الصِّحافـيِّ التَّائِـه.**[٢٧]

يوسـف إبراهيـم يزبـك، **حكايـة أوَّل نَـوّار فـي العالَـم وفـي لبنـان ـ ذِكْرَيـات وتاريـخ ونُصـوص**، دار الفارابـي، بيـروت، نيسـان ١٩٧٤، ص. ٥٠ ومـا يليهـا. أمـا أبْنـاءُ الرِّياشـي مِـنْ مـاري قهوجـي فهُـم: جـان ومـارك وجوزيـف وكوليـت وتيـودور وناتاشـا وروميـو.

(٢٧) نَقـولُ «اسْـتَأْنَفَ إصْـدارَ الصِّحافـي التَّائـه» علـى غَيْـرِ يَقيـنٍ مِـنْ صِحَّـةِ مـا نَذْهَـبُ إلَيـه حَيْـثُ أَنَّ مُسْتَـنَدَنا الوَحيـدَ عَلَيْـهِ هـو زَعْمُ الرِّياشـيِّ، فـي «نَعيشُ مَعَ الآلهـة»، أنَّ أوَّلَ إصْـدارٍ لـ «الصِّحافـي التَّائه» كان في بعبدا، وهوَ مُسْتَـنَدٌ ليس مـا يُـؤازِرُهُ. هَـلْ زَعَـمَ الرِّياشـيُّ أنَّـهُ أصْدَرَ «الصِّحافـي التَّائـه» فـي بعبـدا مِـنْ بابِ التَّأكيـدِ علـى رسُـوخِ قَدَمِـه، مُنْذُ اليَفاعَـةِ، فـي مِهْنَـةِ الصِّحافَـةِ مُـؤْثِرًا «التَّضْحِيَةَ»، لأسْـبابٍ روائِيَّـةٍ، بالإشـارَةِ إلـى جَريـدَةِ «البردونـي» التـي تَـتَضافَرُ الشَّـواهِدُ أنَّهـا المَطْبوعَـةُ التـي أصْدَرَهـا قَبْـلَ رِحْلَتِـهِ الأميركيَّـة؟ الڤيكونـت فيليـب دو طـرازي، فـي الجُـزْءِ الرَّابِـعِ، (صفحـة ٣٨)، مِـنْ تاريـخ «الصِّحافة العربيَّـة»، يُثْـبِتُ أنَّ جَريدَةً باسْـمِ «البردونـي»، لِمُـنْشِـئَـيْها سـالِم وإسكَـنْدَر رياشـي «ظَهَـرَتْ» فـي مَدينَـةِ زحلـة فـي ٢٥ حزيـران ١٩١٠، ويُتابِعُـهُ فـي ذلـكَ يُوسـف أسْـعَد داغـر (قامـوس الصِّحافـة اللبنانيَّـة ١٨٥٨ ـ ١٩٧٤، المكتبـة الشـرقية، ١٩٧٨، صفحـة ٨٢) الـذي يُعَيِّـنُ صُدورَهـا فـي ٢٣ حزيـران ١٩١٠؛ هـذا فـي حيـن أنَّ أيًّـا مِنْهُمـا، دي طـرازي وداغـر، لا يَذْكُـرُ أنَّ مَطْبوعَـةً باسْـمِ «الصِّحافـي التَّائـه» صَـدَرَتْ قَبْـلَ العِشْرينـيَّات فـي بعبـدا. ولِلْعِلْـمِ بالشَّـيْءِ، فالظَّاهِـرُ أنَّ مَشْـروعَ إصْـدارِ «البردونـي» سـابِقٌ، فـي نيَّـةِ الرِّياشـي، علـى صُدورِهـا بِسَـنَواتٍ حيـثُ إنَّـهُ اسْـتَحْصَلَ علـى امْتِيازِهـا «فـي العَهْـدِ العُثمانـيِّ سـنة ١٩٠٦»؛ (مراجعـة المَدْخَـل الخـاصّ بـ«الصِّحافـي التَّائـه» فـي «قامـوس الصِّحافَـة اللّبنانيَّـة»، صفحـة ١٧٧). ولِلْعِلْـمِ بالشَّـيْءِ أيْضًـا، وعلـى ذِمَّـةِ وَزيـرِ الإعْـلامِ اللُّبنانـي السَّـابق ملحـم رياشـي، فـلا صِلَـةَ قَرابَـةٍ مُباشِـرَةً بَيْـنَ إسكَـندَرَ وسـالم حَيْـثُ إنَّ الثَّانـي يَتَـنزَّلُ مـن الفَخْـذِ الرِّياشـيِّ الـذي اسـتوطن قاع الريـم. بالعَـوْدِ إلـى مـا تَـقَـدَّمَ، مِمّـا يُسْـتَدَلُّ بِـهِ على تَعَمُّـدِ الرِّياشـيِّ الخَلْـطَ بَيْـنَ

«البردونـي» و«الصِّحافـي التَّائـه» فـي سَـرْدِيَّة «نَعيـشُ مَـعَ الآلِهَـة» أنَّ العَـدَدَ الأوَّلَ مِـنَ «الصِّحافـي التَّائـه» الصَّـادِرَ فـي زحلـة فـي ٢٨ أيلـول ١٩٢٢ مُصَـدَّرٌ بِشِـعارِ «الصِّحافـي التَّائـه» وَتَحْتَـهُ شِـعارُ البردونـي وأنَّ افْتِــتاحيَّةَ هـذا العَـدَدِ تُشـيرُ إلـى أنَّهـا «كانَـتْ تُـدْعى بـ«البردونـي»، وَشِـعارُها مـا جـاءَ يَـوْمَ ظُهورِهـا لأوَّلِ مَـرَّةٍ قَبْـلَ الحَـرْب...». يَبْقـى أنَّ هـذا الخَلْـطَ فـي الأسْـماءِ لا شَـيْءَ يُذْكَـرُ بَيْـنَ يَـدَيْ صَمْـتِ نَعيـشُ مـع الآلِهَـة المُطْبِـقِ فـي مـا يَتَعَلَّـقُ بــ «سياسَـةِ» الصِّحافـي التَّائه/البردوني عِنْـدَ بِدايـاتِ صُدورِهـا. هَـلْ تُفَسِّـرُ هـذا الصَّمْـتَ رَغْبَـةُ الرِّياشـيِّ فـي أنْ يُعْفـيَ نَفْــسَهُ مِـنْ مَشَــقَّةِ الاسْـتِفاضَةِ فـي بَيـانِ مـا ذَهَـبَ إلَيْـهِ علـى صَفَحـاتِ الصِّحافي التَّائه/البردونـي مِـنْ تَرويجٍ لـ«الأفْكارِ الاشْـتِراكيَّةِ»؟ ـ (على الْتِــباسِ المَقْصودِ بِــهذه «الأفْـكار» وبِــهَذِهِ «الاشْـتِراكيَّةِ»)، مُقَــدِّرًا أنَّ ارْتِفـاعَ التَّناقُـضِ بَيْـنَ الدِّفـاعِ عَنْ هذِهِ الأفْـكارِ وَعَـنْ مُـوالاةِ الانْــتِدابِ فـي آنٍ مَعًـا يَسْـتَعْصي علـى قُــرّاءِ «نَعيـشُ مـع الآلِهَـة؟»

مِـنَ المُفيـد، هُنـا، لَرُبَّمـا، التَّمَلِّـي مِـنَ الإشـارَةِ العابِـرَةِ وإنَّمـا حَمَّالَـةُ الأوْجُـهِ التـي تَـرِدُ تَحْـتَ قَـلَمِ يوسـف إبراهيـم يزبـك فـي مَعْـرِضِ سَـرْدِهِ قِصَّـةَ إصْـدارِ الرِّياشـي «الصِّحافـي التَّائـه»، والتـي يُسْتَــفادُ مِنْهـا أنَّ إصْـدارَ هـذِهِ المَطْبوعَـةِ كانَ بِوَحْـيٍ مُوحـى. يقـول: «فـي الثَّامِـنِ والعِشْـرينَ مِـنْ أيلـولَ سَـنَةَ ١٩٢٢ صَـدَرَتْ فـي زحلـة جَريـدَةٌ باسْـمِ الصِّحافي التَّائه لِمُنْـشِـئِها إسكَـندَرَ رياشـيّ. وكانَ قَــدْ أصْدَرَ قَــبْلَ المَجْـزَرَةِ العالَمِيَّـةِ الأُولى جَريـدَةً باسْـمِ البردونـي غَيْـرَ أنَّ أعْصابَـهُ المُتَحَرِّكَـةَ دَوْمًا دَعَــتْهُ إلـى التِّيـهِ فـي بِلاد اللـه فأقْــفَلَ البردونـي ورَحَلَ إلى بوسـطن فـي الوِلاياتِ المُتَّحِـدَة. فَلَمَّـا رَجَـعَ إلـى لُبنـانَ بَعْـدَ انْتِهاءِ الحَـرْبِ المَشْـؤومَةِ وخَطَرَ لَـهُ ـ أو قيلَ لَـهُ ـ أنْ يُعيـدَ جَريدَتَـهُ سَـمَّاها «الصِّحافـي التَّائـه»، إشـارَةً إلـى تيهِهِ السَّـابق. ولَيْسَ مِـنْ نَعْـتٍ يَنْطَبِـقُ عَلَيْـهِ مِثْـلُ التَّائــه: فهـوَ تائِـهٌ فِكْـرًا، وسُـلُوكًا، وتَعْبيـرًا زحليًّا... ولكـنَّ فيـهِ ظَرْفًـا لا حَـدَّ لَـهُ. يُجيـدُ اللَّــذْعَ والسُّـخْرِيَةَ بِـذَكاءٍ وَخِفَّـة روح. وفيـهِ طيـبٌ إنْ صَفـا. ولكـنَّ هـذا كُلَّـهُ يَنْقَــلِبُ إلـى عَكْسِـهِ فيمـا إذا عَنَّ لَـهُ أن يَتِـيه!»، (حكايـة أوَّل نَـوَّار).

علـى أنَّـهُ، وبِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَمَّـا أهْمَـلَ الرِّياشـيُّ الإشـارَةَ إلَيْـهِ، ومـا ارْتَـأى أنْ يُسْـقِطَهُ مِـنْ سـيرَتِه، فهـذا الإهْمـالُ أو هـذا الارْتِــئاءُ لا يَحـولانِ بَيْـنَ مُـؤَرِّخٍ للحَرَكَةِ الشُّـيوعيَّةِ وبَيْـنَ أنْ يَكْتُـبَ إنَّ «جَريـدَةَ الصِّحافـي التَّائِـه قـد أدَّتْ مُهِمَّـةً أساسـيَّةً

كُبْرى في نُشوءِ الحَرَكَةِ الشُّيوعيَّةِ عِنْدَما اسْتَقْطَبَتِ الشَّبابَ المُثَقَّفَ وَدَفَعَتْهُ لِلْعَمَلِ في الاتِّجاهِ الشُّيوعيِّ، وأعْطَتْهُ الوسيلَةَ التي يُعَبِّرُ بِها عَنْ آرائِهِ ويَتَوَجَّهُ بِواسِطَتِها إلى الشَّعْب...»، سهيل أيوب، الحزب الشُّيوعي في سوريا ولبنان (١٩٢٢ ـ ١٩٥٨)، دار الحريَّة للطِّباعَةِ والنَّشْر، بيروت ١٩٥٩، ص ٥٦.

وفي أيِّ حالٍ، وإذا كانَ مِمَّا يُكْتَبُ في صَحيفَةِ الرِّياشيِّ أنَّ تَعْيينَ مَحَلِّهِ مِنَ «الصِّحافَةِ الثَّوْريَّةِ»، ويَدِهِ على بِداياتِ «النِّضالِ الثَّوْرِيِّ»، نَكَدَ مُؤَرِّخيهما الرَّسْمِيّين أيامَ عِزِّ «الحَنْبَلِيَّةِ» الشُّيوعيَّةِ فَتَراهُم لا يَأْتونَ على ذِكْرِهِ بالمَرَّةِ، أو يَمُرُّوا بِهِ مَرَّ السَّحابِ، فإنَّ شَيْخًا مِنْ شُيوخِ الشُّيوعيَّةِ مِنْ طَبَقَةِ أرتين مادويان لا يَمْلِكُ في مُذَكِّراتِهِ التي كَتَبَها على نِهاياتِ حَياتِهِ إلّا أن يَفِيَهُ حَقَّهُ «المَوْضوعيَّ» بِهَذِهِ الكَلِماتِ: «في ظِلِّ هذِهِ الظُّروفِ السِّياسِيَّةِ والفِكْريَّةِ صَدَرَ في زحلة في ٢٨ أيلول ١٩٢٢ العَدَدُ الأوَّلُ مِنْ جَريدَةِ الصِّحافيّ التَّائه. وكانَتْ تَصْدُرُ مَرَّتَيْنِ في الأُسْبوع وقَدْ أعْلَنَتْ عَنْ نَفْسِها بأنَّها «جَريدَةُ العُمَّالِ والبُؤَساء». وكانَ صاحِبُها ومُديرُها المَسؤولُ إسكَندَرَ رياشي، وقَدْ حَدَّدَ مَواقِفَها السِّياسِيَّةَ والاجْتِماعيَّةَ في مَقالٍ افْتِتاحِيٍّ جاء فيه:
«هذِهِ الجَريدَةُ تَعْتَرِفُ بالتَّآخي بَيْنَ الطَّبَقاتِ وأنَّهُ لَحَقٌّ طَبيعيٌّ وصريحٌ، وهيَ تُكافِحُ مِنْ أجْلِ ذلِكَ، وَتَحْتَرِمُ الفَقيرَ التَّعِسَ أكْثَرَ مِنَ الغَنِيِّ والسَّعيد، لذلِكَ تَكونُ صَديقَةَ العامِلِ والمُزارِعِ والضَّعيفِ وَتُدافِعُ عَنْ مَصالِحِ هَؤلاءِ بِكُلِّ قُواها، وَتَعْتَرِفُ بأنَّ المَبادِئَ الاشْتراكيَّةَ المُعْتَدِلَةَ قَدْ جاءَ بِها الكِتابانِ الكَريمانِ لِعيسى وَمُحَمَّد». وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ حَدَّدَ سِياسَةَ الجَريدَةِ بأنَّها: «مَعَ الانْتِدابِ الفَرَنْسِيِّ وضَرورَةِ إشْرافِهِ على البِلاد. مِنَ الواضِحِ أنَّ إسْكَندَرَ رياشيَّ كانَ مُشَوَّشَ الأفْكارِ، وكانَ يَخْلِطُ بَيْنَ القَضايا الاجْتِماعيَّةِ والقَضايا الطَّبَقِيَّةِ، والمَبادِئِ الاشْتراكيَّة، وَيَجْهَلُ مَبادِئَ الاسْتِقلالِ الوَطَنِيِّ وَيَعْتَرِفُ بِضَرورَةِ الانْتِدابِ الفَرَنْسِيّ. بالرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ، لَعِبَتْ جَريدَتُهُ دَوْرًا إيجابيًّا لأنَّها خَصَّصَتْ صَفَحاتِها لِعَدَدٍ مِنَ الشُّبَّانِ الذين أدَّتْ تَساؤلاتُهُم وَمُناقَشاتُهُم والجَهْدُ التَّحْليليُّ الذي بَذَلَهُ أحَدُهُم إلى وِلادَةِ الحَرَكَةِ العُمَّاليَّةِ الحَديثَةِ في لُبنان». وقَدْ أكَّدَ هذا القَوْلَ الباحِثُ الفَرَنْسِيُّ، جاك كولان، حياة على المتراس، دار الفارابي، الطَّبعة الثانية، بيروت ٢٠١١، صفحة ٧٤.

علـى غِــرَّةِ الثَّلاثيــنيَّاتِ مِـنَ العُمْـرِ، إذًا، وفيمـا «لُبنـانُ الدَّوْلَـةُ» علـى مَقاعِدِ الانْتِـدابِ الابْتِـدائِيَّةِ، كان الرِّياشـيُّ، مُـزَوَّدًا بِمـا حَصَّلَـهُ مِـنْ مَعـارِفَ ومِـنْ تَجارِبَ، يَنْطَلِـقُ فـي فَضـاءِ الصِّحافَـةِ والسِّياسَـةِ، والكِتابَـةِ علـى أنْواعِهـا، بِمـا فـي ذَلِـكَ التَّرْجَمَـةُ إلـى العَرَبِيَّـةِ، مُحَلِّقًـا بِأجْنِحَـةٍ كَثيـرَةٍ لَيْـسَ أقَلَّهـا خَفَـقانًا جَنـاحُ الاسْـتِخفافِ بالأقْـداسِ، والاسْـتِهْزاءِ بِهـا، وفـي الطَّليعَـةِ مِـنْ هَـذهِ الأقْـداسِ التـي دَنَّسَـها الرِّياشـيُّ بِــمَرَحٍ وغَطْرَسَــةٍ لا يَــكادُ أنْ يَكـونَ لَهُمـا فــي العَرَبِيَّـةِ نَظيـرٌ، سُمْعَــتُهُ بَيْــنَ قُــرَّائِهِ ـ فَتَــلْفاهُ لا يَجِـدُ حَرَجًـا فـي أنْ يَسْـرُدَ علـى هَـؤلاءِ القُــرَّاءِ/القارِئاتِ، فـي مَعْـرِضِ الحَديـثِ عَـنْ لُبنـانَ واللُّبنانيِّيـن واللبنانيَّـاتِ، مـا لا مَزيـدَ عَلَيْـهِ مِـنْ أخْبـارٍ ومِـنْ أحاديـثَ يُفْــتَرَضُ أنْ تَلوكَهـا الألْسُـنُ نَميمَـةً عَلَيْـهِ ووِشـايَةً بِـهِ لا أنْ يُنْسَـبَ إلَيْـهِ هُـوَ فَضْـلُ سَـرْدِها بالتَّــفْصيلِ غَيْـرِ المُمِــلّ!

هكَــذا، إذًا، وُلِـدَ الرِّياشــيُّ وِلادَتَــهُ الثَّانِــيَةَ لِلُبنــانَ، وشَــتَّانَ مـا بَيْنَـهُ وَبَيْـنَ لُبنـانَ الـذي وُلِـدَ فيـهِ وِلادَتَـهُ الأُولـى. وإذْ تَــبْقى سِـيرةُ الرِّياشِيَّــيْنِ، إسْـكَنْدَرَ ابْـنِ الخنشــارة، وإِسْــكَنْدَرَ شَـقيقِ لُبنــانَ البِكْـرِ بِرَسْـمِ أنْ تُكْــتَبَ، فـلا إفْـراطَ فـي القَـوْلِ، بِنـاءً علـى القَليـلِ

المُتَوَفِّرِ بَيْـنَ أَيدِينـا، أنَّ نَجاحَ الثَّانـي فـي أنْ يَخْـتَطَّ لِـنَفْـسِهِ خِطَـطَ نَجـاحٍ فـي مَسـالِكِ لُبنـانَ الدَّوْلَـةَ، حَـدَّ أنْ يَتَـبَوَّأَ مَنْصِبَ نَقيـبِ الصِّحافَـةِ بَيْـنَ ١٩٤٧ و١٩٥٠، لَـمْ يَخْـلُ مِـنْ خِفَّـةِ إسْكَـندَرَ الأوَّلِ وعَبَـثِهِ، وَلا خَـلا مِـنَ الاسْـتِهانَةِ بِـتِلْكَ النَّجاحـاتِ رَغْـمَ سَـعْيِهِ إلَيْهـا وحِرْصِـهِ، مـا أمْكَـنَ، علـى الفَـوْزِ بِهـا وَلَـوْ كَلَّفَـهُ هـذا السَّـعْيُ والحِـرْصُ أنْ يَنْحـازَ بِـنَفْسِهِ عَـنْ صِـراطِ الاسْتِــقامَةِ السِّياسِـيَّةِ المُسْتَـقيم... ولكـنْ، هَـلْ فـي ذَلِـكَ مِنْـهُ مـا يُدْهِـشُ حَقًّـا... أَلَيْـسَ أنَّ مَـنْ شَـبَّ علـى شَـيْءٍ شـابَ عَلَيْـه؟...

لا يُبْـدي إسـكندر رياشـي مِـنْ حاجَـةٍ إلـى مُوجِـبٍ أخْلاقِـيٍّ ـ مِـنْ قَـبيلِ أنَّـهُ يُبْصِـرُ القَــذَى الـذي فـي عَيْــنِهِ والـذي فـي عُيـونِ الآخريـنَ سَـواءً بِسَـواء ـ لِـيُعَلِّلَ صَراحَتَـهُ وَتَجَـرُّؤَهُ على نَفْسِـهِ «حَيْـثُ لا يَجْـرُؤُ الآخـرون»، وإذْ لا يَحْتـاجُ إلـى هـذا المُوجِـبِ فَـلِأنَّ الكَثيـرَ مِـنَ الآراءِ، ومِـنَ الأحْـكامِ العامَّـةِ التـي قـد يَبْـدو للقـارِئِ وكأنَّـهُ يُرْسِـلُها جُزافًـا هِـيَ عِنْـدَهُ مِـنْ بـابِ اليَقيـنِيَّاتِ التـي لا تَحْتـاجُ أنْ يَقـومَ عَلَيْهـا دَليـل: الإنْسـانُ، ذَكَـرًا أمْ أُنـثى، هو، فـي المَحَـلِّ الأوَّلِ، حَيوانٌ جِنْسِـيٌّ، المـالُ زينَـةُ الحيـاةِ الدُّنْيـا، اللُّبنانِـيُّونَ أسـاتِذَةٌ

فـي الفَسـادِ والإفْسـاد، وهكـذا دَوَالَيْـكَ مِمَّـا يَتَــكَرَّرُ فـي هـذا الكِتـابِ وفـي سِـواه.

بالطبع، لَـمْ يَسْتَـسِغْ كُلُّ مُجَايِـلِي الرِّياشـيِّ صَراحَتَهُ في القَـصِّ، عِـلاوَةً علـى أُسْلوبِهِ المَكْشـوفِ، ولكـنَّ جَوابَـهُ علــى هــذِهِ المؤاخَـذَةِ، كمـا كانَ لِــيَصِفَ الأمْـرَ هُــوَ نَفْسُـهُ، «تَحْـتَ باطِـه»: «قَـدْ يَلومُنـا بَعْـضُ قُــرَّائِنا، كَمـا أخَـذُوا يَفْعَلـونَ مُنْـذُ بَدَأْنـا فـي نَشْـرِ مُذَكِّراتِنـا زاعِميـنَ أنَّنـا نَـدْأَبُ فــي كِتاباتِنــا دَوْمًــا لِــتَوْسِيخِ، واسْـتِصْغارِ مُواطِــنينا، ولكِـنْ طالَمـا الحَقيقـةُ هَكـذا، وَطَالَمـا هَـؤلاءِ مُوسَّـخونَ وصِغـار، فلَيْـسَ مَطْلوبًـا مِنَّـا أنْ نَقـولَ عَنْهُـم إنَّهُـم نُظَفَـاءُ وكِبـار».[٢٨]

وعلــى أنَّ الرِّياشــيَّ، فــي زَهْــوِهِ بِـــنَفْسِهِ وخُيَلائِــهِ، لا يَعْتَـرِفُ، جِهـارًا نَهـارًا، بِــفَضْلِ رُوَّادٍ مِـنْ أهْـلِ الصِّــنْفِ أخَـذَ عَنْهُـم، أوْ تَأَسْـتَذَ علـى مُطالَعَــتِهِم، فَهُـوَ لا يَخْلـو، هُنـا وهُنـاك، فــي مـا يُشْـبِهُ الإبْـراءَ الحَيــيَّ لِــذِمَّتِهِ، مِـنَ الإحالَـةِ إلـى كُتُـبٍ وكُــتَّابٍ لا تَخْفَــى أفْضالُهُــم عَلَيْـهِ، وفــي الطَّلِيعَـةِ، لَــرُبَّما، مِـنْ هَـؤلاءِ البريطانــيُّ،

(٢٨) **الأيَّام اللبنانيَّة**، لا ذِكْرَ لِناشِرٍ ولا لِتاريخِ نَشْر، صفحة ٣٦٥.

المُتَأَمْــرِكُ علــى خَواتِيــمِ حياتِــه، فرانــك هاريــس الــذي مــا يَــكادُ الرِّياشــيُّ أنْ يُقِــرَّ بمــا لَــهُ مِــنْ «عِظَــةٍ وشَــفَاعَةٍ» فيــه حتَّــى يَسْتَــدْرِكَ بــأنَّ هاريــس ـ علــى فــارِقِ السِّــنِّ بَيْنَهُمــا حَيْــثُ إنَّ هاريــس يَكْبُــرُ الرِّياشــيَّ فــي السِّــنِّ بِنَحْــوِ خَمْسَــةٍ وثلاثيــنَ عامًــا ـ «كان يَكْــتُبُ حَسَــبَ طريقَــتِنا فيُسَــمِّي الأشــياءَ بأسْــمائِها تَمامًــا حتَّــى ولــو كانَــتْ تُغْضِــبُ السَّــمْعَ» ـ يَقْصِــدُ طَريقَــتَهُ هُــوَ، إسْــكندر رياشــي![٢٩]

وإنَّمــا نَذْكُــرُ فُلانًــا مِمَّــنْ يَديــنُ لَهُــمُ الرِّياشــيُّ الكاتِــبُ، بِــقليلٍ أو كَثيــرٍ، لأنَّ مُؤَلَّفــاتِ الرَّجُــلِ، لا تُسَــلِّي فَقَــطْ وَتُرَفِّــه، وتَهْتِــكُ الأقْداسَ، وتَعْــمُرُ بِــمَعْلوماتٍ لا يُكْــتَبُ تاريــخٌ لِهــذهِ البِــلادِ دونَ أخْذِهــا، وَلَــوْ شَيْــئًا مــا فــي الاعْتِبــار، وتَذْهَــبُ أحْيانًــا إلــى تَحليــلاتٍ لِفُصــولٍ مِــنْ هــذا التَّاريــخِ جَديــرَةٍ بالتَّأَمُّــل فيهــا ـ نقــول: لأنَّ مُؤَلَّفــاتِ الرَّجُــلِ شــاهِدٌ على نَــثْرٍ مُدْهِــشٍ تَــتَراءَى فِيهِ، يَدًا بِــيَدٍ، ثَقافَــةُ الرِّياشــي «العَرَبِيَّــةُ»، وتأثيــراتُ اللُّغــاتِ الأُخْــرى

---

(٢٩) **الأيَّــام اللبنانيَّــة**، لا ذِكْــرَ لِناشِــرٍ ولا لِتاريــخِ نَشْــر، صفحــة ٢٢٥. فــي السِّــياقِ نَفْسِــهِ، يُشــيرُ الرِّياشــيُّ أيضًــا إلــى «د. أتــش. لورنــس مُؤَلِّــفِ كِتــاب **عشــيق اللّيــدي تشــاترلي** ولكِنَّــهُ يَتَجَنَّــبُ رَفْــعَ الكُلْفَــةِ بَيْنَهُمــا علــى غِــرارِ مــا يَفْعَلُــهُ عِنْــدَ الــكَلامِ علــى هاريــس!

التي كان يُتْقِنُها، إلى جانِبِ فِطْرَتِهِ العامِّيَّةِ، وهو نَثْرٌ لا يَخْفى ما تَسَرَّبَ مِنْهُ إلى أقْلامٍ أخْرى وأقلامِ آخرين، وإنْ كانَ لا بُدَّ مِنَ المُلاحَظَةِ ـ ولو أنَّ هذا المَوْرِدَ يَحتاجُ إلى بَحثٍ مُستَفيضٍ لا مَحلَّ له في هذه العُجالَةِ ـ أنَّ اللُّغاتِ الكَثيرةَ التي يَكْتُبُ بِها الرِّياشي، في آنٍ واحِدٍ، إنَّما تَتَمَخَّضُ عَنْ ذَلِكَ النَّثْرِ المُدْهِشِ، على رَكاكَتِهِ أحْيانًا، لأنَّها، تِلْكَ اللُّغاتِ، لا تَتَجاوَرُ جِيرَةَ عَفافٍ فَتَكْتَفي كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها بِأنْ تُساهِمَ سَهْمَها تَحْتَ قَلَمِهِ، بَلْ تَتَخالَطُ وتَتَداخَلُ وتَتَراكَبُ، بَلْ و«تَعْمَلُ الحُبَّ»،[٣٠] على مَلإٍ مِنَ القُرَّاءِ لا يَرُدُّها عَنْ ذَلِكَ حَياءٌ مَكْذوبٌ أو حِشْمَةٌ مُفْتَعَلَة.

على صَهْوَةِ هذِهِ اللُّغَةِ العَرْجاءِ التي لا يَبْدو أنَّها اسْتَنْقَصَتْ يَوْمًا مِنْ قَدْرِ الرِّياشيِّ بَيْنَ زُملائِهِ،

(٣٠) يَبْدو أنَّ الرِّياشيَّ هو صاحِبُ هذِهِ التَّرْجَمَةِ (الحَرْفِيَّةِ) لـ *Faire l'amour* ونَظيرَتِها الإنْكليزيَّةِ *To make love*. في عَدَدِ «**المَعْرِض**» المُؤَرَّخِ ٧ شباط ١٩٣٢، تَحْتَ عُنْوان «مقتل مُومِس في بيروت»، يَرِدُ الخَبَرُ الآتي: «تَقْطُنُ في المَنْزِلِ رَقَمِ ١١ في شارِعِ المُتَنَبِّي امْرأةٌ تُدْعَى حَنَّة عبد الله الحَلَبِيَّة، تَسْكُنُ مَعَها فَتاةٌ مَعروفَةٌ باسْمِ روزالي، وَهُما تَمْتَهِنانِ الدَّعارَة. وقَدْ وُجِدَتْ حَنَّة مَقْتولَةً خَنْقًا في غُرْفَتِها خِلالَ الأُسْبوعِ الفائِتِ وذلِكَ على إثْرِ اجْتِماعِها بِثَلاثَةِ أشْخاصٍ قَضَوْا بِضْعَ ساعاتٍ وإيَّاها في شُرْبِ البيرة و«فِعْلِ الحُبِّ» على لُغَةِ الصِّحافي التَّائه».

أو أنَّـهُ اسْـتعابَها أوْ حـاوَلَ لَهـا إصْلاحًـا، اخْـتالَ فـي مَلاعِـبِ السِّياسَـةِ والصِّحافَـةِ وتَبَخْـتَرَ، فَـإذا تَفَقَّـدْتَ مَحاضِـرَ «الجَمْعِيَّـة الوَطَنِيَّـة للشَّـبيبَةِ السُّـورِيَّة» لِسَـنَةِ ١٩١٩ ألْفَيْتَـهُ هُنَـاكَ «ضَيْفَ شَـرَف»،[٣١] وَإذا أرَادَ سـعيد فريحـة، مَطالِـعَ الأرْبَعينيَّـاتِ، أن يُثْـبِتَ مَكانَـةَ **الصيَّـاد** اسْتَكْتَـبَهُ فَكَتَـبَ مَقالَـةً يَصِـحُّ فـي ما تَرَكَـتْهُ مِـنْ دَوِيٍّ قَـوْلُ المُتَـنَـبِّي «...كأنَّمـا تَـداوَلَ سَـمْعَ المَـرْءِ أنْمُـلُـهُ العَشـرُ»،[٣٢] وإذا تَحَـرَّتْ وِكالَـةُ الاسْـتِخباراتِ الأميركيَّـةِ علـى أواخِـرِ ١٩٤٨ عَـنْ سَـعْي الشُّيوعيِّـينَ إلـى تَنْظيـمِ إضرابـاتٍ فـي سـوريا ولبنـانَ تَجِـدُ كاتِـبَ التَّـقْرير يُشـير إلـى أنَّ اجْتِماعًـا عُقِـدَ فـي ٢٢ تشـرين الثَّانـي مِـنْ تِلْـكَ السَّـنَةِ «فـي مَكْتَـبِ الرِّياشـي وبِرِئاسَـتِهِ» وأنَّ الرِّياشـيَّ «دافَـعَ خِلالَـهُ عَـنِ العُـمَّالِ»،[٣٣] وإذا ينشـر يوسـف حنّـا عقـل **فَضائِـح عَهْـدِ شَـمْعون** تَجِـدُ لَـهُ فيهـا

---

(٣١) «الجَمْعِيَّـة الوَطَنِيَّـة للشَّـبيبَةِ السُّـورِيَّة» هِـيَ المُنْتَـدى الثَّقافِـيُّ/ السِّياسِـيُّ الـذي رَعَـاهُ شـارل قـرم، وكانـت «**المجلـة الفينيقيَّـة**»، فـي أوَّلِ أمْرِهـا لِسـانَ حالِـه. المَحْضَـرُ المُشـارُ إلَيْـهِ مُـؤَرَّخٌ فـي ٢٣ شـباط ١٩١٩ وفـي خِزانَـةِ «أمـم للتوثيـق والأبحـاث» صُـورَةٌ ضَوْئِيَّـةٌ عَنْـه.

(٣٢) عنـوانُ المَقالَـةِ «أكْبَـرُ قَـبْضَةٍ قَبَضْتُها فـي حياتـي!...»، **الصياد**، ٢ شـباط ١٩٤٤، ويَسِـمُها فريحة في مَحَلِّ التَّـوْقيعِ بـ «بِقَلَمِ أُسْـتاذِنا... إسـكندر الرِّياشـي».

(٣٣) مراجعة:
https://www.cia.gov/library/readingroom/docs/CIA-RDP82-00457R002200080004-9.pdf

نَصيبًـا،[٣٤] وإذا وإذا وإذا إلـى مـا هُنـاكَ مِمَّـا يَخْطُـرُ بِبـالٍ ولا يَخْطُـر...

علـى السَّـبعينَ مِـنَ العُمْـرِ، فـي تشـرين الثانـي ١٩٦١، بَعْـدَ حَيـاةٍ أقَـلَّ مـا يُقالُ فيهـا إنَّها حَيَواتٌ عاشَـها تَـتْرَى، وإنَّـه أدَّى فيهـا ما اسْـتَطاعَ مِنْ أقْسـاطٍ إلى الحَيـاةِ الدُّنْيا، ماتَ إسكندر رياشي!

وإذْ يَحْلـو للنَّاظِـرِ فـي سـيرَةِ الرَّجُـلِ، مِـنْ حَيْـثُ مـا انْتَهـى إلَيْـهِ لُبنـانُ يَوْمـذاك، أنْ يَذْهَـبَ إلـى أنَّـهُ مـاتَ، فـي مـا مَاتَـهُ، مِـنْ سَـأَمٍ بِلُبـنانَ ومِـنْ أَيَـسٍ بِـهِ وضيـقِ ذَرْعٍ لا عَـوْدَةَ عَنْـه، فهـذا، فـي الحَقيقَـةِ، مـا يُمْكِـنُ أنْ يُؤَكِّـدَهُ مـا انْـتَهى إلَيْـهِ امْتيـازُ **الصِّحافـي**

(٣٤) يُقَـدِّمُ صاحِـبُ **الفَضائِـح** لِمَقالَتِـهِ المُعَنْوَنَـةِ «هَمْسَـة فـي أُذُنِ الأُسْـتاذِ إسْـكَنْدر رِياشـي» بالكَلِماتِ التَّالِيَـة: «يَمَـلُّ الإنْسَـانُ أحْيانًـا مِـنَ التَّحَدُّثِ عَـنْ شَـخْصٍ أوْ إلـى شَـخْصٍ واحِـدٍ، وهـذا مـا حَـدَثَ معـي. وإذْ كُنْـتُ أُتابِـعُ قِرَاءَةَ عُجالاتِ الأُسْـتاذِ الظَّرِيـفِ إسْـكَنْدَر رياشـي وهـوَ يُدافِـعُ عَـنِ العَهْـدِ بِقُوَّةٍ، وَيَدَّعـي بأنَّـهُ لا يَقْبِـضُ، وَيُدافِـعُ عَـنْ سـامي الصُّلْـح بِضَـرَاوَة، وَيَزْعُـمُ أيْضًـا بأنَّهُ لا يَقْبِـضُ، مَـعَ أنَّـهُ كَمـا كانَ يَقـولُ هـوَ عَـنْ نَفْسِـهِ إنَّـه «رَبّ مَـنْ قَبَـض»، وبالوَقْـتِ نَفْسِـهِ كانَ يَتَّهِـمُ جَميـعَ الصَّحَفِيِّيـن، وخاصَّـةً المُعارِضيـنَ مِنْهُـم بالقَبْـضِ، فَدَاعَبْتُـهُ بالمَقـالِ التّالـي، الـذي نشـر فـي مَجَلَّـةِ «**المجالـس**» بالعـدد ١٦١ تاريخ ١٩٥٧/٣/١٥»، **فَضائِـحُ عَهْـدِ شَـمْعون**، يوسـف حنّـا عقـل، ص. ٧٧ ومـا يليهـا. مِـنَ الوَاضِـحِ أنَّ صاحِـبَ الفَضائِـحِ هـذِهِ يَحْبِـسُ قَلَمَـهُ عَـنْ ذَمِّ الرِّياشِـيِّ ذَمًّـا مُحَقِّـرًا علـى غِـرارِ مـا يَكـونُ مِنْـهُ فـي جَنْـبِ آخَريـنَ مُكْتَفِيًـا بالمُؤاخَـذَةِ الرَّقيقَةِ، وَلَعَـلَّ فـي هـذا «التَّمْييـزِ الإيجابـيِّ» شـاهِدًا إضافِيًّـا علـى مَحَـلِّ الرِّياشـي مِـنَ المَشْـهَدِ اللُّبنانـيِّ عُمومًـا وَمِـنَ المَشْـهَدِ الصِّحافِـيِّ علـى وَجْـهِ الخُصـوص...

التَّائِـه مِـنْ مصيـر... ففـي تشـرين الثانـي ١٩٥٩، حـازَتْ **صَـوت العُروبـة**، النَّاطِـقَةُ باسْـمِ «حِـزْبِ النَّجَّـادَة»، تَرْخيصَهـا كـيَوْمِيَّةٍ سِياسِـيَّةٍ بهـذا الاسْـمِ علـى أنْقـاضِ امْتِـيازَيْ **أبَابيـل**[٣٥] و**الصِّحافـي التَّائـه**،[٣٦] فَـتَأَمَّـل... تَأَمَّـلي...

لَـمْ يَحْتَـجِ الرِّياشـيُّ إلـى مَـنْ يُسِـرُّ إلَيْـهِ مُعاتِبًـا بـأنَّ هـذِهِ النِّهايَـةَ «المَأسَـاوِيَّة» لا تَليـقُ بِـهِ ولا بـ **الصِّحافيِّ التَّائِـه**. كذلـك، وفي ما يُشْـبِهُ الانْتِـقامَ لِـنَفْـسِهِ مِنْها، أو صَحْـوَةَ المَـوْتِ أوِ الوَصِيَّـةَ، اسْـتَحْصَلَ فـي آذارَ مِـنَ العامِ التَّالـي، ١٩٦٠، علـى رُخْصَـةِ إصْـدارِ «مَطْبوعَـةٍ أسـبوعيَّةٍ أدبـيَّةٍ رِوائيَّـة بوليسـيَّةٍ غَيْرِ سِياسِـيَّةٍ بالعَرَبيَّةِ والفَرَنْسِـيَّةِ والإنْكليزيَّـةِ» تَحْـتَ اسْـمِ **الأرْبَعـون حَرامـي**!‏[٣٧] لـم يُمَـدَّ

---

(٣٥) لِصاحِبِها ومُنْشِـئِها حسين مُحيـي الديـن الحبّال ومِـنْ بَعْدِهِ لِوَرَثَـتِهِ. مراجعـة: يوسـف قزمـا خـوري، **مدوَّنـة صحافـة لبنـان**، ص. ١٢ ـ ١٣، تُـراث، بيـروت ٢٠٠٣.

(٣٦) فَـوَفْقَ المَرْسـومِ الاشْـتِراعيِّ ٧٤، (١٣ نيسـان ١٩٥٣): «إلـى أنْ يُصْبِـحَ عَـدَدُ المَطْبوعـاتِ الدَّوْرِيَّـةِ السِّياسِـيَّةِ فـي جَميـعِ الأراضـي اللُّبنانيَّـةِ خَمْسًـا وعِشْـرينَ مَطْبوعَـةً يَوْمِيَّـةً سِياسِـيَّةً، وعِشْـرينَ مَطْبوعَـةً سِياسِـيَّةً مَوْقوتَـةً، يَكونُ مَجْموعُهـا علـى الأقَـلِّ خَمْـسَ عَشْـرَةَ مَطْبوعَـةً يَوْمِيَّـةً عَرَبِيَّـةً واثْـنَيْ عَشْـرَةَ مَوْقوتَـةً عَرَبِيَّـةً، لا يُعْطَـى تَرْخيـصٌ باسْـمِ جَديـدٍ لِمَطْبوعَـةٍ دَوْرِيَّـةٍ سِياسِـيَّةٍ يَوْمِيَّـةٍ أو مَوْقوتَـةٍ إلّا لِمَـنْ كانَ يَمْلِـكُ صَحيفَـتَـيْنِ مِـنْ نَـوْعِ الصَّحيفَـةِ المَطْلوبِ إصْدارُهـا تَـتَوَقَّـفانِ نِهائِيًّـا عَـنِ الصُّـدورِ لِقـاءَ التَّرْخيـصِ المَطْلـوب...».

(٣٧) **مُدَوَّنة صِحافَة لُبنان**، ص. ٣١، مَصْدَر سَبَقَتِ الإشارَةُ إلَيْه.

فـي أجَـلِ الرِّياشـيِّ لِـيُصْدِرَ **الأرْبَعـون حَرَامـي** ولكـنْ «إنَّمـا لِـكُلِّ امْـرِئٍ مـا نَـوى» وحَسْــبُهُ مـا نَـوَى...

لَيْـسَ فـي المَراثـي التـي نَشَـرَتْها الصُّحُـفُ يـوم مـاتَ الرِّياشـيُّ، والتـي أُتيـحَ لنـا أنْ نُطالِعَهـا، مَرْثِيَّـةٌ واحِـدَةٌ وَفَّـتِ الرَّجُـلَ حَقَّـهُ بـأنْ أشـارَت، وَلَـوْ مِـنْ طَـرَفٍ خَفِـيٍّ، إلـى مـا تَلَوَّنَـتْ بِـهِ حياتُـهُ مِـنْ ألْـوَان. فإنَّمـا اكْتَــفَتْ هـذِهِ المَرَاثـي بِأنَّـهُ كانَ عَلَمًـا مِـنْ أعْـلامِ الصَّحافَـةِ، ذا قَــلَمٍ أنيـقٍ، وظَـرْفٍ لا يُشَـقُّ لَـهُ غُبـار، ضارِبَـةً صَفْحًـا عَمَّـا فـي صَحيفَـةِ الرَّجُـلِ مِمَّـا لَيْـسَ فـي صَحيفَةِ سِـواه، كأنَّ هــذِه المَراثــي إنَّمـا تَعَمَّـدَتِ التَّسَــتُّرَ، والتَّسْــتيرَ، علـى كُلِّ مـا كانَ، هـو، طَـوالَ حَياتِـهِ، يُشْـهِرُهُ، ويَدْعـو إلـى إشْـهارِه، وَيَجْهَـرُ بِـهِ، وَيَحُـثُّ علـى الجَهْـرِ بِـه...
صَحيــحٌ أنَّ المَــوْتَ مُفْحِــمٌ، وأنَّ مُنْـــتَهى هـــذه المَراثــي أنْ تُــقْرأَ علـى أنَّهـا كَلامُ مُجامَـلاتٍ لا أكْثَـرَ ولا أقَــلَّ ولكِــنَّ الإجْمــاعَ اللُّبنانــيَّ، أو مــا يُشْــبِهُ الإجْمـاعَ، علـى دَفْـنِ الرَّجُـلِ تَحْـتَ هَـذِهِ المَراثــي، ثُــمَّ علـى دَفْــنِهِ ثانِيَـةً بالاكْتِفـاءِ مِـنْ إحْيـاءِ ذِكْـرِهِ بالحَــدِّ الأدْنــى الــذي لا مَفَـرَّ مِنْـه، مـا يَدْعـو إلـى الرِّيبَـةِ والتَّوَجُّـسِ شـأنَ مـا يَدْعـو إلَيْـهِ كُلُّ إجْمـاعٍ لا ثُـلْــمَةَ فيــهِ ولا خَــرْم...

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

بَيدَ أنَّهُ لا لُغْزَ في هذا الإجْماعِ ولا مَنْ يُلَغِّزونَ: حَسْبُ الواحِدِ مِنَّا والوَاحِدَةِ أنْ يُولِمَ لِنَفْسِهِ على مَأْدُبَةِ الرِّياشيِّ، وهذا الكِتابُ ـ نسوان من لبنان ـ مِنْ أطْباقِ هذِهِ المَأدُبَةِ، لِيَتَبَيَّن أنَّ الرَّجُلَ لا يَصْلُحُ أن يُرفَعَ في مَحَلِّ «المَفْخَرَةِ الوَطَنِيَّةِ» التي تَأْتَسي بها الأجيالُ الطَّالِعَةُ، ولا أنْ يُنْصَبَ مِثالًا أعْلى يُمْكِنُ لطائِفَتِهِ أنْ تُنابِذَ بِهِ رَصيفاتِها، وَلِيَتَبَيَّنَ أنَّ نِسْيانَهُ، اسْتِطرادًا، إنَّما هو بَعْضٌ مِنَ «العَفْوِ العَامِّ» الذي لا يَنِي هذا البَلَدُ يَعْفوهُ، بلا كَلالَةٍ، عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ سِيرَتِه وعَنِ ارْتِكاباتِهِ... لَعَلَّهُ كَذَلِكَ ولَكِنْ، لِحُسْنِ الحَظِّ، أنَّ الشُّفَعاءَ مِنَ الحَياةِ، ومِنَ البُلْدان، ومِنَ اللُّغاتِ، لَيْسوا، دائمًا، أبْناءَها المَيامينَ ولا بَناتِها المُحْصَناتِ![٣٨]

لُقمن سليم

[كانون الثاني، ٢٠٢١]

---

(٣٨) غَنِيٌّ عَنِ القَوْلِ أنَّ هذِهِ المُقَدِّمَةَ لا تَدَّعي التَّمامَ والإحاطَةَ. إنَّما هي، في عُرْفِنا، «مُسَوَّدَةٌ» بِرَسْمِ التَّنْقيحِ، وَ«دَعْوَةٌ مَفْتوحَةٌ» إلى المُساهَمَةِ في كِتابَةِ سيرَةِ الرِّياشيِّ ـ بَلْ سِيَرِه.

هذِهِ الطَّبْعَةُ

هذِهِ الطَّبْعَةُ مِنْ نِسوان مِنْ لبنان نُسْخَةٌ «طِبْقُ الأصْلِ» مِنَ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْهُ الصَّادِرَةِ سَنَةَ ١٩٦٦ عَنْ دار الأندلس ـ أوْ، فَلْنَقُلْ، طِبْقُ الأصْلِ وَفْقَ المُواصَفاتِ التي تُحاوِلُ دارُ الجَديدِ تَعْميمَها في سائِرِ مَنْشورَاتِها، واسْتِنانَها سُنَّةً يُحْتَذى بها؛ كذلِكَ، ضَبَطْنا النَّصَّ، ابْتِداءً، بالشَّكْلِ الكامِلِ، ومُتابَعَةً لِما أَلْمَحْنا إلَيْهِ في المُقَدِّمَةِ مِنْ تَزاحُمِ اللُّغاتِ تَحْتَ قَلَمِ الرِّياشيِّ، اسْتَوْقَفَتْنا بَيْنَ الحينِ والآخَرِ صِياغاتٌ مُلْتَوِيَةٌ فَعَلَّقْنا عَلَيْها مُشيرينَ إلى أنَّها «كذا في الأصْلِ»، وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّ هذا الكِتابِ أنْ أُتيحَ لَهُ أنْ يُعارِضَ نُسْخَةَ دارِ الجديدِ هذِهِ بـ«النُّسْخَةِ الأصْلِيَّةِ» صَديقٌ مِصْرِيٌّ فَظَنَّ في بَعْضِ العِباراتِ العامِّيَّةِ اللُّبنانِيَّةِ تَحْريفًا، فأنْبَهَتْنا مُلاحَظاتُهُ إلى هذِهِ الشُّبْهَةِ التي قَدْ تَعْرِضُ لِسِواهُ وهو ما حَدا بِنا إلى الإيعازِ بأنَّ هذِهِ العِباراتِ «كذا في الأصلِ» أيْضًا.

أمَّا الهَناتُ النَّحْوِيَّةُ والصَّرْفِيَّةُ التي قَدَّرْنا أنَّ النُّسْخَةَ الأصْلِيَّةَ كانَتْ لِتَخْلُوَ مِنْها لَوْ دَقَّقَ الرِّياشِيُّ نَفْسُهُ في مُسَوَّداتِ كِتابِهِ قَبْلَ الدَّفْعِ بِهِ للنَّشرِ ـ وهي، في الحَقيقَةِ، قَليلَةٌ ـ فَقَوَّمْناها ولَمْ نَرَ وَجْهًا لِبيانِ مَواضِعِها.

هذا ما اجْتَهَدْناهُ، لا نَسْأَلُ عَلَيْهِ أجْرًا ولا أجْرَيْن... سَبَقَ الفَضْلُ: مُتْعَةُ القِراءَةِ وصُحْبَةُ الرِّياشيّ!

ل.س.
[٢٠١٩]

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

نِسْوَان من لبنان

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

يُمْكِـنُ لصاحِـبِ هـذا الكِتـابِ وَحْدَهُ القَـوْلُ ـ فـي كُلِّ مَكانٍ:
«وَحْـدي تَنْـزِلُ كُتُبـي للسّـوقِ يَـوْمَ الاثْنَيْـنِ، ولا يَبْقـى مِنْهـا
نُسْـخَةٌ واحِـدَةٌ يَـوْمَ السَّـبْت».

إ.ر

«عِنْدَمـا يَنْشُـرُ الكاتِـبُ الكَبيـرُ مُؤَلَّفـاتٍ بِشَـتّى المواضيـع:
مِـنَ التّاريـخِ، للاجْتِمـاعِ، لِمُغامَـراتِ الحُـبِّ، فَقُـلْ إنَّـهُ خَـرَجَ
عَـنِ المَأْلـوف، وأَصْبَـحَ مِـنَ الخالِديـن».

روديارد كِبلينغ

مؤسسة دارالجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

تقدمة

هذا الكِتابُ بِرَسْمِ أُولَئِكَ الَّذين لَهُمْ في الحَياةِ فَلْسَفَةٌ ضاحِكَةٌ مُتَفائِلَةٌ، تقول: «عِنْدَما ساعَةُ الحَظِّ تَمُرُّ مِنْ أمامِكَ، تَلَقَّط بِها ولا تَجْعَلْها تَفوتُك، فَهي قَدْ لا تَعودُ تَطْرُقُ بابَك».

أُولَئِكَ الَّذينَ لَهُمْ هَذِهِ الفَلْسَفَةُ الواقِعِيَّةُ هُمْ وَحْدَهُمْ الّذينَ يَفْهَمونَ هذا الكِتابَ، وَيَعْرِفونَ أَنَّ الفَضيلَةَ إذا لَمْ تَتَغَلَّفْ بِأَزْهارٍ ثائِرَةٍ مُتَهَتِّكَةٍ لا تَظْهَرُ مَحاسِنُها، فَهِيَ مِثْلُ المَرْأَةِ الحَسْناءِ عِنْدَما تُحيطُ نَفْسَها بِرَفيقاتٍ بَشِعاتٍ يَظْهَرُ جَمالُها أَبْهَرَ وَأَقْوى.

وهَذا الكِتابُ عِظاتٌ سِياسِيَّةٌ واجْتِماعِيَّةٌ مُتَحَلِّيَةٌ بِحِكاياتٍ وَمُغامَراتِ غَرامٍ صاخِبَةٍ يَأْتي فيها الكَثيرُ مِنْ تاريخِ لُبنانَ الحَديثِ بَيْنَ طَوايا فِراشِ الحُبّ.

وهَذا الكِتابُ وَقائِعُ حَقيقِيَّةٌ قامَ بِها كاتِبٌ يُريدُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الدُّنْيا مَباهِجَها ـ تارِكًا الزُّهْدَ والتَّكْفيرَ والخَوْفَ مِنْ جَهَنَّمَ وَمخاوِفِ الدَّهْرِ ـ على البابِ ـ لا تَجْسُرُ على الدُّخول.

بَعْضُ الأقْوال

إسكندر رياشي ـ فولتير الشَّرْق.

هارولد كايلن

في مَجَلَّة «**البارتزان ريفيو**» الأميركيّة

قَـرَأَتُ فـي لُبنـانَ كَلامًـا عِـنْ رِحْلَتـي للشَّـرْقِ، لكاتِـبٍ يُلَقِّـبُ نَفْسَـهُ بـ«الصِّحافِـي التّائـه»، هُـوَ نَسـيجٌ فَريـدٌ مِـنْ نَوْعِـهِ وَحُسْـنِ كَلامِـه.

الملك ألبرت البلجيكي

إسكندر رياشي أَكْثَرُ الصِّحافِيِّين قُوَّةً وفَنًّا في الشَّرْقِ الأوْسط.

الجنرال كاترو

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

صانِعَةُ المُسْتَشار

شاهَدْنا المُسْتَشارَ[1] الفَرَنْسِيَّ الكابتن «ب» يَقْفِزُ قَفْزًا مِنْ سَيّارَتِهِ الفورد القَديمَةِ التي كانَتْ تَعْمَلُ حَرْتَقَةً كَبيرَةً ساعَةَ وصولِها، ثُمَّ نَزَلَتْ مِنْ بَعْدِه، وَبِسُرْعَةٍ كَبيرةٍ، صانِعَتُهُ الصَّبِيَّةُ، وَقَفَزَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِعْزايَتُهُ مِنْ فَوْقِ البابِ بِخِفَّةٍ غَريبَةٍ، أَوْ بالحَرِيِّ بِخِفَّةِ الماعِزِ المَشْهورَة.

وَكانَتِ المِعْزايَةُ أَجْمَلَ مِنْ باقي المِعْزاياتِ التي اعْتَدْنا مُشاهَدَتَها، لا سِيَّما وَقَدْ كانَ لَوْنُها يَخْتَلِفُ عَنْ لَوْنِ الماعِزِ الذي هوَ عادِيًّا[2] أَسْوَدُ، ثُمَّ، بَعْضَ الأحْيانِ، أَسْوَدُ على أَبْيَض، أو أَبْيَضُ على أَسْوَد.

وَلكِنَّ مِعْزايَةَ المُسْتَشارِ كانَتْ شَقْراءَ مِثْلَ كَواكِبِ سينما أسوج ونروج، أو مِثْلَ لانا تيرنر.

---

(١) يقـول...: [القـمان لم يُنجـزْ هـذا الهامـش. لم نكتشـفْ مـنِ القائـل. سنَسْـتدرِكُ في طبعـةٍ لاحقـةٍ. د.ج] «كَلِمَـة «المستشـار» فـي ذَلِـكَ الزَّمـانِ تَعْنـي شَـيْئًا عَظيمًـا جِـدًّا. فالضُّـبَّاطُ الفَرَنْسِـيُّونَ السُّـكارى بانْتِصـارِ الحُلَفـاءِ علـى الإمبراطـور غليـوم وحُلَفائِـهِ قَدِ احْتـلُّوا لبنـانَ وسـوريَا بالسَّـيْفِ، وبالسَّـيْفِ راحـوا يَحْكُمونَهـا [يَحْكُمونَهمـا أي لبنـان و سـوريا. د.ج]، ولا سِـيَّما فـي المَحَـلَّاتِ البَعيـدَةِ عَـنِ المُـدُنِ الكَبيـرة. وكانَ عِنْـدَ كُلِّ مُسْتــشارٍ تُرْجُمـانٌ خـاصٌّ يُمـارِسُ، بِحُكْـمِ ثِـقَةِ رَئيسِـهِ بِـهِ، سُـلْطانًا مُخيفًـا. وَقَـدْ عَمِـلَ إسـكندر رياشـي تُرْجُمانًـا عِنْـدَ مُسْتَـشار زحلـة قَبْـلَ إصْـدارِهِ «الصِّحافـي التّائـه» فَعَـرَفَ كَثيـرًا مِـنْ أسّـرارِ المِنْطَـقَة».

(٢) كذا في الأصل. من تعريبات الرِّياشي التي تتكرّر تحت قلمه.

كانَتْ شَقْراءَ مِثْلَ ماري لويز إمبراطورَةِ الفَرَنْسِيّين؛ وكانَ المُسْتَشارُ، حَقًّا وبالمُناسَبَةِ، يُسَمّيها ماري لويز. وكانَتْ، عِنْدَما تَسْمَعُ اسْمَها الإمْبراطوريَّ، تَأْخُذُ لِنَفْسِها هَيْئَةَ الرَّصانَةِ، وتُنْزِلُ يَدَيْها عَنْ كَتِفَيْ مُعَلِّمِها، وَقَدْ كانَتِ اعْتادَتْ، عِنْدَما تَراهُ، أنْ تَضَعَ حالًا يَدَيْها على كَتِفَيْهِ دونَ أنْ يُظْهِرَ أقَلَّ انْزِعاجٍ مِنْ ذَلِك.
وَلَمْ تَكُنْ صانِعَةُ المُسْتَشارِ أقَلَّ خِفَّةً مِنْ مِعْزايَتِهِ، فَهَذِهِ أيْضًا عِنْدَما نَزَلَتْ مِنَ السَّيارَةِ بالطَّريقَةِ المُجونِيَّةِ الغَنْوجَةِ التي فَعَلَتْ، أخَذَتْ، أمامَ كُلِّ هَذِهِ الأنْظارِ الغَريبَةِ التي تُحَدِّقُ بِها، تَزْدادُ الْتِصاقًا بِمُعَلِّمِها الذي كانَ يَرْعاها بِنَظَراتٍ لاهِبَةٍ وعَطوفَةٍ رَغْمَ الجُهودِ التي كانَ يَقومُ بِها لِيَظْهَرَ أمامَنا رَصينًا رَزينًا... فإنَّما، هُوَ أيْضًا، كانَ بِطبيعَتِهِ خَفيفًا، كَذَلِكَ الأمْر.
وقُلْ لي مَنْ تُعاشِرْ أقُلْ لَكَ مَنْ أنْت[٣]... والذي عِنْدَهُ تِلْكَ الصَّبِيَّةُ اللَّعوبُ الطَّروبُ التي تَمْشي رَاقِصَةً على رُؤوسِ أصابِعِ رِجْلَيْها، والذي عِنْدَهُ تِلْكَ المِعْزايَةُ الشَّقْراءُ التي تَمْشي وَيَداها الأمامِيَّتانِ على كَتِفَيْ مُعَلِّمِها، قَدْ يَكونُ، ولا شَكَّ، على هَذِهِ العِشْرَةِ، أخَذَ عَنِ الصّانِعَةِ والمِعْزايَةِ الكَثيرَ مِنْ شَيْطَنَتِهِما وَخِفَّتِهِما والنَّقْصِ الكامِلِ مِنْ رَزانَتِهِما.
فالطَّبيبُ في العَصْفورِيَّةِ، على كَثْرَةِ مُعاشَرَةِ المَجانينِ، يَصيرُ عِنْدَهُ حَرَكاتُهُم، والكَثيرُ مِنْ سُلوكِهِم وَمُدْهِشاتِهِم. وعِنْدَما يَضْرِبُ رَبُّ البَيْتِ بالدُّفِّ فَطَبْعًا شِيمَةُ أهْلِ البَيْتِ تَكونُ الرَّقْص!

(٣) في الأصل: «وقُلْ لي مَنْ تُعاشِرْ فأقُولُ لَكَ مَنْ أنْت...»

كانَتْ عَشيقَةَ المُسْتَشارِ طَبْعًا... ولكِنَّ هذِهِ الصّانِعَةَ حُلْوَةٌ أَكْثَرُ مِمّا يَجِبُ أنْ تَـكونَ الصّانِعاتُ؛ ولا شَكَّ أنَّها كانَتْ عِنْدَ سعادَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ صانِعَة.

هذا على الأقَلِّ ما قُلْناهُ بأجْمَعِنا، نَحْنُ البِضْعَةَ أَصْدِقاءٍ الذين وَقَفْنا على مِصْطَبَةِ اللّوكَنْدَة نَتَفَرَّجُ على وُصولِ المُسْتَشارِ وصانِعَتِهِ وَمِعْزايَتِه.

وكُلُّ شَيْءٍ يَدُلُّ على أنَّ الصَّبِيَّةَ كانَتْ مُغْتَبِطَةً جِدًّا لِلمَرْكَزِ الذي وَصَلَتْ لَهُ، وللرِّسالَةِ العالِيَةِ المَدْعُوَّةِ إلَيْها.

إذْ يَجِبُ أنْ تَـكونَ سَعيدَةً ومُرْتاحَةً لأنَّ السَّماءَ انْتَقَتْها لِتُرَفِّهَ عَنْ هذا المُسْتَشارِ الفَرَنْسِيِّ في غُرْبَتِهِ عَنْ بِلادِهِ، وفي وَحْدَتِهِ بالبَلَدِ الصَّغيرِ الذي عَيَّنَتْهُ فيهِ المُفَوَّضِيَّةُ السّامِيَةُ مُسْتَشارًا، حَيْثُ لا سَلوى ولا لَهْوَ ولا إفْرَنْسِيّينَ وإفْرَنْسِيّاتٍ يَسْتَأْنِسُ بِهِم، وَحَيْثُ جاءَ يَخْدُمُ لُبنانَ، وأخَصَّهُمُ المَوارِنَةَ فيهِ،[٤] الذين يَجِبُ أنْ يَكونَ لَهُمْ مَكانَةٌ خاصَّةٌ عِنْدَهُ، مِمّا دَلَّ على ذَلِكَ عَطْفُهُ الكامِلُ على صانِعَتِهِ التي جاءَ بِها، في ساعَةٍ سَمّاعَةٍ، مِنْ بِلادِ المَوارِنَةِ في البَتْرون حيث كانَ مُسْتَشارًا سابِقًا.

سعادَتُهُ يَسْمَعُ مِنْها وكانَتْ تَـتَكَلَّمُ بَعْضَ الإفْرَنْسِيَّةِ ـ إفْرَنْسِيَّةِ العَساكِرِ السِّنْغالِيَّةِ. ولا عَجَبَ، فإنَّما خِزْمَتْجي المُسْتَشارِ الذي جاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ العَفْشِ، وَالأسْوَدُ مِثْلُ اللَّيْلِ، والطَّويلُ بِكُلِّ شَيْءٍ، طويلُ القامَةِ، طويلُ الرِّجْلَيْنِ، طويلُ الرَّأْس ـ كانَتْ لَهْجَةُ

(٤) يبدو أنّ «وأخَصَّهُمُ» مِنْ تَعْريباتِ الرياشي أيْضًا. نزولًا عند حُكْمه، عاملناها معاملة المفعول المطلق، ونصبنا ما بعدها على الحاليّة وهو ما يطَّرِد في المواضع التالية.

الصّانِعَةِ الفَرَنْسِيَّةِ وتَعابِيرُها لا تَفْرُقُ كَثيرًا عَنْ لَهْجَتِهِ وتعابيرِهِ، مِمّا يَدُلُّ على أنَّها كانَتْ تَسَمَعُ الكثيرَ لذاكَ العَبْدِ، وتَقْتَبِسُ مِنْهُ عِباراتِهِ وطَريقَتَهُ بالتَّكَلُّمِ بالفَرَنْسِيَّةِ، كما اقْتَبَسَ مُعَلِّمُها مِنْها، ومِنْ مِعْزايَتِهِ، ذاك النَّوْعَ مِنَ الطَّيْشِ الذي جَعَلَ أهالي البَلَدِ يَسْتَخِفّونَ بِهِ، ويُقَلِّلونَ مِنِ احْتِرامِهِم وإعْجابِهِم بِفَرَنْسا، أُمِّهِم الحَنونِ، كما كانَ المَوارِنَةُ يُسَمّونَها في ذَلِكَ الزَّمان إذْ لَمْ يكونوا، بَعْدُ، تَنَكَّروا لَها...

وطَبْعًا، في اللَّيْلَةِ نَفْسِها اكْتَشَفَ الحِشريّونَ، مِثْلي، وَمِثْلُ أصْدقائي، أنَّ الصّانِعَةَ تَنامُ مَعَ المُسْتَشارِ، أوْ أنَّ المُسْتَشارَ يَنامُ مَعَ الصّانِعَة، إذْ إنَّنا بَقِينا باللّوكَنْدَة حتّى اللَّيل، وشاهَدْنا المُسْتَشارَ يَأْوِي إلى غُرْفَتِهِ في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ، وتَعْمَلُ صانِعَتُهُ ومِعْزايَتُهُ هكذا أيْضًا، فَتَأْوِيانِ إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ لِغُرْفَتِه.

وَرُحْنا نَتَرَبَّصُ وَنَتَرَصَّدُ في زَوايا الرُّواقِ الطَّويلِ الذي تَقَعُ فيهِ الغُرْفَتان، فإذا بِنا بَعْدَ قَليلٍ نرى الصّانِعَةَ والمِعْزايَةُ تُرافِقُها طَبْعًا تَخْرُجانِ مِنْ غُرْفَتِهِما، بِخِفَّةِ الغِزْلانِ أو الماعِز، وتَدْخُلانِ غُرْفَةَ المُسْتَشارِ الذي كان، ولا شَكَّ، يَنْتَظِرُهُما وَراءَ البابِ إذ إنَّهُما ما كادَتا تَصِلانِ إلى ذَلِكَ البابِ حتّى فُتِحَ أمامَهُما.

السِّرُّ الذي بَقِيَ سِرًّا وقَبْلَ أنْ نَسْتَغْرِبَ الشَّيْءَ، وقَبْلَ أنْ نأخُذَ في الكَلامِ عَمّا يَجِبُ أنْ يَكونَ، وما يَجْري في غُرْفَةِ سعادَتِهِ، أخَذْنا نَتَساءَلُ بِكُلِّ مُجونٍ ولكِنْ بِكُلِّ حِكْمَةٍ أيْضًا، بِقَوْلِنا: «والمِعْزايَةُ، ماذا يُمْكِنُها أنْ تَعْمَلَ عِنْدَما يَكونُ المُسْتَشارُ يَنامُ مَعَ صانِعَتِه؟».

وَهُنا أخَذَ كُلٌّ مِنّا يُعْطي رَأْيَهُ؛ وكانَتْ بَعْضُ الآراءِ، طَبْعًا، غَيْرَ كاثوليكيَّةٍ وغَيْرَ أدَبِيَّةٍ... إنَّما لَمْ نَسْتَقِرَّ على رَأْيٍ واحِد. وهذا ما دعا بَعْضَنا لأنْ يُحاوِلَ أنْ يرى مِنْ ثَقْبِ[ثُقْبِ، بالضم والفتح. د.ج] البابِ ماذا يَجْري في داخِلِ الغُرْفَةِ المُثَلَّثَةِ الضُّيُوفِ، ولكِنَّ ثَقْبَ البابِ كانَ مَسْدودًا أيْضًا وعَنْ قَصْدٍ طَبْعًا.

ولا يَسْتَغْرِبُ القارِئُ عِنْدَما نَقولُ لَهُ إنَّنا قَضَيْنا بَعْدَ ذَلِكَ مُعْظَمَ ساعاتِ ذَلِكَ اللَّيلِ نَتَحَدَّثُ عَنِ الدَّوْرِ المَجْهولِ الذي يَجِبُ أنْ تَكونَ المِعْزايَةُ تَلْعَبُهُ في الغُرْفَةِ عِنْدَما يَكونُ مُعَلِّمُها وصانِعَتُهُ في شُغْلِهِما الشّاغِل.

وظَلَّ هذا السِّرُّ سِرًّا، وَلَمْ تَكْشِفِ الأيّامُ لنا شَيْئًا عَنْ حَقيقَتِه.

المُسْتَشارُ الكَتوم وَكُنْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، تَعاوَنْتُ، وَتَصادَقْتُ، مَعَ المُسْتَشارِ، وكانَتِ الكُلْفَةُ زالَتْ بَيْنَنا، وَمَعَ ذَلِكَ عِنْدَما نَوَّهْتُ ذاتَ يَوْمٍ أمامَهُ، مِنْ تَحْت لَتَحْت، عَنْ دَوْرِ المِعْزايَةِ، رَأَيْتُ على وَجْهِهِ أماراتِ الانْزِعاجِ وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ، مِمّا دَعاني أنْ لا أعودَ مَعَهُ إلى مِثْلِ هذا البَحْثِ مُطْلَقًا.

ولكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَحَفِّظًا مِثْلَ هذا التَّحَفُّظِ عِنْدَما كُنّا نَتَحَدَّثُ عَنِ الصّانِعَةِ بل بالعَكْسِ، فهو كثيرًا ما كانَ يَتَحَدَّثُ معي عَنْها، ويُطْري صِفاتِها وأمانَتَها، ويُسْمِعُني أنَّهُ لَيْسَ غَريبًا عَنْ فِراشِها، ويُؤَكِّدُ أنَّها تَميلُ إلَيْهِ كثيرًا وَتَجْعَلُ وَحْدَتَهُ مأنوسَةً، وتُوَفِّرُ لَهُ بَعْضَ الرَّاحَةِ، مِمّا كانَ بِحاجَةٍ إلَيْهِ كثيرًا بَعْدَ الأشْغالِ والمَتاعِبِ التي يُقاسيها بِوَظيفَتِهِ التي كانَ يَتَحَمَّلُ فِعْلًا كُلَّ مَسْؤوليّاتِها.

وَهُنا لَمْ يَكُنْ كاذِبًا، إذ إنَّهُ كانَ بِوَصْفِهِ المُسْتَشارَ الفَرَنْسيَّ

لِلمِنْطَقَةِ، هو بالواقِـعِ الذي يَحْكُمُ، وكان يَحْكُمُ بِقَدْرِ ما يَسْتَطيعُ مِنَ الإنْصافِ والحَقّ.

كما وأنَّهُ كانَ، في البِدايَةِ، وقَبْلَ أنْ تَقَعَ الواقِعَةُ، عَنيدًا جِدًّا في نَزاهَتِهِ، يَرْفُضُ بِطَريقَةٍ قاطِعَةٍ الهَدايا التي كانَ أصْحابُ المَصالِـحِ يَأْتُونَهُ بِها ـ نَعَمْ، كان يَرْفُضُها بالرَّغْمِ عَمّا[٥] كانَ يَظْهَرُ عِنْدَ صانِعَتِهِ مِنْ دَهْشَةٍ واسْتِغْراب.

وكانَ مَرَّةً قد شَكا أمامي مِنْ أنَّ الصَّبِيَّةَ، لَوْ تَرَكَ لها حُرِّيَّتَها، لَباعَتْهُ وباعَتِ المُسْتَشارِيَّةَ بأجْمَعِها لِهؤلاءِ الذين يُحاوِلونَ رَشْوَتَهُ بِهَداياهُم؛ وكانَتِ الصَّبِيَّةُ، بالرَّغْمِ عَنْها، تَحْتَرِمُ في الأسابيعِ الأُولى إرادَةَ مُعَلِّمِها، وَتَمْشي مِنْ هذا الجانِبِ إلى جانِـبِهِ، وإذا أخَذَتْ شَيْئًا مِنَ الذين يُعْطونَ، فَقَدْ كانَتْ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِطَريقَةٍ خَفِيَّةٍ جِدًّا لا يَعْرِفُ بِها أحَد.

اليَوْمُ الذي باعَتْ فيه نَفْسَها للشَّيْطان كانَ ذَلِكَ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ أيّارَ، ولا أنْسى تاريخَهُ، إذ إنَّهُ اليَوْمُ الذي فَـتَحَ أمامي أبْوابًا كَثيرَة.

ظَلَّتِ الصّانِعَةُ أوَّلًا على تَحَفُّظِها معي، وَظَلَلْتُ أنا زَمَنًا على تَحَفُّظي مَعَها، مَعَ كُلِّ حِشريّتي واهْتِمامي بِها، إذْ يَجِبُ أنْ يَكونَ القارِئُ عَرَفَ مُنْذُ السّاعَةِ الأُولى لهذا الحَديثِ أنَّني لَنْ أتْرُكَ مَخْلوقَةً ظَريفَةً كَهَذِهِ المَخْلوقَةِ تَمُرُّ دونَ أنْ أهْتَمَّ لأمْرِها، ودونَ أنْ أتَحَيَّنَ الفُرَصَ للوصولِ إلى صَداقَتِها.

(٥) كذا في الأصل.

قُلْتُ: ظَلَّتِ الصّانِعَةُ على تَحَفُّظِها، وَظَلَلْتُ أتجاهَلُ أمْرَ الهَدايا التي تَصِلُ إلَيْها، حتّى كانَ ذَلِكَ اليَوْمُ عِنْدَما كانَ المُسْتَشارُ ذَهَبَ إلى بَيْروتَ،[٦] مَدْعُوًّا مِنَ المُفَوَّضِيَّةِ، ودون أنْ يأخُذَها، والمِعْزايَةُ مَعَهُ، مَعَ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُها لِوَحْدِها في السّابِقِ، وَكُنْتُ يَوْمَها أمُرُّ أمامَ المُسْتَشاريَّةِ أتَحَيَّنُ الفُرَصَ وأنْتَظِرُ المُفاجآتِ حتّى أشارَتْ لي بالدُّخولِ، ودونَ كَثْرَةِ كَلامٍ، وَقَبْلَ أيِّ سَلامٍ وأيِّ تَفاهُمٍ، أخَذَتْ مُغَلَّفًا أعْطَتْني إيّاه وَحَلَّفَتْني أنْ أوصِلَهُ لأبيها في قَرْيَتِهِ بِبلادِ البَتْرون، على أنْ لا يَعْرِفَ أحَدٌ في العالَمِ بالشَّيْءِ... وقالَتْ: «هَذِهِ بَعْضُ المصاري، وأهْلي بِحاجةٍ كُلِّيَّةٍ لها، وأبي مَريض...». وأقْسَمْتُ لها، بِناءً على طَلَبِها، أنْ أكْتُمَ الأمْرَ، وأنْ أُوْصِلَ المالَ بأسْرَعِ ما يُمْكِن.

وكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ بَعْدَ هذا أنْ أُحاوِلَ أخْذَ بَعْضِ حُرِّيَّتي مَعَ الفَتاةِ، وَوَجَدْتُ عِنْدَها اسْتِعْداداتٍ حَسَنَةً اعْتَنَيْتُ أنْ لا أسْتَثْمِرَها حالًا خَوْفًا مِنْ أنْ تَجِدَ ذَلِكَ بِمثابَةِ أُجْرَةٍ أُريدُها مِنْها للخِدْمَةِ التي كَلَّفَتْني بها، مِمّا كانَ مِنَ الإمْكانِ أنْ يَجْعَلَها تَجْفُلُ مِنّي ولا تَعودُ تَسْتَأْمِنُني على سِرِّها.

وَكُنْتُ أشْعُرُ أنَّها عَمِلَتِ الخُطْوَةَ الأُولى، الخُطْوَةَ الصَّعْبَةَ، وَقَدْ تَجِدُ الخُطُواتِ التّالِيَةَ سَهْلَةً وَبَسيطَةً.

وَمَعَ هذا لَمْ أتْرُكْها في ذَلِكَ اليَوْمِ إلّا بَعْدَ أنْ داعَبْتُها قَليلًا، وَوَجَدْتُ أنَّها لَمْ تَنْزَعِجْ مِنْ بَعْضِ مُلامَساتٍ وقُبُلاتٍ عادِيَّةٍ هُنا وَهُناكَ في وَجْهِها وعُنُقِها الزّاهِيَيْن.

---

(٦) تركيب لا يخفى أثر «الترجمة الفورية» عليه. نشير إليه من باب الفضول لا من باب التعيير.

شَريكـتي صانعةُ المُسْتَشار إنَّما كانَ عَلَيَّ في المَساءِ أنْ أفْتَـكِـرَ كَثيرًا... كانَ عَلَيَّ أنْ أدْرُسَ الفِكْرَةَ التي فَتَقَتْ لِي فَجْأةً دَرْسًا مُسْتَفيضًا، فإنَّما هَذِهِ الصَّبِيَّةُ لها على المُسْتَشارِ نُفوذٌ قوِيٌّ، وهذا المُسْتَشارُ هو صاحِبُ الأمْرِ والنَّهْيِ في المِنْطَقَةِ الغَنِيَّةِ جِدًّا، وهو حاكِمٌ مُطْلَقٌ فيها مَعَ وُجودِ مُتَصَرِّفٍ وقائِمْمَقامينَ ومُديرينَ وقُضاةٍ وجَنْدَرمة... إنَّما كُلُّ هَؤلاءِ لا يَعْمَلونَ شَيْئًا عِنْدَما يُريدُ المُسْتَشارُ أنْ يَعْمَل؛ فَهُم دُمًى عِنْدَهُ يَحْمِلُ خُيوطَها وَيَجْعَلُها تَدورُ وَتَلْعَبُ كما يُريدُ هو... وكانَ غَيُورًا جِدًّا على سُلُطاتِهِ هَذِهِ، لا يتنازَلُ عَنْ شَيْءٍ مِنْها. وكانَ المُتَصَرِّفُ والقائِمقامُ وما يَتْبَعُهُما، مِثْلَ جَميعِ أمْثالِهِم في هَذِهِ البِلادِ، صَنائِـعَ عِنْدَ الفرنجي يَنْتَظِرونَ أوامِرَهُ وإرادَتَهُ في كُلِّ شَيْء.

على هَذِهِ القاعِدَةِ كان يُمْكِنُ إيجادُ مَيْدانٍ وَسيعٍ جِدًّا أمامي للمَتاجِرِ والمَكاسِب.

وطالَما الصّانِعَةُ الحُلْوَةُ أخَذَتْ تَذوقُ طَعْمَةَ المَصاري فَلِماذا لا تُداوِمُ على الشَّيْءِ وعلى مِقياسٍ أكْـبَر؟ ولِماذا لا أكونُ عَميلَها الأوَّلَ، أو بالحَرِيِّ شريكَها الأوْحَد؟ ولِماذا لا أتَدَبَّرُ لها عَمَلِيّاتٍ كَبيرةً، وهي بِدَوْرِها تَـتَدَبَّرُ المُسْتَشارَ عَشيقَها كَـيْما يَقْضي لها المَصالِـحَ التي تَأْخُذُ على عاتِقِها قَضاءَها؟

ولهذا كانَ مِنَ الواجِبِ أوَّلًا أنْ تَخونَ المُسْتَشارَ معي!

إذْ كانَ يَجِبُ عَلَيَّ أنْ أكْسِرَ عَيْنَها كَيْ تَحْسُبَ لي حِسابًا، ولَمْ يَكُنِ الشَّيْءُ صَعْبًا... لا على مَهارَتي في تَطْبيقِ الحِسانِ، ولا على صَبْوَتي الجَذّابَةِ، ولا على آدابِ الخادِمَةِ الكثيرةِ التَّراخي والتَّساهُل.

واسْتَسْلَمَتْ أخيرًا كما كانَ مِنَ المُقَدَّرِ أنْ تَفْعَل... وانْتَهَزْتُ أوَّلَ مُناسَبَةٍ، وفي الوَقْتِ الذي رَأَيْتُها فيهِ تَنْتَفِضُ في مَلَذّاتِ الحُبِّ، وَتَزْدادُ انْضِمامًا إلى صَدْري، قُلْتُ لها ماذا يَجِبُ أنْ تَعْمَلَ، وأنَّ عَلَيْها أنْ تَجْعَلَ المُسْتَشارَ أكْثَرَ طَواعِيَةً لها، وَهِيَ إذا تَمَنَّعَتْ عَنْهُ لَيْلَةً أو لَيْلَتَيْن يَزْدادُ تَعَلُّقًا بها، وإذا هَدَّدَتْهُ بِتَرْكِهِ يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ تَطْلُبُه مِنْه.

أوَّلُ الغَيْث وكانَتْ ذَكِيَّةً، وَلَوْلا ذكاؤُها لَما تَدَبَّرَتِ الأمورَ بالحَذاقَةِ التي فَعَلَت بَعْدَ ذَلِكَ.

وهكذا في أوَّلِ مَرَّةٍ طَلَبَتْ مِنْهُ قضاءَ مَصْلَحَةٍ لأحَدِ النّاسِ، أسْرَعَ وفَعَلَ، وأخَذَتْ بَعْدَ ذَلِكَ تَطْلُب مِنْهُ وهو يُجيبُ الطَّلَب.

وأنا وهِيَ نَقْبَض... نَقْبَضُ ونَتَحَيَّنُ كُلَّ فُرْصَةٍ كَيْما نَعْمَلُ الحُبّ...

وأصْبَحَ دَوْرُ المِعزَايَةِ دَوْرَ المُتَفَرِّجِ فَقَطْ... دَوْرَ الأميركيِّ في جَمْعِيَّةِ الأُمَمِ بِجينيف.

وأخَذَ سُلْطانُ الصّانِعَةِ يَزْدادُ بازْدِيادِ زينَتِها وَفَساتينِها الجَديدَةِ وإتْقانِ لِباسِها وشَعْرِها، إذْ، عِنْدَما زادَ مالُها، ازْدادَتْ رَوْنَقًا وإغْراءً ولَباقَةً، وازْدادَ المُسْتَشارُ تَعَلُّقًا بِها.

وبِهَذِهِ المُناسَبَةِ يُمْكِنُنا هُنا أنْ نُرَدِّدَ قَوْلَ دو مارتل، المُفَوَّضِ السّامي الشَّهيرِ، عَنِ الفَسادِ الذي حَلَّ بالمُسْتَشارينَ وكِبارِ المُوَظَّفينَ الفَرَنْسِيّينَ في بِلادِنا، بَعْدَ أنْ كانوا في فَرَنْسا أهْلَ نَزاهَةٍ ونَظافَة قال دو مارتل: «هذِهِ بِلادٌ، الخادِمَةُ فيها تَطْغى على المَلائِكَةِ وتُفْسِدُ الصّالِحين»...

النائب على باب الخادمة ولا شَكَّ أنَّ أكْـثَرَ الفَرَنْسِيّين الذينَ باعُوا واشْتَرَوا وتاجَروا وارْتَشَوا عِنْدَنا، نَحْنُ الذين عَلَّمْناهُم هَذِهِ الطُّرُقَ، ونَحْنُ الذين جَعَلْناهُم يَخْرُجونَ عَنْ نزاهَتِهِم.

وجاءَتِ الانْتِخاباتُ النِّيابيَّةُ... وَهُنا تَدَفَّقَتِ الخَيْراتُ تَدَفُّقَ النَّهْرِ في فَيَضانِهِ... والمُسْتَشارُ مَبْسوطٌ والصّانِعَةُ مَبْسوطةٌ، وأنا مَبْسوط...

وأمّا المِعْزايَةُ التي لَمْ تَـكُنْ تُحِبُّ السِّياسَةَ ولا تَهْتَمُّ بالمُتاجَراتِ، فَقَدْ كانَتْ مَبْسوطَةً أيْضًا، إذ إنَّ مُعَلِّمَتَها أخَذَتْ تُدَلِّـلُها أكْثَرَ مِنَ الأوَّلِ وتُكْـثِرُ مِنْ إطْعامِها الحَلْوِيّاتِ وعَراميشِ الفُسْتُقِ والحَشائِشِ الطَّرِيَّةِ اللذيذةِ التي كانَتْ تَسْتَجْلِبُها لها مِنْ رُؤوسِ القِمَم.

اليَوْمَ تراها سيِّدةً جَليلَةَ القَدْر وَهُنا يَجِبُ على بَعْضِ السِّياسِيّينَ مِنْ أهْلِ المِنْطَقَةِ أنْ يَذْكُروا بالمُناسَبَةِ أنَّهُم صاروا نُوّابًا في تِلْكَ الانْتِخاباتِ بِفَضْلِ تِلْكَ الصّانِعَةِ وما دَفَعوهُ لها، وهي جَعَلَتِ المُسْتَشارَ يُساعِدُهُم كَثيرًا وَيَجْعَلُ المُفَوَّضِيَّةَ السّامِيَةَ تَـتَـبَنّى تَرْشيحَهُم، وَهُنا يَجِبُ على العارِفينَ أنْ يَتَذَكَّروا أنَّ تِلْكَ الخادِمَةَ أصْبَحَتْ مَعْروفَةً في ذَلِكَ الحينِ بِصانِعَةِ النُّوّابِ بِمَعْنى أنَّها هيَ التي صَنَعَتْهُم نُوّابًا.

وهَكذا، لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ، حتّى اليَوْمِ الذي أعْفَتْ فيه المُفَوَّضِيَّةُ السّامِيَةُ المُسْتَشارَ مِنَ الخِدْمَةِ وأرْسَلَتْهُ إلى فرنسا قلنا: وهكذا، لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ، كُنّا، بأجْمَعِنا، مَبْسوطين: المُسْتَشارُ عَشيقُ الصّانِعَةِ الرَّسْميُّ، والصّانِعَةُ صانِعَةُ النُّوابِ، وأنا، عَشيقُ الصّانِعَةِ غَيْرُ الرَّسْميِّ وشَريكُها في المُتاجَراتِ، والمِعْزايَةُ التي تَعَلَّقَتْ

بي أخيرًا أكْثَرَ مِمّا كانَتْ مُعَلَّقَةً بالمُسْتَشارِ، وكادَتْ في هذا التَّعَلُّقِ تَفْضَحُ حِكايَتي الخَفِيَّةَ مَعَ الصّانِعَة!

وَبَعْدَ ذَلِكَ، بَعْدَ سَفَرِ المُسْتَشار، صارَتِ الصّانِعَةُ سِتًّا، وذَهَبَتْ إلى قَرْيَتِها بِسَيّارَةٍ خاصَّةٍ لَها، وبِمَلابِسَ فاخِرَةٍ على آخِرِ موضة، وبرنيطةٍ عَلَيْها ريشٌ، وبِجزدانٍ مَلآنٍ، وَبِتَذْكاراتٍ جَميلةٍ لَطيفةٍ لا بُدَّ أنَّها لا تَزالُ حتّى الآنَ تُعيدُها في ذاكِرَتها وهي، اليَوْمَ، سَيِّدَةٌ جَليلةٌ مُحْتَرَمَة...

وأمّا المِعْزايَةُ، ماري لويز، فَقَدْ أخَذَها المُسْتَشارُ مَعَهُ إلى فَرَنْسا، حَيْثُ لا بُدَّ أنْ تَكونَ وَجَدَتْ مُعْجَبينَ كَثيرين لِلَوْنِها الأشْقَرِ، ولِخِفَّةِ روحِها، وللعاداتِ الطَّيِّبَةِ التي تَعَلَّمَتْها، وللتَّهَتُّكِ الجَميلِ الذي كانَتْ تُظْهِرُهُ وهي تَحْضُرُ مَشاهِدَ الحُبِّ والغَرامِ بَيْنَ الصّانِعَةِ، مُعَلِّمَتِها، وبَيْنَ عَشيقِها الرَّسْمِيِّ وعَشيقِها غَيْرِ الرَّسْمِيّ...

بِنْتُ الضَّيْعَةِ فَوْقَ ظَهْرِ المَرْكَب

أيُّ ضَيْعَةٍ في لبنانَ لم تُرْسِل إلى أميركا نِصْفَ أهْلِها؟

وفي ذَلِكَ الزَّمَنِ، ومُنْذُ نِهايَةِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ، بَيْنَ سَنَةِ ١٨٩٠ وسَنَةِ ١٩١٤، اشْتَدَّتِ الهِجْرَةُ إلى أميركا بِصورَةٍ كَبيرةٍ جِدًّا جَعَلَتْ كُلَّ قَرَوِيٍّ مِنْ بِلادِنا يَحْلُمُ بالسَّفَرِ، والذين لَمْ يُسافروا هُمُ الذينَ تَعَذَّرَ عَلَيْهِم «النّاولون».

وكان ظَهْرُ المَرْكَبِ، هكذا، في كُلِّ أسْبوعٍ، مُلْتَقًى لِخَليطٍ مُدْهِشٍ مِنْ أهْلِ القُرى، على الأخَصِّ لِرِجالٍ ونِساءٍ اشْتُهِروا بِشِدَّةِ العَزيمَةِ والاتِّكالِ على اللَّهِ فَقَطْ. إذ إنَّ اتِّكالَهُم على جُيوبِهِم كانَ عَدَمًا، فهم أغْنِياءُ بالآمالِ وفُقَراءُ مُعْدَمون بالمال.

ولا شَكَّ أنَّ أُولَئِكَ المُهاجِرينَ كانَ يَنْقُصُهُم أيْضًا الكَثيرُ مِنَ الأشْياءِ الضَّروريَّةِ، وعلى الأخَصِّ الثَّقافَةُ ومُعْظَمُهُم أُمِّيّونَ، ثُمَّ «الحلاوة»[1] التي كانَتْ تَغْلِبُ عِنْدَ الصَّبايا: هَذِهِ مُسافِرَةٌ مَعَ أُمِّها للالْتِحاقِ بأبيها في تكساس، وتِلْكَ مُسافِرَةٌ مَعَ أخيها للالْتِحاقِ بِخَطيبِها في شيكاغو، وَغَيْرُها مُسافِرَةٌ لِوَحْدِها

(١) كذا في الأصْل، وللمُطالِعِ أنْ يَفْتَرِضَ سَقْطًا يَسُدُّهُ شيءٌ مِنْ قبيل: «... ومُعْظَمُهُم أُمِّيّونَ [وَلَـكِنَّ هذا النَّقْصَ كانَتْ تُعَوِّضُهُ طيبَتُهُم]، ثُمَّ الحَلاوَةُ التي...».

لِتَلْتَحِقَ بزَوْجِها الذي أرْسَلَ يَطْلُبُها للرّيو دي جانيرو، وبِوَجْهِ السُّرْعة.

وَلكِنْ أنا لَمْ أكُنْ مِنَ المُهاجِرينَ عِنْدَما ركبتُ مَرْكَبَ «المِسّاجري ماريتيم» في مَرْفأِ بَيْروتَ، بل كُنْتُ سائحًا يُريدُ التَّعَرُّفَ إلى العالَمِ، ونَزَلْتُ بالدَّرَجَةِ الثّانِيَةِ، ولكِنَّني مَعَ ذَلِكَ رَكِبْتُ بالدَّرَجَةِ الأُولى.

إذْ، في ذَلِكَ الزَّمانِ أيْضًا، وَقَبْلَهُ وبَعْدَه، يُمْكِنُكَ أنْ تَرْكَبَ في أيِّ مَرْكَبٍ بالدَّرَجَةِ الأُولى، إذا كانَ بإمْكانِك أنْ تَشْتَرِيَ رَئِيسَ الخَدَمِ فيُهيّئُ لَكَ حالًا غُرْفَةً مُمْتازَةً تُسافِرُ فيها.

وَلكِنْ إذا كانَ بالإمْكانِ اخْتِلاطُ رُكّابِ الدَّرَجَةِ الثّانِيَةِ مَعَ رُكّابِ الدَّرَجَةِ الأُولى، فَكانَ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا اخْتِلاطُ رُكّابِ هاتَيْنِ الدَّرَجَتَيْنِ مَعَ رُكّابِ الظَّهْرِ، والظَّهْرُ هُوَ سَطْحُ الباخِرَةِ الأماميُّ الذي لا سَقْفَ لَهُ، يَجْتَمِعُ فيهِ رُكّابُ الدَّرَجَةِ الثّالِثَةِ مِثْلَما تَجْتَمِعُ الأبْقارُ في زَريباتِها ومَعَ ذَلِكَ كانَ بإمْكانِ المُسافِرِ بالدَّرَجَتَيْنِ العالِيَتَيْنِ أنْ يَزْمُطَ ويَنْسَلَّ تَحْتَ رِعايَةِ رئيسِ الخَدَمِ ويَذْهَبَ لِزيارَةِ رُكّابِ الظَّهْر.

ومُنْذُ السّاعَةِ الأُولى التي صَعِدْتُ فيها إلى المَرْكَبِ، وقَبْلَ أنْ يَرْفَعَ مِرْساتَهُ ويَتَحَرَّكَ مِنْ بَيْروتَ، وَجَدْتُ أنَّ هُناكَ ما سَيَدْعوني لِزيارَةِ رُكّابِ الظَّهْرِ مِرارًا عَديدَةً أثْناءَ هَذِهِ السَّفْرَةِ مَهْما كانَتْ هُناكَ مِنْ عَقَبات.

فإنَّما الصَّبِيَّةُ الشَّهِيَّةُ القَرَوِيَّةُ ابْنَةُ السّابِعَةَ عَشْرَةَ سَنَةً على الأكْثَرِ التي شاهَدْتُها، مِنْ أعْلى شُرْفَةِ المَرْكَبِ، مَعَ أبيها وأُمِّها وشَقيقِها الأصْغَرِ سِنًّا مِنْها، تَصْعَدُ السُّلَّمَ المُخَصَّصَ لِرُكّابِ الظَّهْرِ، رَأَيْتُ أنَّ

صَبابَتي وعِبادَتي للجَمالِ سَيَضْطَرّانِني حَتْمًا أنْ أزورَ، بأقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، ولأطْوَلِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، رُكّابَ الظَّهْرِ على المَرْكَبِ، وَلَوْ كانَتْ هُناكَ الأوْساخُ والأقْذارُ والأمْراضُ، إذْ لَمْ يَكُنْ في العالَمِ وَسيلَةٌ للسَّفَرِ بالبَحْرِ أكْثَرَ قَذارَةً مِنَ الرُّكوبِ على الظَّهْرِ حَيْثُ يَتَكَدَّسُ المُهاجِرونَ فَوْقَ بَعْضِهِم بَعْضًا، بالعَدَدِ الكَثيرِ، يُسَلِّمونَها رَبّانِيَّة، يَمْرَضونَ ويُصيبُهُم دُوارُ البَحْرِ بأجْمَعِهِم، ويَسْتَفْرِغونَ على بَعْضِهِم بَعْضًا.

وكانَ كُلُّ هؤلاءِ الرِّجالِ والنِّساءِ، البَشِعاتِ مِنْهُنَّ بِوَجْهٍ خاصّ، والوَسِخاتِ بِوَجْهٍ عامّ، يَرْتَدونَ بأجْمَعِهِم المَلابِسَ العَتيقَةَ المُهَلْهَلَةَ التي اشْتَرَوْها مِنْ سوقِ البَضائِعِ القَديمَةِ، إنَّما بَيْنَ كُلِّ هَؤلاءِ يُشِعُّ مِنْ هُنا وهُناكَ وَجْهٌ صَبوحٌ يُمَجِّدُ الخالِقَ، وصَدْرٌ ناهِدٌ يَتَحَدّى الأجْواءَ، وعُيُونٌ نَجْلاءُ تَخْتَرِقُ القُلوبَ ـ هو جَمالٌ بَيْنَ الأدْغالِ يُشْبِهُ الوُرودَ التي لا تَمْنَعُها أشْواكُها عَنِ الظُّهور.

والفَتاةُ التي كُنْتُ قَرَّرْتُ أنْ أزورَها عِنْدَ رُكّابِ الظَّهْرِ أخَذَتْ تَتَراءى لي مِنْ بَعيدٍ نَجْمَةً بَرّاقَةً بَيْنَ مَصابيحَ مُطْفَأَة.

كانَتْ مُسافِرَةً إلى مدينَةِ لورنس مِنْ وِلايَةِ ماساتشوستس، تَلْتَحِقُ مَعَ أهْلِها بِعَمِّها الذي كانَ هاجَرَ قَبْلَ ذَلِكَ بعشرينَ سَنَةً، وَقَدْ عَمِلَ لنَفْسِهِ تِجارَةً صَغيرَةً في دُكّانٍ لِبَيْعِ الخُضارِ وما يَتَفَرَّعُ عَنْها، وكانَ قَدْ أرْسَلَ النّاولونَ لِشَقيقِهِ ولأهْلِ بَيْتِهِ، على الظَّهْرِ طَبْعًا، وتَرَكَ لأخيهِ العِنايَةَ بِخَلْقِ الخَمْسِ ليراتٍ الفَرَنْسيَّةِ اللّازِمَةِ لِمصاريفِ الطَّريقِ، ولِضَمانَةِ ما قد يُمْكِنُ أنْ يُصيبَ العائِلَةَ أثْناءَ السَّفَرِ مِنْ مُفاجآتٍ طارِئَةٍ كالمَرَضِ وغَيْرِه. وكان والِدُ الفَتاةِ، الرَّجُلُ الفَلّاحُ الطَّيِّبُ السّاذَجُ، لَيْسَ بَعيدًا عَنِ النّاسِ، بَل إنَّهُ، حالًا، عِنْدَما اقْتَرَبْتُ

مِنْهُ وسَأَلْتُهُ عَنِ اسْمِهِ، أخَذَ يَرْوي لي حِكايَتَهُ، وكَيْفَ أنَّهُ كانَ مُعْدَمًا وكانَ قَدْ قضى خَمْسَ سَنَواتٍ يَسْعى وَراءَ النّاولونِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ جَمْعَهُ حتّى مَنَّ عَلَيْهِ شَقيقُهُ، أخيرًا، وأرْسَلَ لَهُ النّاولونَ كامِلًا، إنَّما بِدونِ مَصاريفِ الطَّريقِ، مِمّا اضْطَرَّهُ لأنْ يَرْهَنَ كوخَهُ الصَّغيرَ لِيُؤَمِّنَ هَذِهِ الخَمْسَ ليراتٍ الفَرَنْسيَّةَ التي في جَيْبِه.

وكانَ قَدْ سارَ بِنا المَرْكَبُ بِعَرْضِ البَحْرِ في ساعَةِ الغُروبِ، وكانَتْ جِبالُ لبنانَ العاليَةُ أخَذَت تَرْتَدي حُلَّتَها الزَّرقاءَ الشِّعْرِيَّةَ، يَخْلَعُها عَلَيْها الغَسَقُ قَبْلَ أن يُسْدِلَ اللَّيلُ سِتَاره، وَقَدْ أخَذَتْ مَصابيحُ قُرانا على الشّاطِئِ تَتَلألأُ في مِياهِ البَحْرِ، فَتَتَراءَى شُعاعاتٍ لَمّاعَةً تَتَأَرْجَحُ على اليَمِّ كأنَّها صَبِيّاتٍ حُلْواتٍ يَتَمايَلْنَ وَيَرْقُصْنَ على ضَوْءِ القَمَر.

أمامَ هذا المَنْظَرِ السّاحِرِ وَجَدْتُ أنَّ الشَّيءَ الوَحيدَ الذي يُمْكِنُهُ أنْ يُفَرِّجَ عَنّي الغُصَّةَ التي أخَذَتْ تَخْنُقُني ـ غُصَّةَ فِراقِ الأهْلِ والبِلادِ[٢] ـ وَقَرَّرْتُ أنْ أقْتَحِمَ حالًا، الحواجِزَ بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ بالمَرْكَبِ وبَيْنَ الظَّهْرِ لَعَلّي أجِدُ في مُشاهَدَتي للصَّبِيَّةِ القَرَوِيَّةِ الحَسْناءِ ما يُزيلُ عَنّي تِلْكَ الغُصَّةَ، وما يَجْعَلُني أشْتَمُّ بالقُرْبِ مِنْها رائِحَةَ جَبَلي وَقَرْيتي المُعَطَّرَةِ تَنْبَعِثُ مِنْ شَعْرِ الفَتاةِ المُجَعَّدِ الكَسْتَنائِيِّ، ومِنْ فُتْحَةِ فُسْتانِها الكاشِفَةِ عُنُقَها الطَّويلَ وبِدايَةَ صَدْرِها النّاهِدِ، وَقَدْ لَوَّحَتْها شَمْسُ بِلادي، وزادَتْ في حَيَوِيَّتِها، مِمّا جَعَلَها دائِمَةَ الحَرَكَةِ لا تَهْدأُ في مَكانٍ، تَنْتَقِلُ بَيْنَ رُكّابِ

(٢) كذا في الأصل، وللمُطالِعِ أنْ يَفْتَرِضَ سَقْطًا يَسُدُّهُ شيءٌ مِنْ قبيلِ: «... وَجَدْتُ أنَّ الشَّيءَ الوَحيدَ الذي يُمْكِنُهُ أنْ يُفَرِّجَ عَنّي الغُصَّةَ التي أخَذَتْ تَخْنُقُني ـ غُصَّةَ فِراقِ الأهْلِ والبِلادِ ـ [هُوَ البَحْثُ عَنْ تِلْكَ الصَّبِيَّةِ فَحَزَمْتُ أمْري] وقَرَّرْتُ أن...».

الظَّهْرِ المُتزاحِمينَ فَوْقَ بَعْضِهِم بَعْضًا وعُيُونُ الرِّجالِ تُرافِقُها باشْتِهاءٍ، وعُيُونُ النِّساءِ تُرافِقُها بِحَسَدٍ وغَيْرَة.
وناداها أبوها عِنْدَما أخَذَ يَرْوي عليَّ حِكايَتَهُ مُظْهِرًا غِبْطَتَهُ مِنْ مَعْرِفَتي وزِيارَتي لَهُ مِمّا جَعَلَ الفَتاةَ تَسْتَأْنِسُ بِي حالًا وتُظْهِرُ نَحْوِيَ الكثيرَ مِنَ اللُّطْفِ، ومِنْ وَراءِ هذا تَرَكْتُ التَّكْليفَ جانِبًا وَسَأَلْتُها إذا كانَتْ مَبْسوطَةً مِنَ السَّفَرِ فأجابَتْ بِلَهْجَتِها الجَبَلِيَّةِ، وَقَدْ لَذَّ لِي صَوْتُها العَذْبُ بِموسيقاه: «هَلْ هُناكَ شَيْءٌ أحْلى مِنَ السَّفَر؟ وبالقليل أرى نَفْسي انْتَهَيْتُ مِنْ مُلاحَقَةِ رِجالِ الضَّيْعَةِ دَوْمًا لي حتّى إنَّني كُنْتُ لا أسْتَطيعُ أنْ أعْمَلَ حَرَكَةً إلّا ويَعْرِفُ الجَميعُ بِها».
ونَظَرَتْ إلى أبيها كأنَّها تَـتَحَدّاهُ، وتُريد أنْ تَقولَ لَهُ إنَّهُ كَفاها أنْ تَـكونَ صَعِدَتْ على ظَهْرِ المَرْكَبِ الفَرَنْساوِيِّ حتّى اكْـتَسَبَتِ الحُرِّيَّةَ التي للنِّساءِ في بِلادِ النّاس.
وقالَتْ لي فَجْأَةً: «وأنْتَ، ما جِئْتَ تَعْمَلُ هُنا على الظَّهْرِ، وفي هذا الوَسَخِ والأقْذار؟».
قُلْتُ لها، وأنا في ذَلِكَ الحينِ أقْتَحِمُ فِرْقَةَ عَسْكَرٍ لأقولَ كَلِمَةً حُلْوَةً لحَسْناءَ مِثْلِها: «لِماذا تَسْأَلينَني هذا السؤال؟، فَقَدْ جِئْتُ لأتَعَرَّفَ إلَيْكِ وإلى أبيك!».
قالَتْ: «وَلكِنْ ماذا يَهُمُّكَ الأمْر؟ ثُمَّ ماذا يُمْكِنُ أنْ تَجِدَ هُنا شَيْئًا مِنَ السَّلْوى ونَحْنُ بَيْنَ هَذِهِ المَجْموعَةِ مِنَ النّاسِ وَقَدْ بَدَأوا، ولا شَكَّ يَقولُونَ إنَّكَ ما جِئْتَ إلى هُنا إلّا لأجْلي؟».[٣]

(٣) تركيبان استفهاميان لا يخفى أثر «الترجمة الفورية» عليهما.

قُلْتُ: «وما الأهَمِّيَّةُ في ذَلِكَ؟».
ـ «أنْتَ لا يَهُمُّكَ، وَلكِنْ أنا يَهُمُّني، فلا أُريدُ جُرْصَة...».
وهُنا نادَتْها والِدَتُها لِحاجَةٍ خاصَّةٍ فَـتَـرَكْـتُها وَعُدْتُ إلى الدَّرَجَةِ الثّانِيَة.
ولكِنَّ قَلْبِي كان مَليئًا بِصورَتِها، وكُنْتُ طَبْعًا أعْلَمُ أنَّ هواءَ البَحْرِ يَجْعَلُ الشّابَّ أكْثَر جُرْأةً في التَّمادي والمُخاطَرَةِ بالكَثيرِ في سَبيلِ الوِصالِ والتَّحابُب. إنَّما، ما العَمَلُ وجميعُ هَؤلاءِ النّاسِ هُنا على الظَّهْرِ، وأكْـثَرُهُم لا يُفارِقُ الفَتاةَ بأنْظارِهِ، وهي لا تَعْمَلُ شَيْئًا لِتَجْعَلَهُم يَميلونَ عَنْها، إذْ إنَّها فَتاةٌ لَعوبٌ طَروبٌ كَثيرةُ الغَنَجِ، تُحِبُّ وتَسْتَحْسِنُ اهْتِمامَ النّاسِ بِها.
وأخَذْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أزورُها مِرارًا في اليَوْمِ، لا أسْألُ عمّا يَكونُ مِنَ الرُّكّابِ في الظَّهْرِ، أُلاطِفُها، وأجْلُبُ لها الهَدايا وأُضَيِّفُها أشياءَ لَذيذَةً طَيِّبَةً، وهي آخِذَةٌ بِدَوْرِها تَعودُ عَنْ نُفورِها الطَّبيعِيِّ وَتَقْتَرِبُ مِنّي حتّى صِرْتُ أتراءَى لها أخيرًا الأميرَ الفَتّانَ الذي كانَتْ تَنْشُدُهُ في أحْلامِها خِلالَ الأيّامِ الطِّوالِ المُضْجِرَةِ في القَرْيَةِ عِنْدَما كانَتْ تَجْلِسُ تَحْتَ ظِلالِ العَنْدَليبِ والصَّنَوْبَرِ بِقُرْبِ جَدْوَلِ الماءِ العَذْبِ الرَّقْراق.
ومضى عَلَيْنا أُسْبوعٌ نَـتَـلاقى وَنَـتَجاذَبُ الحَديثَ بالرَّغْمِ عَنْ كُلِّ هَذِهِ العُيُونِ التي تُلاحِقُنا حتّى كانَتِ اللَّيلَةُ التي كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَصِلَ فيها المَرْكَبُ إلى ميناءِ مرسيليا.
وفَجْأةً، عِنْدَ الغُروبِ، عَصَفَتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ أخَذَتْ تَرْمي رُكّابَ الظَّهْرِ فَوْقَ بَعْضِهِم بَعْضًا حامِلَةً مَعَ أرْياحِها كُلَّ ما خَفَّ أمامَها مِنْ أثوابٍ وحاجاتٍ تُرافِقُها سُيولٌ جارِفَةٌ مُخيفَةٌ،

جَعَلَتْ رُكّابَ الظَّهْرِ يَتَماسَكونَ بِبَعْضِهِم بَعْضًا خوفًا مِنْ أنْ تَقْذِفَ بِهِم الرِّياحُ إلى البَحْرِ، ولَمْ يَكُنْ بإمكانِهِم الالْتِجاءُ إلى مَكانٍ لَهُ سَقْفٌ يَحْميهِم مِنْ هَذِهِ الأمْطارِ التي بَلَّلَتْ أثوابَهُم حتّى العَظْم.

وأنا في الدَّرَجَةِ الثّانِيَةِ أتَساءَلُ ماذا كانَتْ حالَةُ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ وماذا تَعْمَلُ بها الرِّياحُ والسُّيول؟

ولَمْ أسْتَطِعِ الانْتِظارَ طَويلًا فاقْتَحَمْتُ تِلْكَ الرِّياحَ والعَواصِفَ المُمْطِرَةَ التي أخَذَتْ تَرْميني هُنا وهُناكَ ولكِنَّني لَمْ أتَراجَعْ وظَلَلْتُ أتَمَسَّكُ بالحَواجِزِ حتّى وَصَلْتُ أخيرًا، فإنَّما عِنْدَ الاشْتِهاءِ، وَلَوْ كانَ الرَّجُلُ في آخِرِ العالَمِ وتَراءَى لَهُ وَجْهٌ مَليحٌ وصَدْرٌ عامِرٌ وقامَةٌ هَيْفاءُ لا يَسْألُ عَنْ شَيْءٍ ويَمْشي إلى الأمامِ، ولو كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ذَلِكَ الوَجْهِ جِبالُ حِمَلايا [هِمَلايا. د.ج].

ولا تَقِلُّ الفَتاةُ عَنِ الفتى جُنونًا في مِثْلِ هَذِهِ الأمور...

وَصَلْتُ بَعْدَ جُهْدٍ جَهيدٍ إلى الظَّهْرِ وكانَتِ الرِّياحُ قَدْ أطْفَأتِ المَصابيحَ فَلَمْ يَبْقَ هُناكَ نورٌ يَجْعَلُ الرُّكّابَ يَعْرِفونَ جَيِّدًا الفتى الذي أخَذَ يَنْسَلُّ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ تَجَمَّعوا على بَعْضِهِم بَعْضًا في تِلْكَ الزَّريبَةِ كالنِّعاجِ عِنْدَما تُهاجِمُها الذِّئابُ فَتَلْتَفُّ حَوْلَ بَعْضِها بَعْضًا، وتَتَلاصَقُ جاعِلَةً مِنْ نَفْسِها مَجْموعَةً واحِدَةً تَقِفُ بِوَجْهِ الأكاسِرَة.

وكانَ شَيْءٌ عَجيبٌ يَقودُني إلى الصَّبِيَّة ـ كانَ طَرَفُ فُسْتانِها الأحْمَرِ يَتَراءَى لِي مِنْ بَعيدٍ بَيْنَ فَساتينِ النِّساءِ المُحيطاتِ بِها. ولا أعْرِفُ كَيْفَ اسْتَطَعْتُ أنْ أصِلَ إلَيْها.

وَقَدِ انْسَلَلْتُ بَيْنَ النِّساء المُحْتَشِداتِ المُتلاصِقاتِ بَعْضِهِنَّ

بِبَعْضٍ، مُحاوِلاتٍ إنْقاذَ أنْفُسِهِنَّ مِنْ خَطَرِ الأمْواجِ التي كانَتْ تَعْتَلي فَوْقَ ظَهْرِ المَرْكَبِ، وتَكادُ تَجْرُفُ كُلَّ مَنْ عَلَيْهِ، وتَمَسَّكْتُ بالفَتاةِ القَرَوِيَّةِ الحَسْناءِ كأنَّني، في تِلْكَ الحالَةِ، أرَدْتُ أنْ أحْميها مِنْ تَلاطُمِ الأمْواجِ وهُبوبِ الرِّياحِ، وأنْ أحْتَفِظَ بِها لِنَفْسي.

وفي خِضَمٍّ هَذِهِ العاصِفَةِ المُمْطِرَةِ المُخيفَةِ شَعَرْتُ بالفَتاةِ تَلْتَصِقُ بِيَ الْتِصاقًا تَغَلَّبَتْ عَلَيْهِ الشَّهَواتُ الجِنْسيَّةُ أكْثَرَ مِمّا تَغَلَّبَ عَلَيْهِ الخَوْفُ على الحَياة.

وكانَ ساعَتَئِذٍ الشَّيءُ المُدْهِشُ الذي، ما زِلْتُ حتّى الآن، لا أسْتَطيعُ أنْ أفْهَمَ كَـيْـفَ أقْدَمْنا عَلَيْهِ!

كانَ أنَّنا، في ذَلِكَ الظَّلامِ الذي كانَ مُخَيِّمًا بَعْدَ أنْ أطْفَأَتِ الرِّياحُ المَصابيحَ وحَطَّمَتْها، وبَيْنَ أوْلَئِكَ النِّساءِ اللَّواتي أحَطْنَ بِنا، مِثْلُ دِرْعٍ مِنَ الفُولاذِ، مِنَ المُسْتَحيلِ اخْتِراقُهُ ـ كانَ أنَّنا تَحابَبْنا، أنا والقَرَوِيَّةُ الحَسْناءُ، وتواصَلْنا، والرُّعودُ والعَواصِفُ والصَّواعِقُ تَبْتَهِجُ لابْتِهاجِنا، والنِّساءُ يُحَوِّلْنَ أنْظارَهُنَّ عَنّا كأنَّهُنَّ يَرْعَيْنَ وِصالَنا بِكُلِّ عَطْفٍ وَمَحَبَّة.

وكانَتِ الرِّياحُ أخَذَتْ تَهْدَأُ، والأمْواجُ أخَذَتْ تَـتَلاشى عِنْدَما افْتَرَقْنا، وأنْظارُ النِّساءِ العاطِفاتِ تَرْعانا وتَرْمُقُنا بِكُلِّ حِمايَة.

•

وفي اليَوْمِ الثّاني، عِنْدَما رَسَتِ الباخِرَةُ بِميناءِ مارسيليا، وأسْرَعْتُ أُفَتِّشُ عَنِ القَرَوِيَّةِ الحَسْناءِ بَيْنَ رُكّابِ الظَّهْرِ، لَمْ أجِدْها.

وَسَأَلْتُ عَنْها وَعَنْ أهْلِها، فلَمْ يَكُنْ أحَدٌ يَعْرِفُ أيْنَ ذَهَبوا.

ومَضَتِ السَّنَواتُ والسَّنَوات...

وكما أنَّني لا أزالُ أذْكُرُ ذَلِكَ الوِصالَ المُدْهِشَ، لا أزالُ، أيْضًا، أذْكُرُ رُكّابَ ظَهْرِ المَرْكَبِ، حائِرينَ كَـيْفَ اخْتَفَتِ الفَتاةُ مِنْ بَيْنِهِم اخْتِفاءً ما زالَ خَبَرُهُ يُقْلِقُ مَضاجِعي وضَميري...

كُنْتُ حَفيدَ الكاردينال دو ريشليه

كان «الإمبراطورُ» أكْبَرَ مَرْكَبٍ في العالَمِ يُسافِرُ يَوْمَذاكَ في رِحْلَتِهِ الأُولى مِنْ هامبورغ إلى نيويورك.

وبِطَبيعَةِ الحالِ، كانَ مُلوكُ المالِ وعُظَماءُ الكَوْنِ ـ وأكْثَرُهُم في ذَلِكَ الزَّمانِ لَيْسَ مِنَ الأميركانِ فَقَطْ، بل أيْضًا، وخُصوصًا، مِنَ اللّورداتِ الإنكليزِ، والأُمَراءِ والأرشيدوقاتِ الرّوس الذين كانوا يَحْتَلّونَ حينَذاكَ بِباريسَ وأوروبا المَكانَةَ التي احْتَلَّها، ولا يَزالُ يَحْتَلُّها عِنْدَنا اليَوْمَ في لُبنانَ، شُيوخُ الكُوَيْتِ وأُمراءُ السُّعوديَّة.

وهكذا تَهافَتَ مُلوكُ المالِ والجاهِ للسَّفَرِ على ظَهْرِ «الإمبراطور» مِمّا كانَ في ذَلِكَ الوَقْتِ، وحتّى يَوْمِنا هذا، مَظْهَرًا مِنْ مَظاهِرِ الوَجاهَةِ، على الأَخَصِّ للأغْنياءِ الحَديثي النِّعْمَةِ الذين كانَ يَوْمَئِذٍ يَبْسُطُهُم كَثيرًا أنْ يَقولُوا، هُنا وهُناكَ، إنَّهُم كانوا على ظَهْرِ «الإمبراطور» في أوَّلِ رِحْلَةٍ لَهُ وإنَّهُم، هُمُ، الذين عَمَّدوهُ بالماء.

ولِلْحَقِّ كانَ، ولا شَكَّ، السَّفَرُ على ظَهْرِ «الإمبراطور» ذي الخَمْسَةِ وَسِتّينَ ألْفَ طُنٍّ، وما دَبَّرَتْهُ الشَّرِكَةُ مِنْ أسْبابِ الرَّفاهِ والتَّرْفيهِ، يَتَحَدّى بِهِ المَراكِبَ الإنكليزيَّةَ التي كانَتْ حتّى قِيامِ «الإمبراطور» صاحِبَةَ النَّصْرِ والأسْبَقِيَّةِ في عالَمِ المَراكِبِ والبَحْرِ، فَجاءَ هذا الجَبّارُ الألمانيُّ يَسْتَظْهِرُ عَلَيْها، ويأخُذُ ثأرَ البَحْرِيَّةِ

الألمانيَّةِ مِنَ البَحْرِيَّةِ البريطانيَّةِ، مُنافِسَتِها التَّاريخيَّةِ، وَقَدْ كانَتِ البَحْرِيَّةُ البريطانيَّةُ التِّجاريَّةُ حتّى ذَلِكَ الوَقْتِ السَّبّاقَةَ وحامِلَةَ كأسِ الظَّفَر.

وكانَ أولَئِكَ العُظَماءُ وملوكُ المالِ قَدْ تَواعَدوا تَواعُدًا غَيْرَ مَقْصودٍ، وَبِدونِ أيِّ تَفاهُمٍ، على اللِّقاءِ بِباريسَ، وذَلِكَ قَبْلَ أنْ يَرْكَبوا «الإمبراطورَ» مِنْ ميناءِ الهاڤر في رِحْلَتِهِ الأُولى عَبْرَ الأوقيانوس ـ تواعَدوا في باريسَ، أمِّ الدُّنْيا في ذَلِكَ الحينِ، عاصِمَةِ الحُبِّ والغَرامِ، مُلْتَقى جَميعِ مَحْظيّاتِ الأرْضِ يَأْتينَها مِنْ كُلِّ جانِبٍ وَصَوْبٍ يَضَعْنَ مَحاسِنَهُنَّ تَحْتَ حِمايَةِ نِظامِ تِجارَةِ الحُبِّ الكُبْرى التي كانَتِ الحُكومَةُ الفَرَنْسيَّةُ قَدْ نَظَّمَتْها تَنْظيمًا غَريبًا مُتْقنًا يُوازي تَنْظيمَ الشَّرِكاتِ الكُبرى لأعْمالِها، فجَعَلَتْ تِجارَةَ الحُبِّ مَشْروعًا ماليًّا تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ كثيرًا الثَّرْوَةُ الفَرَنْسيَّةُ العامَّةُ ـ تَمامًا، وبالقُوَّةِ والأرْباحِ التي كانَتْ تَرْتَكِزُ عَلَيْها تِجارَةُ الفُسْتانِ الباريسيَّة.

فالفُسْتانُ والبِنْتُ بباريسَ كانا في ذَلِكَ الحينِ مَلِكَيْنِ مُتَوَّجَيْنِ، يأتي العالَمُ مِنْ كُلِّ الأنْحاءِ يَسْجُدُ أمامَهُما وَيَضَعُ ثَرْوَتَهُ تَحْتَ أقْدامِهِما، وكانَ لَهُما مِنْهُ النُّفوذُ والقُوَّةُ، مِمّا يَجْعَلُ سُلْطانَهُما فَوْقَ كُلِّ سُلْطان.

وهكذا، كما كانَتْ كُلُّ غادَةٍ حَسْناءَ ابْنَةِ دَلالٍ وثَراءٍ تَجِدُ عارًا عَلَيْها، وأكْثَرَ مِنْ عارٍ، أنْ لا تَلْبِسَ فُسْتانًا مِنْ باريسَ، كذَلِكَ كانَ كُلُّ رِجالِ الثَّرَواتِ، والمُلوكِ المُتَصابونَ، كإدوار السّابِعِ، وألْفونس الثّالِثَ عَشَرَ، وفرديناند البلغاري، وهاكون الأسوجي وغروندوقات الرّوس أُمراءِ ألْفِ لَيْلَةٍ ولَيْلَةٍ، ومَهَراجاتِ وأقْيالِ الهِنْدِ، وباشَواتِ

اسطنبولَ والقاهِرَةِ ـ كانوا يَمْشون وتَمْشي أنْهُرُ الذَّهَبِ وَراءَهُم، وعبّاسِ الثّاني، الخديويِّ عِنْدَما كانَ بِعِزِّهِ، وَجَميعِ المِعْشاقينَ مِنْ مُلوكِ المالِ العالَمِيّينَ، يَسْتَحْرِمونَ عَمَلَ الحُبِّ في غَيْرِ باريسَ، وبِفِراشٍ غَيْرِ فِراشِ بَناتِ باريسَ، مِمّا كانَ يُشَكِّلُ مَدْخولًا فظيعًا مِنْ ملايينِ اللِّيراتِ الذَّهَبِيَّةِ تأتي صاغِرَةً لِتَسْجُدَ وَتَـتَمَرَّغَ عِنْدَ أقْدامِ حِسانِ باريس.

وكما قُلْنا أعْلاهُ، يُمْكِنُ اليَوْمَ أنْ نَجِدَ وَجْهَ شَبَهٍ كَبيرًا بَيْنَ ذَلِكَ العَهْدِ الزّاهي المَجْدَ لِباريسَ، وتِجارَةِ الحُبِّ فيها مَعَ مِلْيونيرِيَّةِ العالَمِ، وبَيْنَ هَذِهِ السَّنَواتِ العَشْرِ الأخيرَةِ التي مَرَّتْ عَلَيْنا في لُبنانَ حَيْثُ أصْبَحَتْ بَيْروتُ، في أثْنائِها، باريسَ جَديدَةً لِملوكِ وأسْيادِ وشُيوخِ البِترول العَرَبِيِّ مِمّا جَعَلَ تِجارَةَ الحُبِّ تَعُمُّ عِنْدَنا على أوْسَعِ وأغلى مَكاسِبِها، وبِطَريقَةٍ مُدْهِشَةٍ تَنْفَجِرُ أخيرًا مَعَ فَضائِحِ عفاف وبُيوتِها السِّرِّيَّةِ، ومَعَ تِجارَةِ الرَّقيقِ وَوَسائِلِها المَعيبَةِ، تَمامًا، مِثْلَما يَنْفَجِرُ المِرْجَلُ المُحْكَمُ الإقْفالِ عِنْدَما تَغْلي مِياهُهُ حتّى الحَدِّ الأقْصى.

وهُنا تَجْدُرُ الإشارَةُ على أنَّ جَماعَةَ البِترولِ العَرَبِيِّ مِنْ أسْيادِ الصَّحارى والجزيرةِ والخليجِ الفارِسِيِّ يَجِبُ أنْ يَـكونوا اسْتطابوا البَناتِ هُنا في ألْوانِهِنَّ الزّاهِيَةِ، واحْمِرارِ وُجُوهِهِنَّ، وبَياضِ بَشَرَتِهِنَّ، واللَّمَاعِ مِنْ شَعْرِهِنَّ الذَّهَبِيِّ حِينًا والكَسْتنائِيِّ أحْيانًا، مِمّا لَيْسَ عِنْدَهُم في بِلادِهِم شَيْءٌ مِنْهُ، فأخَذوا يَفِدونَ على بَيْروتَ، تَمامًا وكمالًا، كما كانَ الأُمراءُ ومُلوكُ المالِ يَفِدونَ في ذَلِكَ الزَّمانِ على باريسَ، وبِذاتِ الكَرَمِ والأسْعارِ الغالِيَةِ جِدًّا لِشِراءِ الغِزْلانِ في مُدُنِ لُبنان.

وَنَعودُ إلى «الإمبراطور» وَرِحْلَتِنا فيهِ فَنَقولُ إنَّ باريسَ كانَتْ هكذا نُقْطَةَ الانْطِلاقِ والمَحَطَّةَ التي يَرْكَبُ عَنْ طَريقِها جَميعُ هَؤلاءِ المَحْظوظينَ المَرْكَبَ «الإمبراطور» الجَبّار.

فإنَّما الرُّكوبُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بالمَرْكَبِ الجَديدِ كانَ، في المُناسَبَةِ، عِنْدَ جَميعِ هَؤلاءِ العِظامِ، يُشابِهُ اقْتِطافَ بَتولِيَّةِ العَذارى الحِسان.

جاؤوا بأجْمَعِهِم إلى باريسَ، العَظيماتِ مِنْهُنَّ لأجْلِ الفُسْتانِ، والعِظامِ لِعَمَلِ الحُبِّ يَنْتَظِرونَ فِيها قيامَ المَرْكَبِ الجَبّارِ الذي كان مُبْتَداهُ في هامبورغ، مِرْساتِهِ الأُولى، وكانَ مُنْتَهاهُ في نيويورك، مُبْتَغاهُ وغايَةِ مَطافِه. فلِماذا يَرْكَبُهُ رُكّابُهُ مِنْ هامبورغَ، المَدينَةِ الألمانيَّةِ الوَقورَةِ الرَّصينَةِ التي كانَتْ في ذَلِكَ الحينِ، وَقَبْلَ أنْ يَصِلَ إلَيْها تَهَتُّكُ باريسَ، مَوْطِنًا للفَضيلَةِ واللَّيالي المُضْجِرَةِ، ولا يَرْكَبونَهُ، أي «الإمبراطور»، عَنْ طَريقِ باريسَ الضّاحِكَةِ الهازِجَةِ التي كان يُسَيْطِرُ عَلَيْها جَوٌّ مِنَ الشَّهَواتِ والتَّهَتُّكِ لا يُمْكِنُ لأيٍّ كانَ إلّا أنْ يَتَأَثَّرَ بِهِ ويَجِدَ الوِصالَ شَيْئًا ضَروريًّا لا بُدَّ مِنْهُ فِيها. وبَيْنَما يَصِلُ المَرْكَبُ مِنْ هامبورغ إلى شيربورغ الفَرَنْسيَّةِ، مَحَطَّتِهِ الأُولى في طَريقِهِ إلى نيويورك، كانَ عِنْدَ الذين يَرْكَبونَهُ الوَقْتُ الكافِي للمَجيءِ إلى عاصِمَةِ الحُبِّ، يَتَمَتَّعونَ بِكُلِّ ما كانَتْ تُقَدِّمُهُ في ذَلِكَ الزَّمانِ مِنْ تَهَتُّكٍ عالٍ، وَمَلَذّاتٍ فيّاضَةٍ، ومُغامَراتٍ شَهِيَّةٍ فَريدَة.

•

وعِنْدَما صَعِدْنا إلى المَرْكَبِ، وكُنْتُ، أنا أيْضًا، مَعَ قِلَّةِ مالي، أقِفُ وَقِحًا وفَشّارًا أمامَ السَّماءِ، وأمامَ جَميعِ هؤلاءِ المُسافِرين

ـ وكُنْتُ أنا مِنْ رُكّابِ «الإمبراطور» غَيْرِ المُنْتَظِرينَ، مِمّا دَعَوْتُهُ في ذَلِكَ الحينِ حَظِّيَ الأكْبَرَ بالحَياة.

وَقَدْ كانَتِ السَّيِّدَةُ اللبنانيَّةُ المُهاجِرَةُ، رَقَم أوَّل بِجاهِها ومكارِمِها وآدابِها، نجلا مطران، أرْسَلَتْ تَسْتَدْعيني مِنْ باريسَ إلى نيويورك، تُريدُ مِنّي إنشاءَ جَريدةٍ زَحْلِيَّةٍ في المَدينَةِ الأميركيَّةِ الكُبرى، حَيْثُ كان المُهاجِرونَ الزَّحْلِيّونَ في ذَلِكَ الوَقْتِ، وعلى رَأْسِهِم السَّيِّدَةُ المُكَرَّمَةُ، قد سَبَقوا بِكثيرٍ، وَبِجُرْأةٍ غريبةٍ، باقي المُهاجِرينَ العَرَبِ، أو التُّرْكِ، كما كانَ يُسَمي الأميركانُ المُهاجِرينَ العَرَب. وكان المُهاجِرونَ الزَّحْلِيُّونَ من أسْيادِ شارِعِ واشنطن ستريت الذي كان مُلْتَقى، أو بالحَرِيِّ، مَحَطَّةَ أوْلادِ العَرَبِ الأصْلِيَّةَ ومِرْساتَهُم ـ أرْسَلَتِ السَّيِّدَةُ الكَبيرةُ تَسْتَدْعيني بِمُوْجِبِ تَذْكِرَةِ سَفَرٍ بالدَّرَجَةِ الأُولى على ظَهْرِ «الإمبراطور» ـ المَرْكَبِ الجَديدِ العَجيب ـ ولا أعْرِفُ كَيْفَ اسْتَطاعَتْ أن تَجِدَ لي مَكانًا، وَقَدْ أرادَتني رُكوبَ ذَلِكَ المَرْكَبِ لِتُكَرِّمَني ولِتُقَدِّمَني للجالِيَةِ في نيويورك في صُورةٍ يُحيطُ بِها البَذَخُ والوَجاهَة.

وَمَعَ أنَّها أرْفَقَتِ التَّذْكِرَةَ بِقيمَةٍ مِنَ المالِ جاءَتْ في وَقْتِها تَمامًا ـ قُلْتُ: وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ، لأوَّلِ وَهْلَةٍ، تَمَنَّيْتُ أنْ تكونَ أرْسَلَتْ لي تَذْكِرَةً بَسيطَةً للسَّفَرِ على باخِرَةٍ عادِيَّةٍ، وأهْدَتْ لِيَ الفَرْقَ مِنَ الثَّمَنِ مَعَ تَذْكِرَةِ «الإمبراطور» الغالِيَةِ جِدًّا، فإنَّما كانَ ذَلِكَ الفَرْقُ يُشَكِّلُ ثَرْوَةً مُحْتَرَمَةً بِنَظَري في ذَلِكَ الوَقْتِ ـ ولكِنَّني بَعْدَ أنْ صَعِدْتُ إلى «الإمبراطور» في مِيناءِ شيربورغ، وأخَذْتُ، مِنْ أعْلى شُرْفَةِ المَرْكَبِ، أُشاهِدُ رِفاقَ ورفيقاتِ السَّفَرِ يَصْعَدونَ السَّلالِمَ، وأسْمَعُ أسْماءَهُم الكَبيرةَ جِدًّا، عَرَفْتُ أنَّني، مُدَّةَ ثَمانِيَةِ أيّامٍ

كامِلَةٍ، سأعيشُ بَيْنَ مُلوكِ العُروشِ ومُلوكِ المالِ ومَلِكاتِ الجَمالِ وعُظَماءِ هذا العالَم، وأنَّ أقلَّ واحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ بِمَقْدورِهِ أنْ يَشْتَرِيَ قَرْيَتي والمائَةَ قَرْيَةٍ التي حَوْلَ قَرْيَتي، وعَرَفْتُ أنَّ أقَلَّ غادَةٍ مِنْ رفيقاتِ السَّفَرِ تَحْمِلُ على جَسَدِها الحارِّ، المَمْشوقِ غالِبًا، مِنْ ثَوْبِها لِنَعَلَيْها، ما يُمْكِنُ لِثَمَنِهِ أنْ يَجْعَلَ مائَةَ بِنْتٍ لُبنانيَّةٍ يَلْبَسْنَ الحَريرَ والمُخْمَلَ لِعَشْرِ سَنَواتٍ، ويُوَفِّرَ لَهُنَّ دُوتَّةً نَقْدِيَّةً تُساعِدُ كلًّا مِنْهُنَّ أنْ تَنْتَقِيَ العَريسَ الذي تُريدُهُ، لا أنْ تَبْقى، كما كانَتْ في ذَلِكَ الزَّمانِ، مَهْما كانَتْ جَميلةً، مَعْروضَةً للبَيْعِ للرَّجُل الذي يُريدُها، والذي، أغْلَبَ الأحْيانِ لا تُريدُه.

وَذَكَرْتُ وأنا على ظَهْرِ «الإمبراطور» زَحْلَةَ، عَروسَ الوادي، وادي الغِزلان، وَقَدْ تَرَعْرَعْتُ على ضِفَّةِ نَهْرِهِ الرَّقْراقِ، وشَبَبْتُ تَحْتَ ظِلالِ أشْجارِهِ المُزْهِرَةِ، وَذَكَرْتُ أهْلَ زَحْلَةَ وتَفْشيرَهُم ومَراجِلَهُم وتَفْشيطَهُم وادِّعاءَهُم أنَّ زَحْلَةَ أمُّ الدُّنْيا، ومَرْبى الأسود، وأنَّها في حالَةِ السِّلْمِ، كما يَدَّعي أهْلُها، تُجَنِّدُ عَشْرَةَ آلافٍ، وفي حالَةِ الحَرْبِ تُجَنِّدُ، مائةَ ألفٍ ـ كُلُّ هذا والزَّحْليّونَ، في ذَلِكَ الزَّمان، مِنَ الذين لَيْسُوا بأميركا، لا يَشْتَغِلونَ ولا يَسْألونَ عَنْ شَيْءٍ، يَشُمّونَ الهواءَ، على ضِفافِ البردوني على حِسابِ مُهاجِريهِم على الغالِب.

وَزَحْلَةُ بَلَدُنا، والعَرَقُ مَشْروبُنا، وعلى ضِفافِ النَّهْرِ، حَوْلَ طاوِلَةِ المازَّةِ والكبَّة النَّيَّة والفراريجِ المَشْوِيَّة، يَقْتَسِمُ الزَّحْليّونَ الدُّوَلَ، ويُوَزِّعونَ البُطولاتِ والانْتِصاراتِ، حاسِبينَ زَحْلَتَهُم قَرْنَ الثَّوْرِ الذي يَرْتَكِزُ عَلَيْهِ الكَوْن.

فأيُّ زَحْليٍّ لَمْ يَكُنْ في ذَلِكَ الوَقْتِ يَعْتَبِرُ أنَّ مَدينَتَهُ الحَسْناءَ

إذا قامَتْ مِنَ الدَّرْبِ، ولَمْ تُسانِدِ العالَمَ، لكانَتِ الدُّوَلُ تَـتَساقَطُ الواحِدَةُ وَراءَ الأُخرى ولاخْتَلَّ مِيزانُ الكَوْن...

ومَعَ كُلِّ هذا ما مِنْ بَلَدٍ بالعالَمِ عاشَ وفَشَّطَ وتَوَسَّعَ بدونِ شُغْلٍ، وبدونِ اعْتِمادٍ مالِيٍّ مُسْتَقِرٍّ، مِثْلَ زَحْلة... زَحْلة، ذاك الزَّمانَ، شُبّانٌ أقْوِياءُ أصِحّاءُ صَناديدُ وبَناتٌ حِسانٌ جَميلاتٌ مِثْلُ الوُرودِ، ومَزاعِمُ وادِّعاءاتٌ وَرُؤوسٌ تُناطِحُ السَّحابَ... وعَداءٌ غَريبٌ عامٌّ للشُّغْلِ والعَمَلِ... وعِبادَةٌ مُتَعَصِّبَةٌ صَحيحَةٌ للبَطالَة...

•

ذَكَرْتُ زَحْلَةَ وأهْلَها وأنا بَيْنَ رُكّابِ «الإمبراطور» الذين كانوا يُشَكِّلونَ بِثَرَواتِهِم رُبْعَ ثَرَواتِ العالَمِ بأجْمَعِهِ، وَتَساءَلْتُ كَيْفَ يُمْكِنُ للزَّحْليِّ وهو يُطارِدُ الليرةَ والليرةُ تَهْرُب مِنْهُ أنْ يَـكونَ مُكْتَفيًا بالحَياةِ سَعيدًا بِها، يُفَضِّلُ زَحْلَتَهُ على العالَمِ بأجْمَعِهِ؟ وكَـيْفَ هَؤلاءِ المليونيريّونَ الذينَ يَمْشون، وَيَمْشي الذَّهَبُ تَحْتَ أقْدامِهِم، لا يُظْهِرونَ شَيْئًا مِنِ اكْتِفاءِ وهناءِ الزَّحْلِيّين بالحَياة؟ حتّى إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ الرُّكّابِ كانَ في أحاديثِهِ التي كُـنْتُ أسْمَعُها هُنا وهُناكَ يَشْكو وَيَتَذَمَّرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ولا يَجِدُ راحَةً في شَيْءٍ، حتّى ولا في كُلِّ هَذِهِ المَلاهي العالِيَةِ النّادِرَةِ المِثالِ التي كانَتِ الباخِرَةُ الكُبرى تُقَدِّمُها لِضُيوفِها العِظام.

وطَبْعًا، تَمَنَّيْتُ أنْ يَراني أصْدِقائي، فِتْيانُ زَحْلَةَ، بَيْنَ هَؤلاءِ العُظَماءِ مِنْ أهْلِ الكَوْنِ، أنْتَقِلُ كالغَزالِ أُسايرُ هذا وذاك يُسايرُني، وأُلاطِفُ هَذِهِ وتِلْكَ تُلاطِفُني.

وأُسايرُ وأُلاطِفُ خُصوصًا فَتاةً أميركيَّةً تَحْمِلُ فَوْقَ جَمالِها الفَتّانِ، وَفُتُوَّتِها اليانِعَةِ، نَهْدَيْها المُتَعالِيَيْنِ اللذين يَـكادانِ يَجْلِسان

بِسَفْحِ كَتِفَيْها، وَصَوْتٍ ناعِمٍ حارٍّ كالمُخْمَلِ، وقَدَمَيْنِ تَسيرانِ في مَماشي المَرْكَبِ بِخِفَّةِ الغِزْلانِ، وابْتِسامَةٍ تَدْعو للمُؤانَسَةِ، وفَمٍ يَظْهَرُ عَلَيْهِ إشْهاءٌ غَريبٌ للقُبُلاتِ وللعَضّ...إسْمُها ألِيس وايلرد، وَريثَةُ صاحِبِ لوكَنْدَةِ وايلرد الكُبْرى في شيكاغو، وصاحِبِ فُروعِ تِلْكَ اللُّوكَنْدَةِ في مُدُنِ أميركا الكبرى.

وكان المِسْتِر وايلرد مِنَ الأميركيّينَ الذين يَحْتَرِمونَ حُرِّيَّةَ بَناتِهِم الرّاشِداتِ، لِدَرَجَةِ يَتْرُكونَهُنَّ[١] يَعْمَلْنَ ما يَشَأْنَ، ووالِدَتُها، روز ماري وايلرد، كانَتْ لا تَزالُ في سِنِّ الأرْبَعينَ لا تُحِبُّ في الحَياةِ غَيْرَ الحُبِّ، وتَجِدُ في ملاحَتِها المُحِبّينَ الذين تَشْتَهي، وتَذْهَبُ في الحُرِّيَّةِ التي يُعْطيها إيّاها زَوْجُها، وفي اشْتِعالِها الجَسَدِيِّ إلى أقْصى دَرَجاتِ المُغامَراتِ والمُبالَغاتِ حتّى إنَّها، حَسْبَ ما كُنْتُ أُلاحِظُ، لا شَكَّ أنَّها اسْتَقْبَلَتْ واخْتَلَتْ أثْناءَ الثَّمانِيَةِ أيّامٍ، في الشُّقَّةِ الفاخِرَةِ التي كانَتْ تَنْزِلُ فيها بالباخِرَةِ، لا أقَلَّ مِنْ ثَمانِيَةِ رِجالٍ انْتَقَتْهُم على ذَوْقِها يَعْمَلونَ الحُبَّ مَعَها على مُعَدَّلِ عَشيقٍ واحِدٍ كُلَّ يَوْم، وَقَدْ كانَتْ بهذا المَعْنى تَمْشي على غِرارِ كليوبترا ومارغريت دي بورغونيه السَّعيدَتَيِّ الذِّكْرِ.

وجَميعُ الذين اقْتَرَبوا مِنْ أليسَ الحُلْوَةِ اللَّعوبِ الطَّروبِ، كانوا يَعْرِفونَ حالًا أنَّها ابْنَةُ ماري روز وايلرد، لِما عِنْدَ الحَسْناوَيْنِ مِنْ مَعالِمِ الشَّبَهِ، لَيْسَ في الوَجْهِ والمَلامِحِ والقَدِّ المَيّاسِ فَقَطْ، بل أيْضًا في الصَّوْتِ، والحَرَكَةِ وروحِ الشَّبَقِ التي تَنْبَثِقُ مِنْ نَظَراتِهِما ومِنْ ثَغْرَيْهِما النّارِيَّيْن.

---

(١) من الواضح أن المقصود «لدرجةِ تركهن». هنا أيْضًا، لا يخفى أثر «الترجمة الفورية».

وكان تَعارُفي مع أليس وايلرد مُبْهِجًا ومُبْتَكَرًا معًا. كُنْتُ، طَبْعًا في أوائِلِ سِنّ الصِّبا، طَويلَ القامَةِ، حَسَنَ الهِنْدامِ، أسْمَرَ اللونِ، كَثيفَ الشَّعْرِ، كَثيرَ التَّأَنُّقِ والادِّعاءِ، أعْتَبِرُ وأؤمِنُ باهْتِمامِ الحِسانِ بي، فالتي لا تُلاحِقُني، يَجِبُ أنْ تَـكونَ تَكْرَهُني. ولكِنّي على كُلِّ حالٍ كُنْتُ مِنْ أُولَئِكَ المِعْشاقينَ الذين لا تَسْتَطيعُ أيَّةُ امرأةٍ أنْ تَمُرَّ بِهِم بدونِ اكْتِراث.

كُنْتُ أسْتَلْفِتُ النَّظَرَ والاكْتِراثَ دَوْمًا.

وكان لأليس وايلرد التي انْتَقاها رُكّابُ الباخِرَةِ العِظامُ، مُنْذُ اللَّيلَةِ الأُولى في حَفْلَةِ الرَّقْصِ التي أُقيمَت، «أميرةَ الإمبراطور» ـ كانَ لها رَفيقَةُ سَفَرٍ، أو نَوْعٌ مِنَ الصَّديقَةِ المأجورَةِ، فَتاةٌ سويسرانيَّةٌ حُلْوَةٌ ولَطيفَةٌ اسْمُها جرترود بوفور لا تَـتَجاوَزُ الخامِسَةَ والعِشْرينَ مِنْ سِنِّها، اسْتَصْحَبَتْها مَعَها مِنْ جنيف كَوْنَها نَديمَتَها وسِكْرتيرتَها بأميركا.

ولما كانَتِ الطُّيُورُ، كما هي العادَةُ، على أشْكالِها تَقَعُ، فلَمْ تَكُنِ الوَصيفَةُ أَقَلَّ شَبَقًا، ونَزَعاتٍ جَسَديَّةً، وإيْناسًا، وخِفَّةً مِنْ روز ماري وابْنَتِها أليس وايلرد.

وَلكِنَّ الوَصيفَةَ كانَتْ أَقَلَّ أطْماعًا، وأسْهَلَ مَنالًا، وأقْرَبَ لِهذا الشّابِّ الذي أخَذَ يُداعِبُها مِنْ هُنا وهُناكَ بِحَرَكَةٍ أو بِغَمْزَةٍ أو بِكَلِمَةٍ، ثُمَّ يُراقِصُها مِرارًا أثْناءَ البالّو، ويُقَدِّمُ نَفْسَهُ لها، لَيْسَ طَبْعًا فتًى لُبنانيًّا مِنْ بِلادٍ كانَ في ذَلِكَ الزَّمانِ لا يَروقُ لِكثيرينَ مِنّا الانْتِسابَ لها أمامَ الأجانِبِ لِما كانَ لِكَلِمَةِ «تُرْكو» ـ ولُبنانُ كانَ مَعْدودًا مِنْ تُرْكِيا ـ مِنْ ثِقْلٍ على سَمْعِ الأميركان، ولِما كانَتْ تُوحيهِ مِنَ الاشْمِئْزازِ والاشْتِباه.

فأنا كُنْتُ، حَسْبَ ما قَدَّمْتُ نَفْسي للوَصيفَةِ ـ كُنْتُ «الكونت دي ريشليه».

وهُناكَ وَجْهُ شَبَهٍ بَيْنَ كَلِمَةِ «رِياشي» و«ريشليه» ولا شَكَّ أنَّ اسْميَ هذا أثَّرَ على الوَصيفَةِ كثيرًا وَجَعَلَها تَتَهَيَّبُ أكْثَرَ وأكْثَرَ، مِمّا أوْقَعَها في فَخِّ هذا الفَتى المِقْدامِ الظَّريفِ الأميرِ الفَتّانِ الذي كانَتْ تُفَتِّشُ عَنْهُ، وهذا كانَ، ولا شَكَّ، السَّبَبَ الأكْبَر الذي جَعَلَها، كما أدَّتْ واقِعَةُ الحالِ، لأنْ تَـتَراخى كَثيرًا معي في الرَّقْصِ وَلِتَزْدادَ الْتِصاقًا بي، وبَيْنَ دَوْرَةٍ ودَوْرَةٍ، وبَيْنَما كُنّا نَتَواعَدُ على اللقاءِ في أواخِرِ اللَّيلِ في أحَدِ مُنْعَطَفاتِ الباخِرَةِ الجَبّارَةِ، اقْتَرَبَتْ منّا أليس، وأوْقَفَتْنا، وبَيْنَما أنا أنْحَني احْتِرامًا وإعْجابًا أمامَها، سَأَلَتِ الصَّديقَةَ وَصيفَتَها أنْ تُقَدِّمَني لها.

وقالَتْ جرترود، هكذا كانَ اسْمُ الوَصيفَةِ، «حَضْرَتُهُ الكونت دو ريشليه». وكُنْتُ أعْرِفُ ماذا يَكونُ وَقْعُ ألْقابِ الأشْرافِ في ذَلِكَ الزَّمانِ على الأميركيّاتِ ولكِنَّني لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّ الوَقْعَ مَعَ أليس وايلرد سَيَكونُ عَظيمًا لِتِلْكَ الدَّرَجَةِ، إذْ إنَّني رأيْتُها تَحْمَرُّ وَتَفْقِدُ الكَثيرَ من جُرْأَتِها، وتَـتَسَرْبَلُ ثُمَّ تَقولُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «أنا مَسْرورَةٌ جِدًّا بهذا التَّعارُف».

فإنَّما في ذَلِكَ الوَقْتِ، وخُصوصًا في تِلْكَ السَّنَةِ، كان شِراءُ الأميركانِ لألقابِ الشَّرَفِ الأوروبيَّةِ بَلَغَ الذُّرْوَةَ، وكانَتْ تِجارَةُ الألْقابِ الكَبيرةِ رائِجَةً رَواجًا غَريبًا.

فأيَّةُ فَتاةٍ أميركيَّةٍ غنيَّةٍ، وكُنَّ كثيراتٍ جِدًّا، لَمْ تَكُنْ تَحْلُمُ بأنْ تُصْبِحَ مَركيزةً أو كونتيسَّةً أو دوقةً أو برنسس وذَلِكَ عَنْ طَريقِ الزَّواجِ بِنُبَلاءِ أوروبا حَمَلَةِ الأسْماءِ الكَبيرةِ، ولكِنَّ أرْبابَ الفَقْرِ

والحاجَةِ يُفتِّشُ كُلٌّ مِنْهُمْ عَنْ شارِيَةٍ لِلَقَبِهِ وبالمَزادِ العَلَنِيِّ تَقْرِيبًا، وَتَتَقَدَّمُ الأميركيّاتُ المِلْيونيراتُ، عاشِقاتُ الألْقابِ أكْثَر مِمّا هُنَّ عاشِقاتُ أصْحابِها، لِهَذِهِ السّوقِ، سوقِ الرَّقيقِ الأبْيَضِ إنَّما هُوَ هَذِهِ المَرَّةَ لِشِراءِ الرِّجالِ، وكانَتْ تِجارَةُ الألْقابِ قد بَلَغَتْ شَأْوًا عَظيمًا حتّى إنَّها فُتِحَتْ لها مَكاتِبُ كَثيرةٌ للسَّمْسَرَةِ في باريسَ وروما ولندن.

في تِلْكَ السَّنَةِ، كما قُلْتُ، كانَتْ مُطارَدَةُ بَناتِ الأميركان لأصْحابِ الألْقابِ قد اشْتَدَّتْ لِدَرَجَةٍ مُتَناهِيَةٍ، يَتَسابَقْنَ أيُّهُنَّ تَـتَزَوَّجُ أميرًا أو دوقًا أو كونتًا قَبْلَ الأُخْرى، ولا شَكَّ أنَّ أَلِيْس وايلرد ما كانَتْ جاءَتْ إلى أوروبا إلّا لِتُفَتِّشَ عَنْ لَقَبٍ تَشْتَريه. وَقَدْ كانَ مِنَ الظّاهِرِ أنَّها لَمْ تَكُنْ وَجَدَتْ حتّى ذَلِكَ الوَقْتِ النَّبيلَ الجَميلَ الذي يَبيعُها لَقَبَهُ المَنْشود.

لهذا يَجِبُ أنْ يَكونَ اسْمِي الذي كُنْتُ أحْمِلُهُ بِكُلِّ بَساطَةٍ وظَرافَةٍ قَدْ بَهَرَها، أوْ بالحَرِيِّ زادَ في اغْتِرارِها، إذْ، أيْضًا، كانَتْ مُصادَقَتي لِصَديقَتِها الوَصيفَةِ، وَرَقْصُها معي مِرارًا وبالطَّريقَةِ المُثيرةِ التي كانَ الشَّيْءُ يَجْري فيها أثارَتْ حشريَّتَها، فَجاءَتْ ترى ماذا يَجْري، ومَنْ هو الفَتى الذي تَـكادُ وَصيفَتُها تَقَعُ بَيْنَ أحْضانِهِ، وعِنْدَها زادَها حشريَّةً واهْتِمامًا اللَّقَبُ الطَّنّانُ الذي سَمِعَتْهُ، وظَهَرَتْ عَلَيْها دَلائِلُ الشَّوْقِ للتَّعَرُّفِ إلى صاحِبِهِ مِمّا ساعَدْتُ أنا عَلَيْهِ كثيرًا عِنْدَما وَجَدْتُ مِنْ حُسْنِ اللِّياقَةِ أنْ أدْعوها للرَّقْص.

وكانَتْ رَقْصَتُنا الأُولى بِدايَةَ تِلْكَ المُغامَرَةِ الغَراميَّةِ الهائِجَةِ الثّائِرَةِ، كما كانَ الأطلنطيك أثْناءَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ ثائِرًا هائِجًا، وَقَدْ

كُنْتُ أسْألُهُ مِرارًا، مُرَدِّدًا كَلامًا زَحْلِيًّا، كانَ مُهاجِرٌ مِنْ بلادي هَدَّدَ الأوقيانوسَ بِهِ وهو مُسافِرٌ على ظَهْرِ المَرْكَبِ قائلًا:

«تِتْمَرْجَلْ يا أطلنطيك والزَّحْلاوي راكِب فيك؟»

قُلْتُ: وكانَتْ رَقْصَتُنا بِدايَةَ قِصَّتِنا الغَراميَّةِ التي جَعَلَتِ المِلْيونيرَةَ الأميركيَّةَ الشَّقراءَ، ذاتَ المِزاجِ المُتَحَمِّسِ جِدًّا، تَحْتَكِرُ الكونتَ المُزَيَّفَ، طيلَةَ الرِّحْلَةِ فلا تُفارِقُهُ لا لَيْلًا ولا نَهارًا غَيْرَ سائِلَةٍ عَنْ وَالِدَيْها، وعَنْ جَميعِ رُكّابِ «الإمبراطور»، لا تُضَيِّعُ وَقْتَهُ سُدًى ولا يُضَيِّعُ وَقْتَها سُدًى حتّى انْتَهَيا في اللَّيْلَةِ التي سَنَصِلُ عِنْدَ صَباحِها إلى نيويورك، بالتَّواعُدِ على الزَّواجِ ـ طَبْعًا زَواجِ الكونت دو ريشليه بأَلِيْس وايلرد.

ورَفَعَتِ الخَبَرَ السَّعيدَ لِوالِدَيْها اللَّذَيْنِ يَجِبُ أنْ يكونا وَجَدا انْتِقاءَ ابْنَتِهِما حَسَنًا جِدًّا إذْ إنَّهُما اسْتَقْبلاني بالتَّرْحابِ، وأخذا يَسْألاني أشْياءَ كَثيرةً عَنْ تاريخِ أُسْرَتِنا، وإذا كُنْتُ أنْتَسِبُ للكاردينال دو ريشيليه، وَزيرِ لويس الثّالِثَ عَشَرَ، السِّياسِيِّ الفَرَنْساوِيِّ الدّاهِيَةِ، وإذا كُنْتُ أنْتَسِبُ أيْضًا للدوق دو ريشيليه، نديمِ وَوَزيرِ لويس الخامِسَ عَشَرَ، وديكِ النِّساءِ الأشْهَرِ الذي تَلاعَبَ بِخُدورِ الحِسانِ وبِمُقَدَّراتِ المَمْلَكَةِ وغامَرَ فيهِما مُغامَراتٍ كانَتْ مِنَ الأسْبابِ الأوَّلِيَّةِ لانْهيارِ عَرْشِ البوربون.

وطَبْعًا، وبدونِ تَرَدُّدٍ، أكَّدْتُ أنَّ الكاردينالَ والدّوق كانا مِنْ أجْدادي إنَّما عَنْ بُعْد.

وَتَخَيَّلَ المِسْتِر وايلرد، مَلِكُ اللّوكَنْداتِ بأميركا، والمِسِزْ وايلرد مَلِكَةُ الحِسانِ الأميركيّاتِ المَفْقوعاتِ، أيَّ اعْتِزازٍ لَهُما عِنْدَما يَصِلانِ إلى واشنطن غدًا، يُرافِقُهُما خَطيبُ ابْنَتِهِما، حَفيدُ أُولَئِكَ

العِظامِ مِنْ آلِ ريشيليه، وَقَدْ جَاءا بِهِ إلى أميركا مِثْلَمَا يَجيءُ المُرَوِّضُ بالسَّبْعِ وهو ماسِكٌ على أُذْنِه.

ولكِنْ ما كانَ، ولا في وَقْتٍ، حَبْلُ الكَذِبِ والتَّدجيلِ أقْصَرَ مِمّا كانَ في تِلْكَ المُغامَرَةِ المُدْهِشَةِ.

فثاني يَوْمِ وصولِنا إلى نيويورك، وقَبْلَ أنْ يَطْلُعَ الضَّوْءُ، وبَعْدَ أنْ كُنْتُ أوَيْتُ إلى لوكندة أستوريا العُظْمى، وكُنْتُ قد نَزَلْتُ بِها بالاسْمِ، إذْ إنَّني كُنْتُ قَضَيْتُ لَيْلَتي الأُولى لَيْسَ فيها، بل في غُرْفَةِ نَوْمِ أليس وايلرد في بَيْتِها الفَخْمِ بشارِعِ ٧٣، وهي غُرْفَةٌ يسوى[٢] فِراشُها وَحْدَهُ على الأقَلِّ نِصْفَ ثَرْوَةِ لُبنانَ...

ولَمْ أكُنْ أغْمَضْتُ عَيْنيَّ عِنْدَما طَرَقَ الخادِمُ البابَ، وأعْطاني التِّلغرافَ بِنَصِّهِ التّالي: «أوَدِّعُكَ إلى الأبد أيُّها الكونت المُزَيَّفُ الكَذّاب»؛ الإمضاء: «أليس».

وَحَزَرْتُ، ولا شَكَّ، أنَّ البِنْتَ ووالِدَها عَرَفوا كُلّ شَيْءٍ...

وكان ذَلِكَ الوَداعُ نِهايَةَ المَطاف. وما بَقِيَ لي من تِلْكَ المُغامَرَةِ المُدْهِشَةِ البَرّاقَةِ سِوى ذِكرى التِّسْعَةِ أيّامٍ التي قَضَيْتُها أنا والفَتاةُ في حُبٍّ مُتواصِلٍ ثَمانِيَةِ أيّامٍ على ظَهْرِ المَرْكَبِ: ويَوْمٍ في بَيْتِها في نيويورك...

ولكِنْ لَمْ يَنْتَهِ الشَّيءُ عِنْدَ هذا الحَدّ.

بَلْ بَعْدَ ثَلاثِ سَنَواتٍ من ذَلِكَ الوَقْتِ، ذَكَرَتْ جَرائِدُ نيويورك، وجرائِدُ أوروبا، في فَصْلِ أخْبارِ المُجْتَمَع العالي، خَبَرَ زَواجِ أليس وايلرد، ابْنَةِ مَلِكِ اللّوكَنْدات، بمُحافِظِ نيويورك الذي كانَ قَدْ

(٢) كذا في الأصل.

رَشَّحَ نَفْسَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِرئاسَةِ الجُمْهورِيَّة ـ ولو أنَّه نَجَحَ في ذَلِكَ التَّرشيحِ لكانَتْ عَلاقَتي مَعَ الوِلاياتِ الأميركيَّة الآنَ أقْوى وأمْتَنَ وأرْبَحَ مِمّا هي...

والذي أعْرِفُهُ عَنْ أليس أنَّها، مَعَ اقْتِرانِها بِرَجُلٍ مِنْ أعْظَمِ رِجالِ الأميركان، لَمْ تَجِدْ في زَواجِها هذا ما كانَتْ تَجِدُهُ مِنْ صَبْوَةٍ وبَهْجَةٍ واعْتِزازٍ لَوْ تَزَوَّجَتِ الكونت دو ريشليه المُزَيَّف!

آخِرُ أميراتِ بني غسّان

كان للدَّولَةِ العُثْمانِيَّةِ شَيْطانان: جَبَلُ الدُّروزِ واليَمَن. ومَعَ كُلِّ ما كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ سَطْوَةٍ وعَظَمَةٍ، ومَعَ أنَّ سُلْطانَها، خاقانَ البَحْرَيْنِ والبَرَّيْنِ، ومَعَ أنَّها كانَتْ، في وَقْتٍ ما، عِنْدَما تُريدُ، تَكْتَسِحُ، عِنْدَ أوَّلِ فِتْنَةٍ أو قَلاقِلَ، القُطْرَيْنِ الأسْيَوِيَّ والأوروبيَّ، وَمَعَ ذَلِكَ فهِيَ، على طولِ السِّنين ـ وحتّى على طولِ الأجْيالِ، كانَتْ، حتّى اليَوْمِ الذي انْفَصَلَتِ البُلْدانُ العَرَبيَّةُ عَنْها، تَرْجِعُ دَوْمًا مَكْسورَةً من جَبَلِ الدُّروزِ ومِنَ اليَمَن، وَقَدْ كانَتْ تُحارِبُهُما كي تُخْضِعَهُما، تَقْريبًا كُلَّ عَشْرِ سِنينَ مَرَّةً. ولَمْ يَكُنْ مِثْلَها صاحِبَةُ حيلةٍ تَعْرِفُ سُبُلَ التَّخَلُّصِ مِنْ أكْبَرِ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنْ خُصومِها، خُصوصًا طُلّابَ الانْفِصالِ عَنْها، مِنَ الأرْمَنِ والعَرَبِ بِوَجْهٍ خاصّ، وكانَتْ تُتْقِنُ بِبَراعَةٍ تِلْكَ السُّبُل.

وأمّا الأرْمَنُ فكانَتْ تَذْبَحُهُم رَأسًا دونَ سؤالٍ ولا جَواب، ولكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَسْتَطيعُ التَّخَلُّصَ مِنَ العَرَبِ بالذَّبْحِ بالطَّريقَةِ المُباشِرَةِ التي كانَتْ تَسْتَعْمِلُها مَعَ الأرْمَنِ، بل كانَتْ تَفْعَلُ الشَّيْءَ، طالما النِّهايَةُ واحِدَةٌ، بِطَريقَةٍ غَيْرِ مُباشِرَةٍ: كانَتْ تُجَنِّدُهُم مَعَ باقي الجُنودِ التي عِنْدَها، ولكِنْ كانَتْ تَصُفُّهُم في المُقَدِّمَةِ وتُرْسِلُهُم إلى اليَمَنِ وإلى جَبَلِ الدُّروزِ يُحارِبونَ، وقَليلًا ما كان يَرْجِعُ مِنْهُم مُخَبِّرٌ، مَعَ أنَّ العَيْنَ لا تَرْتَفِعُ فَوْقَ الحاجِب...

ولَيْسَتِ اليَمَنُ مَعَ جِبالِها ومغاوِرِها وقَحْطِها هِيَ التي كانَ يَسْتَحيلُ على الأتْراكِ تَذْليلُها وإخْضاعُها، ومَعَ ذَلِكَ، لم يَكونُوا يَفْعَلونَ، وكانَ يُخَيَّلُ لنا أنَّ الدَّوْلَةَ تُريدُ مَعَ جَبَلِ الدُّروزِ واليَمَنِ مَعْرَكَةً مُتَتابِعَةً، تُرْسِلُ لَهُما الفِرَقَ العَسْكَرِيَّةَ العَرَبِيَّةَ، وأخَصَّها السُّورِيَّةَ والسّاحِلِيَّةَ مِنْ طرابلس لِبَيْروتَ وعريشِ مِصْرَ، تَـتَكَسَّرُ وتَـتَحَطَّمُ على صُخورِ جِبالِ حَوْرانَ السَّوْداءِ وجبالِ اليَمَنِ البُرْكانِيَّة.

وكانَتْ في كُلِّ مَرَّةٍ تُجَنِّدُ الدَّوْلَةُ العَساكِرَ مِنْ بلادِنا العَرَبِيَّةِ، تَقومُ عِنْدَ أهْلِ المُجَنَّدينَ مَناحَةٌ كُبرى، اعْتِبارًا أنَّ العَسْكَرِيَّ العَرَبيَّ يَذْهَبُ ولَنْ يَعود.

وكان يُمْكِنُ هكذا، حَسْبَ الإحصاءِ الذي كُنّا نَقومُ به، التّأكيدُ أنَّ عَساكِرَ الدَّوْلَةِ مِنَ العَرَبِ المُرْسَلينَ لليَمَنِ ولجَبَلِ الدُّروزِ كانَ مَحْكومًا عَلَيْهِم سَلَفًا بالمَوْت.

وكانَتِ اليَمَنُ دَوْمًا عاصِيَةً، وكانَتِ الدَّوْلَةُ لا تَعْمَلُ الكَثيرَ لاكْتِساحِها وإطاعَتِها، اعْتِبارًا أنَّها جِبالٌ جَرْداءُ لا نَفْعَ للسَّلْطَنَةِ فيها، ولا تحرز أنْ تُضَحّيَ بِغَيْرِ المُجَنَّدينَ العَرَبِ في مُحارَبَتِها، ولكِنَّ الدَّوْلَةَ بالعَكْسِ، كانَتْ تُجَنِّدُ قُوًى تُرْكِيَّةَ الأصْلِ أيْضًا مع القُوى العَرَبِيَّةِ الأصْلِ عِنْدَ قِيامِ الثَّوراتِ في جَبَلِ الدُّروزِ، التي كانَتْ تَتَتابَعُ على مُعَدَّلِ كُلِّ ٢٥ سَنَةً ثَوْرَةٌ جَديدةٌ، على أنْ تَضَعَ الدَّوْلَةُ العَساكِرَ العَرَبَ في خَطِّ النّار ـ في المُقَدِّمَة.

وكانَت الدَّوْلَةُ تَـتَراجَعُ دَوْمًا مِنْ غَزَواتِها على جَبَلِ الدُّروزِ لِما كانَ عِنْدَ هؤلاءِ مِنْ شَجاعَةٍ غَريبَةٍ، ولِما تُوَفِّرُهُ بِلادُهُمُ الصَّخْرِيَّةُ السَّوْداءُ مِنْ قِلاعٍ طَبيعيَّةٍ يَتَحَصَّنونَ وَراءَها، ومِمّا يُصْبِحُ مِنَ العَسيرِ جِدًّا القَضاءُ عَلَيْهِم.

وظَلَّتِ الحالُ على طولِ الأيّامِ هكذا، حتّى كانَتْ حَمْلَةُ سامي الفاروقي الكُبرى، قَبْلَ الحَرْبِ العامَّةِ بِقَليل.

ثارَ الدُّروزُ مِنْ جَديدٍ، وأرْسَلَتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ سامي الفاروقي مَعَ جُنودِه. وكان سامي الفاروقي عَرَبيَّ الأصْلِ مِنْ بَغْدادَ، ومع ذَلِكَ كانَ مِنْ أكْبَر قُوّادِ الدَّوْلَةِ، وأشَدِّهِم إخْلاصًا لها، وهاجَمَ جَبَلَ الدُّروزِ العساكِرُ التُّرْكُ والعَرَبُ، الكَتِفَ على الكَتِفِ، وانْتَهَتِ المَعْرَكَةُ بِسُرْعَةٍ غَيْرِ مُنْتَظَرَةٍ واكْتَسَحَ عَسْكَرُ الدَّوْلَةِ للمَرَّةِ الأُولى الجَبَلَ بأجْمَعِهِ واحْتَلَّه.

وأمَرَ الفاروقيُّ بإشادَةِ قِلاعٍ عَسْكرِيَّةٍ كبرى في طولِ وعَرْضِ بِلادِ حَوْرانَ وجَبَلِها، تُؤَلِّفُ شَبَكَةً عَسْكَرِيَّةً تَتَحَكَّمُ نِهائيًّا بِبلادِ حَوْرانَ وجَبَلِها فلا تَسْتَطيعُ بَعْدَ ذَلِكَ القِيامَ بِثَوْراتٍ جَديدةٍ مُطْلَقًا.

وكانَ لي عمٌّ مُهَنْدِسٌ مَعْروفٌ، كَلَّفَتْهُ السُّلُطاتُ العَسْكَرِيَّةُ المُحْتَلَّةُ بِتَشْييدِ بَعْضِ تِلْكَ القِلاعِ، ومِنْها قَلْعَةُ قَرْيَةِ إزْرِع، المَدينَةِ التّاريخيَّةِ القائِمَةِ في طَرَفِ السُّهولِ على سَفْحِ اللَّجاة، المَعْروفِ بِمَلْجَأِ الدُّروزِ الثّائرينَ الدّائِمِ والذي لم يَسْتَطِعْ جَميعُ قُوّادِ الأتْراكِ، وعلى مَمَرِّ الأزْمانِ، غَيْرَ الفاروقيِّ، الدُّخولَ إلَيْهِ واكْتِساحَه.

واللَّجاةُ، بَعْدَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولى أيْضًا، في سَنَةِ ١٩٢٥، هو الذي دَحَرَ القُوّاتِ الفَرَنْسيَّةَ الانْتِدابِيَّةَ، ذَلِكَ الانْدِحارَ المُخيفَ عِنْدَما ذَهَبَتْ تُطَوِّعُ جَبَلَ الدُّروزِ في ثَوْرَتِهِ على الفَرَنْسيّينَ عَقيبَ انْفِصالِ البِلادِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ واحْتلالِ فَرَنْسا لِسوريا ولبنان.

وطلع نصيبي قَلْعَةُ إزْرِع، حَيْثُ دَعاني عَمّي، مَعَ صِغَرِ سِنّي يَوْمَئِذٍ، وَلِكنَّ العُمْرَ الصَّغيرَ لَيْسَ شَيْئًا أمامَ النُّفوسِ الكَبيرةِ ـ

دَعاني لِمُرافَقَتِهِ بِصِفَةِ مُبْتَدِئٍ في الشغل، إذْ كانَ يُريدُ منّي أنْ أتَعَلَّمَ الهَنْدسَةَ أيْضًا، وأكونَ مُلْتَزِمًا، أُشَيِّدُ البِناياتِ والمَنازِل.
ولكنَّ الفَرْقَ بَعيدٌ والبَوْنَ شاسِعٌ بَيْنَ ما كانَ يُريدُهُ لي وما كُنْتُ أنا أُريدُه لِنَفْسي.
لَقَدْ كُنْتُ أُريدُ لِنَفْسي مُنْذُ بَدَأْتُ أُمَيِّزُ الأشْياءَ والأمورَ، ومُنْذُ دَخَلْتُ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أكْبَرَ عَقْلًا وتَفْكيرًا مِنْ عُمْري بِكَثيرٍ ـ كُنْتُ أُريدُ لِنَفْسي أنْ أعيشَ في فِرْدَوْسٍ دائِمٍ للغَرامِ ومُغامَراتِهِ، وللرِّواياتِ ومُدْهِشاتِها، وللخَيالاتِ البَعيدَةِ المُلَوَّنَةِ البَرَّاقَةِ وتَأْثيراتِها.
وهكذا عِنْدَما وَصَلْتُ إلى إزْرِع، حالًا وسَريعًا، وقَبْلَ أنْ أتَفَحَّصَ البَيْتَ الذي نَزَلْتُ فيهِ، ويَقَعُ نِصْفُهُ تَحْتَ الأرْضِ والنِّصْفُ الآخَرُ فَوْقَها، كما هِيَ باقي البُيُوتِ في تِلْكَ الدَّسْكَرَة، وَقَدْ كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَنْزِلَ القادِمُ بِضْعَ دَرَجاتٍ تَحْتَ الأرْضِ كَيْما يَصِلُ للبابِ ويَدْخُلَه...
وكانَ ذاك البَيْتُ الصَّغيرُ الحَقيرُ، لَيْسَ فَقَطْ أفْضَلَ بَيْتٍ في القَرْيَةِ، بَلْ كانَ، خُصوصًا، صاحِبَ الأسطورَةِ التّاريخيَّةِ التي تَقولُ إنَّهُ كانَ، في قَديمِ الزَّمانِ، وَقَبْلَ أنِ انْدَثَرَ بنو غسّان وَتَفَرَّقوا في مَشارِقِ بُلدانِ العَرَبِ ومغارِبِها، كانَ ذاكَ البَيْتُ قَصْرَ أُمَرائِهِم وَمُلوكِهِم، وكانَتْ إزْرِع، المُتَهَدِّمَةُ الزَّرِيَّةُ الحَقيرةُ اليَوْمَ، عاصِمَةَ الغَسّانِيّين ومَقَرَّ أمْجادِهِم وعَظَائِمِهم...
لَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْهُم ومن تِلْكَ الأمْجادِ والعَظائِمِ في ذَلِكَ الحينِ غَيْرُ هذا البَيْتِ المُتَهَدِّمِ وَقَدْ نَسَجَ النّاسُ حَوْلَه حكاياتٍ وأساطيرَ لا أوَّلَ لها ولا آخِر، وكانَ لَمْ يَبْقَ يُحافِظُ على شَيْءٍ مِنْ معالِمِ

الماضي ومفاخِرِه غَيْرُ ما كانَ قَدْ بَقِيَ على بابِهِ مِنْ زَخارِفَ ورُسومٍ مَنْقوشَةٍ على أحْجارِهِ السَّوداء، ومِنْها رَسْمٌ فِطْرِيٌّ، لَيْسَ فيه شَيْءٌ مِنَ الفَنِّ، للسَّيِّدَةِ العذراءِ تَحْمِلُ الطِّفْل.

ولكِنْ إذا كانَ مِنْ قَصْرِ الأُمراءِ الغَسّانيّينَ لم يَبْقَ غَيْرُ ذاك البابِ وَزَخارِفِهِ وأساطيرِهِ، كانَ قَدْ بَقِيَ مَعَهُ، أصحابُهُ أحْفادُ أحْفادِ أُولَئِكَ الأمراءِ والذين يُثْبِتونَ أنَّ العُروبَةَ يُمْكِنُها أنْ تَـكونَ أيْضًا عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمينَ ولَيْسَت وَقْفًا عَلَيْهِم، وأنَّ الغَسانيّينَ، وَقَدْ كانوا نصارى، قَبْلَ ظُهورِ النَّبِيِّ، كانوا يَفْخَرونَ بِعروبَتِهِم، ويَتَحَدَّرونَ مِنْ عِرْقِها، قَدْرَ ما كانَ أُمراءُ مَكَّةَ وبنو قُرَيْش، عَرَبًا ومِنْ عِرْقِ العُروبَة.

وكان أصْحابُ البَيْتِ الحَجَرِيِّ المُتَهَدِّمِ الوَضيع الغارِقِ بِنِصْفِهِ تَحْتَ الأرْضِ يَقولُونَ، ويُؤَكِّدونَ مَعَ أهْلِ القَرْيَةِ، إنَّهُم هُمُ الأُمراءُ الباقون مِنْ أُمراءِ بني غَسّانَ ـ كانوا يَقولُونَ ذَلِكَ ولا يَظْهَرُ عَلَيْهِم شَيْءٌ مِنَ الإمارَةِ التي يَدَّعونَها، لَيْسَ فَقَطْ بالسَّعَةِ والفُروسِيَّةِ والعَظَمَةِ، بل أيْضًا بالأخْلاقِ والهَيْئاتِ وبِسِحْنَتِهِمِ القَرَوِيَّةِ الثَّقيلَةِ، مِمّا كانَ يَظْهَرُ على مَلامِحِهِم، ولا يُفَرِّقُهُم بشَيْءٍ عَنْ باقي الفلّاحينَ الغِلاظِ في قُرى حَوْرانَ، اللَّهُمَّ ما عدا الفَتاةَ ميريام، أو بالحَرِيِّ الأميرةَ ميريام، ابْنَةَ صاحِبِ البَيْتِ، الصَّبِيَّةَ العالِيَةَ الرّأسِ تَـتَدَلّى مِنْهُ ذوائِبُ سَوْداءُ لَمّاعَةٌ يُخَيَّلُ إلَيْكَ أنَّها تَدْفَعُ بِوَجْهِكَ شَراراتٍ مِنَ النّار.

كانَتْ ميريامُ فَقيرَةً مِثْلَ كُلِّ بَناتِ القَرْيَةِ، وكانَتْ تَرْتَدي ذاتَ الجلّابِيَّةِ الوَسيعَةِ التي تَرْتَدي مِثْلَها باقي بَناتِ القَرْيَةِ والتي تُشْبِهُ كيسًا فَضْفاضًا لَهُ كُمّانِ وفَتْحَةٌ [وفُتْحَةٌ. يجوزُ الفتحُ والضمّ.

د.ج] صَغيرةٌ عِنْدَ العُنُقِ، وهو ثَوْبٌ مِنْ خصائِصِهِ أنْ لا يَجْعَلَ مُدَوَّراتِ المَرْأةِ التي تَلْبِسُهُ تَظْهَرُ وتُثيرُ اشْتِهاءَ الرِّجالِ، ولَيْسَ فيهِ مِنْ دواعي النِّداءِ الجِنْسيِّ غَيْرُ جَعْلِ الصَّدْرِ النّاهِدِ يَظْهَرُ أكْثَر بُروزًا وارتِفاعًا.

وكُنْتُ أراها عِنْدَما تَذْهَبُ إلى عَيْنِ الماءِ وتأتي مِنْها، تَمْشي بَيْنَ أتْرابِها مُعْتَزّةً مُتَفاخِرَةً، يَنْسابُ جَسَدُها الجَميلُ المَنْثورُ انْسِيابَ الأفْعى بَيْنَ الأزْهارِ، وهُنَّ يَتْرُكْنَها تَسيرُ أمامَهُنَّ، عَنْ فِطْرَةٍ، اعْتِبارًا أنَّها الكَبيرةُ بَيْنَهُنَّ واعْترافًا بِمَنْزِلَتِها.

ومُنْذُ السّاعَةِ الأُولى التي شاهَدْتُ فيها الأميرةَ الغَسّانيَّةَ أخَذْتُ أحوكُ حَوْلَها حَلْقَةً مِنَ الرِّواياتِ الجَميلةِ الشِّعْرِيَّةِ مُتَخَيِّلًا إيّاها مُزْدَانَةً بِجَميعِ ما كانَ للأميراتِ الغَسّانِيّاتِ أيّامَ مَجْدِهِنَّ مِنْ مَزايا وجَمالاتٍ ومَحاسِن.

وكانَتْ تَعْرِفُ أُسطورَتَها كأميرةٍ غَسّانيَّةٍ: كانَتْ جَميلةً حُلْوَةً ذاتَ عَيْنَيْنِ سَوْداوَيْنِ أكْثَرَ مِنَ الفَحْمِ تَنِمّانِ عَنِ اشْتِعالٍ جَسَديٍّ غَريبٍ، ويَكادُ النّاظِرُ إلَيْها، حارَّةً مُلْتَوِيَةً عَطْشى، يَتَخَيَّلُ أنَّها دَوْمًا في نَشْوَةٍ كامِلَةٍ مِنْ بَهَجاتِ الوِصال.

وعِنْدَما كُنْتُ أذْهَبُ إلى عَيْنِ الماءِ، وأجْلِسُ في ظِلالِ رَوْضَتِها، وأشاهِدُ الفَتاةَ تَـنْحَني بِجَسَدِها تَمْلأُ جَرَّتَها، كُنْتُ أذْكُرُ يَسوعَ الجَميلَ يَجْلِسُ على بِئْرِ يَعْقوبَ وتأتي السّامِرِيَّةُ السَّمْراءُ والرَّشيقَةُ والهَيْفاءُ، كَهذِهِ الأميرةِ الغَسّانِيَّة، وتُنْشِدُ لَهُ صَلاتَها وتَقولُ:

«اِنْتَظَرْتُكَ يا حَبيبُ مُنْذُ طُلوعِ الفَجْرِ وَلَمْ أرَكْ
فَتَّشْتُ عَنْكَ بَيْنَ الحَدائِقِ والرَّياحينِ وَلَمْ أجِدْك
والآنَ أنا أمامَكَ وَقَدْ لَقِيتُكَ

والغَسَقُ لم يَكْتَمِلْ وعَيْناي تَسْتَطيعانِ أنْ تُشاهِدانِك
فَتَمْتَلِئانِ مِنْ صورَتِك المَعْبودَة
والنّورُ بأجْمَعِهِ عِنْدَ رُؤياك يَدْخُلُ إلى قَلْبي
وأرى في عَيْنَيْكَ المُدْهِشَتَيْنِ الفاتِنَتَيْنِ جَميعَ السَّماوات».[1]

وأنا أشُكُّ أنْ تَكونَ ميريامُ تَعْرِف شَيْئًا مِنْ أُنْشودَةِ السّامِرِيَّةِ لِيَسُوعَ على بِئْرِ يَعْقوب.

ولكِنَّ مِيريامَ لَمْ تَكُن تَبْخَلُ عَلَيَّ ـ وهي تَعْرِف أنَّني ما كُنْتُ أجيءُ إلى الدَّوْحَةِ إلّا لأُشاهِدَها وأتَمَتَّعَ بِرُؤْياها ـ بِنَظَراتٍ فيها ما كانَ عِنْدَ السّامِرِيَّةِ من حُبٍّ وتَـتَيُّمٍ، مُظْهِرَةً تَعَلُّقًا فِطْرِيًّا حارًّا بِهذا الفتى الغَريب، الرَّشيقِ القِوام، الصَّبوحِ الوَجْهِ الذي جاءَ إلى إزْرِع يُشيدُ قِلاعًا للسُّلْطانِ، وَقَدْ أخَذَ مُنْذُ السّاعَةِ الأُولى يَقْضي

(١) بَعْدَ «سَنَواتٍ طِوالٍ» على رَحيلِ إسكندر رِياشي، صَدَرَتْ، على نَفَقَةِ نَقيبِ الصِّحافَةِ زهير عسيران (١٩١٤ ـ ٢٠١٠)، طَبْعَةٌ ثانِيَةٌ مِنَ التَّرْجَمَةِ التي وَضَعَها الرِّياشي لـ «إنجيل» إدمون روستان: **السّامريَّة ويسوع**. قَدَّمَ لِهَذِهِ الطَّبْعَةِ كُلٌّ مِنَ المُتَبَرِّعِ بإصْدارِها ومارك إسكندر رياشي الذي امْتَهَنَ الصِّحافَةَ كوالِدِه. وبِما أنَّ هَذِهِ الطَّبْعَةَ الثّانِيَةَ لا تَحْمِلُ تاريخًا، فَجُلُّ ما يُمْكِنُ تأْكيدُهُ هو أنَّ صُدورَها كانَ قَبْلَ ١٩٧٣ ـ السَّنَةِ التي وافى فيها الأجَلُ مارك ـ وبَعْدَ سَنَواتٍ على وَفاةِ إسكندر (١٩٦١) بِقَرينَةِ ما يَرِدُ في مُقَدِّمَةِ عسيران مِنْ إشارَةٍ إلى «سَنواتٍ طوال» بَيْنَ رَحيلِ صاحِبِ الأثَرِ وتَجْديدِ نَشْرِه. لَمْ يَتَسَنَّ لنا الوقوفُ على الطَّبْعَةِ الأولى مِنْ تَرْجَمَةِ **السّامريَّة ويسوع** ولكِنَّ مُعارَضَةَ الفِقْرَةِ التي يَسْتَشْهِدُ بِها الرِّياشيُّ هُنا بالصِّيغَةِ التي تَرِدُ بِها هَذِهِ الفِقْرَةُ نَفْسُها في الطَّبْعَةِ الثّانِيَةِ تَدعو إلى الشَّكِّ في مُطابَقَةِ الطَّبْعَةِ الثّانِيَةِ الطَّبْعَةَ الأولى، وإلى التَّوَجُّسِ مِنْ أنْ تَكونَ يَدُ «تَهذيبٍ» ما قَدِ امْتَدَّتْ إلَيْها.
في ما يلي، الفِقْرَةُ المُسْتَشْهَدُ بِها هُنا كما تَرِدُ في الطَّبْعَةِ الثّانِيَةِ:
«انْتَظَرْتُكَ يا حَبيبُ مُنْذُ طُلوعِ الفَجْرِ وَلَمْ أرَكْ
فَتَّشْتُ عَنْكَ بَيْنَ الحَدائِقِ والرَّياحينِ وَلَمْ أجِدْك
والآنَ أنا أمامَكَ وَقَدْ لَقِيتُكَ
والغَسَقُ لم يَكْتَمِلْ وعَيْنايَ تَسْتَطيعانِ أنْ تُشاهِدانِك
فَتَمْتَلِئانِ مِنْ صورَتِك المَعْبودَة
والنّورُ بأجْمَعِهِ عِنْدَ رُؤياكَ يَدْخُلُ إلى قَلْبي
وأرى في عَيْنَيْكَ المُدْهِشَتَيْنِ الفاتِنَتَيْنِ جَميعَ السَّماوات».

كُلَّ وَقْتِهِ في اللَّحاقِ بِها أيْنَما ذَهَبَتْ وأيْنَما جاءَتْ، ويُسْمِعُها مِنْ هُنا ومِنْ هُناكَ كَلِماتٍ ظَريفَةً لَطيفَةً مُحِبَّةً لَمْ تَـكُن مُعتادَةً أنْ تَسْمَعَها، ولَمْ يَكُنْ فِتيانُ قَرْيَتِها يَعْرِفونَ شَيْئًا مِنْها.

وفي ذَلِكَ العُمْرِ لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّ هذا الشَّوْقَ وهذا الاشْتِهاءَ اللذين كُنْتُ أشْعُرُ بِهِما نَحْوَ الصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ هُوَ الحُبُّ وَقَدْ وَجَدْتُهُ وكُنْتُ أُفَتِّشُ مُنْذُ الحَداثَةِ عَنْه.

فهل كُنْتُ بالحَقيقَةِ مُغْرَمًا بالأميرةِ العَرَبيَّةِ ذاتِ العَيْنَيْنِ الواسِعَتَيْنِ المُظْلِمَتَيْن، أم إنَّني كُنْتُ مأخوذًا بأصْلِها المُلوكيِّ ونَبالَةِ حَرَكاتِها وشُموخِ أنْفِها، وهو شُموخٌ كانَ يأتي طَبيعِيًّا، كأنَّها كانَتْ دَوْمًا تَذْكُرُ أنَّها في حَسَبِها ونَسَبِها تَعْتَلي فَوْقَ جَميعِ بَناتِ بَلَدِها، وكُنْتُ أشْعُرُ أنَّها لَنْ تُجافيَني ولَنْ تَرُدَّني إذا حاوَلْتُ احْتِضانَها، ولكِنَّني مَعَ ذَلِكَ، ما كُنْتُ أجْسُرُ على الاقْتِرابِ مِنْها، حتّى ولا على أخْذِ يدها.

وكانَتْ أُسطورةُ إمارَتِها قَدْ سَحَرَتْني لِدَرَجَةٍ كبيرةٍ، وأخَذْتُ أشْعُرُ أنَّني، بالأحْرى، مُسْتَعْبَدٌ لَها أكْثَر مِمّا أنا عابِدٌ لها.

ومِنْ وَراءِ مُلاطَفَتِها لي، ونَظَراتِها الشَّهِيَّةِ التي كانَتْ تَرْمُقُني بِها، وكُنْتُ أُجيبُ باحْمِرارِ الأطْفالِ، فأَظْهَرُ أمامَها بِهَيْئَةٍ زَرِيَّةٍ صِبْيانِيَّةٍ خَجولَةٍ، وكانَتْ مِنْ جانبٍ آخَرَ، في كُلِّ شَيْءٍ تَعْمَلُهُ أو تَقولُهُ، تَزْدادُ أمامي حَيْرَتي وأفْقِدُ تَوازني.

ومع أنَّني كُنْتُ أشعرُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ فيها يَجْتَذِبُني ويُوقِظُ فِيَّ أمْيالًا جُنونِيَّةً، مِنْ نَظَراتِها المُشْتَعِلَةِ، لِصَدْرِها العامِرِ القافِزِ، لِخَصْرِها المُلْتَوي، لِردْفَيْها المُتلاعِبَيْنِ، لِبَطْنِها الضّامِرِ، لِحَرَكاتِها الشَّهِيَّةِ ـ مَعَ كُلِّ هذا لَمْ أجِدِ الشَّجاعَةَ الكافيَةَ لآخُذَها بَيْنَ

ذِراعَيَّ، وأحْتَضِنَها ذَلِكَ الاحْتِضانَ الذي كُنْتُ ما زِلْتُ، مُنْذُ عَرَفْتُها، أحْلُمُ بِهِ في كُلِّ دقيقةٍ لَيْلًا نَهارًا.

•

وانْتَهَتْ حِكايَتي مَعَ الأميرةِ الغَسّانِيَّةِ نِهايَةً هَزيلَةً مُؤْسِفَةً جِدًّا، فإنَّما شُبّانُ القَرْيَةِ، وبأجْمَعِهِم، مَفْتونونَ مُتَيَّمونَ بها، وبأجْمَعِهِم يَغُرُّهُم حَسَبُها وأصْلُها المُلُوكِيُّ، فَيَحْتَرِمونَها ولا يَجْسُرونَ على التَّقَرُّبِ إلَيْها، فإنَّما هَؤلاءِ أغْضَبَهُم هذا الفتى الغَريبُ الذي جاءَ مِنْ بلادٍ بَعيدَةٍ يَحْتَكِرُ الْتِفاتَها واهْتِمامَها، يَجِدونَهُ دَوْمًا بالقُرْبِ مِنْها، وَيَجِدونَها دَوْمًا بالقُرْبِ مِنْهُ، فثاروا وَذَهَبوا لِلْحِصْنِ الذي كُنا نُشَيِّدُهُ ودَمَّروا كُلَّ شَيْءٍ فيه، واشْتَدَّ صَخَبُهُم لِدَرَجَةٍ جَعَلَتْنا نَخْشى جانِبَهُم ونَتْرُكُ البَلْدَةَ بِطَريقَةٍ خائِفَةٍ مُخْجِلةٍ هَرَبًا مِنْهُم، إنَّما بَعْدَ أنْ وَدَّعْتُ الأميرةَ الغَسّانِيَّةَ بِنَظْرةٍ حَزينةٍ كَئيبةٍ جِدًّا، وتَرَكْتُها تَشْكو، ولا شَكَّ، مِنْ جَبانَةِ هذا العاشِقِ الخائِفِ، ولكِنْ تَتَنَهَّدُ أيْضًا، وَراءَ ذاك الفتى الغَريبِ الذي اسْتَطاعَ أنْ يَكْتَسِبَ قَلْبَها المُلوكيَّ وَقَدْ هَرَبَ مِنَ القَرْيَةِ كما يَهْرُبُ السّارِقُ مِنْ أمامِ الجَنْدُرمة.

•

وبَعْدَ عَشْرِ سَنَواتٍ من ذَلِكَ...

في مَساءِ ذاتِ لَيْلَةٍ، في فُنْدُقِ يالاس بِدِمَشْقَ، عَرَفْتُ في فَتاةٍ رَشيقَةِ القَوامِ، رافِعَةِ الرَّأسِ، شامِخَةِ الأنْفِ، الأميرةَ الغَسّانِيَّةَ تُرافِقُها أُمُّها وفتًى جَميلُ الطَّلْعَةِ يَمْشي بالقُرْبِ مِنْها وعَيْناها عالِقَتانِ فيه وكانَتْ قَدِ اقْتَرَنَتْ به مُنْذُ أُسبوعٍ فَقَطْ وجاءَتْ إلى دِمَشْقَ في رِحْلَةِ شَهْرِ العَسَل.

وَتَرَصَّدْتُ لِلْحَسْناءِ، حتّى اليَوْمِ الثّاني عِنْدَما ذَهَبَ زَوْجُها، أحَدُ الوارثينَ الدِّمَشْقِيّين الكبارِ، خارِجَ الفُنْدُقِ، وكانَتْ أخَذَتْ تَـتَحَيَّنُ الفُرَصَ حتّى اسْتَطاعَتْ أنْ تَقْتَرِبَ مِنّي حَيْثُ كُنْتُ أنْتَظِرُها في رُواقِ [رِواقِ. بالكسر والضم. د.ج] الغُرْفَةِ التي نَزَلَتْ فيها، وقالَتْ لي بِكُلِّ جُرْأةٍ وبِلَهْجَةٍ حَزينةٍ شَجِيَّةٍ: «في ذَلِكَ الحين، عِنْدَما هَجَرْتَ القَرْيَةَ، أمْضَيْتُ أيّامًا وليالٍ فَظيعَةً كثيرةً حتّى غابَتْ أخيرًا صُورَتُكَ مِنْ أمامي».

ولمّا هَمَمْتُ أنْ أقولَ شَيْئًا، خَطَتْ إلى الوَراءِ وعادَتْ إلى غُرْفَتِها...

القتيل في الحَديقَة

لَمْ يَكُنْ لي أيَّةُ عَلاقَةٍ فِعْلًا بالجَريمَة... ولكِنْ جاءَ ذِكْرُ اسْمي كَثيرًا في الأحاديثِ عَنْها، وأنا، ولا شَكَّ، آخِرُ واحِدٍ يَقْتُلُ وآخِرُ واحِدٍ يُحِبُّ الدِّماءَ، وَمَعَ ذَلِكَ كانَتْ هُناكَ جَريمَةٌ، وكانَ هُناكَ قَتيل.

كان القَتيلُ وَراءَ الخَميلَةِ في طَرَفِ الحَديقَةِ بالهَيْئَةِ الفَظيعَةِ التي كانَ فيها، وبالغُموضِ الرَّهيبِ الذي رَافَقَ مَقْتَلَه.

وكُنْتُ أوَّلَ مَنِ اسْتَدْعاهُمُ التَّحْقيقُ للاسْتِماعِ إلَيْهِ، فَقَدْ كُنْتُ صَديقَ البَيْتِ الكبيرِ الذي أُلْقِيَتِ الجُثَّةُ في حَديقَتِهِ، فكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ يُحَقِّقَ معي البوليسُ مِنْ جِهَةٍ، ثُمَّ قاضي التَّحْقيقِ مِنْ بَعْدِهِ، خُصوصًا عِنْدَما سَمِعَ البوليسُ وقاضي التَّحْقيقِ مَزاعِمَ النّاسِ مِنْ أنَّني كُنْتُ على صِلَةٍ مَعَ سِتِّ ذَلِكَ البَيْت.

كان ذَلِكَ في بَيْروتَ ـ بَيْروتَ ذَلِكَ الزَّمانِ، عِنْدَما كانَتْ قُصورُ الذَّواتِ تُشْرِفُ مِنَ الأعالي على البَلَدِ بِوَجاهَتِها ومَكارِمِها وَسَطْوَتِها، تُفاخِرُ المُلوكَ والعُظَماءَ الذين كانوا يَنْزِلونَ ضُيُوفًا عَلَيْها، والوُلاةَ الأتْراكَ الذين يَتَقَرَّبونَ مِنْها، وبِنِسائِها المُرْهَفاتِ الباذِخاتِ الجَميلاتِ العائِشاتِ في السَّعَةِ والدَّلالِ، وَحَياةِ التَّرَفِ واللَّهْوِ ولَعِبِ الوَرَقِ والهَوَى لا يَحْرِمْنَ أنْفُسهُنَّ شَيْئًا مِنْ بَهَجاتِ

هَذِهِ الحَياةِ، تُساعِدُهُنَّ اللِّيراتُ الذَّهَبِيَّةُ بالألوفِ لِلْعَيْشِ على أهوائِهِنَّ طَليقاتٍ مِنْ وَراءِ حُرِّيَّةٍ يأخُذْنَها وَراءَ انْهِماكِ رِجالِهِنَّ مِنْ جانِـبِـهِم أيْضًا بِحَياةِ اللَّهوِ والمَلَذّاتِ الدّائِمَةِ، تَسْمَحُ لَهُمْ بِها مَلايينُهُمُ الكَثيرةُ والحَياةُ الغَنِيَّةُ المُتْرَفَةُ التي تُرافِقُها.

وفي حَديقَةِ بَيْتٍ كَبيرٍ مِنْ هَذِهِ البُيُوتِ الكَبيرَةِ حَيْثُ أهْلُهُ لا يَعْرِفونَ ضَوْءَ النَّهارِ ويَتَمَشَّوْنَ على القَوْلِ القائِل: «مَنْ سَهِرَ اللَّيلَ نامَ النَّهار»...

فاللَّيلُ، كُلَّ لَيْلَةٍ، كانَ للمَيْسِرِ والكأسِ والصَّبابَةِ والرِّحْلاتِ الخَلائِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ، والنَّهارُ، للرّاحَةِ وتَجْديدِ القُوى، وانْتِظارِ اللَّيلِ الآتي...

وكانَ أهْلُ البَيْتِ الذي فيهِ الحَديقَةُ في بِدايَةِ الْتِجائِهِم للنَّوْمِ عِنْدَ السّاعَةِ السَّادِسَةِ صَباحًا تَقْريبًا عِنْدَما شاهَدَ أحَدُ الخَدَمِ الجُثَّةَ وَراءَ إحْدى الخَمائِلِ، واسْتَفْظَعَ، طَبْعًا، المَشْهَدَ غَيْرَ مُتَجاسِرٍ على الاقْتِرابِ مِنْها، وَقَدْ أسْرَعَ نَحْوَ البَيْتِ مُرْتَعِبًا خائِفًا لا يَعْرِفُ ماذا يَعْمَل!

ولا شَكَّ أنَّ جميعَ الأفْكارِ ساوَرَتْهُ ساعَتَئِذٍ ما عدا فِكْرَةَ إيقاظِ «أسيادِهِ» أهْلِ البَيْتِ مِنْ نَوْمِهِم ـ الأُمِّ الحَسْناءِ وابْنَتَيْها الصَّبِيَّتَيْنِ الفاتِنَتَيْنِ، وَشَقيقِهِما الصَّغيرِ السِّنِّ الذي لَمْ يَكُنْ جاوَزَ عُمْرُهُ الثّانِيَةَ عَشَرَةَ، والعَمِّ الكَهْلِ المُتصابي الذي كانَ مِنَ الطَّبيعيِّ أنَّهُ وَرِثَ أخاهُ وأحَبَّ أرْمَلَتَهُ الحَسْناءَ، وكانَ ولا شَكَّ إيْقاظُ أهْلِ البَيْتِ مِنْ نَوْمِهِم عِنْدَ الخادِمِ المُرْتَجِفِ شَيْئًا مُخيفًا قَدْرَ ما كانَتْ مُخيفَةً مُشاهَدَتُهُ لِلْجُثَّةِ في وَضْعِها الغَريبِ وَراءَ الخَميلَةِ في الحَديقَة.

وكانَتِ المائِدَةُ في تِلْكَ القُصورِ فاخِرَةً جِدًّا وَوَسيعَةً مِضْيافَةً

سَخِيَّةً تَتَحلّى كُلَّ مَساءٍ بِسُفْرَةٍ عامِرِيَّةٍ يَجْلِسُ حَوْلَها عَدَدٌ مِنَ الضُّيوفِ الذين كانَ لا بُدَّ مِنْ وُجودِهِم، تَبَعًا لِعَظَمَةِ تِلْكَ القُصورِ وتَقالِيدِها التي كانَتْ ولائِمُها، بِوَجْهٍ أوَّلِيٍّ، مَظْهَرًا رَئيسِيًّا لِوَجاهَتِها، وحتّى الآنَ الأمْرُ لا يَزالُ نَوْعًا هكذا، مَعَ أنَّ الأيّامَ والأزمانَ تَغَيَّرَتْ، والثَّرَواتِ والوَجاهَاتِ انْدَثَرَتْ، ولا تَزالُ عادَةُ هَذِهِ الولائِمِ قائِمَةً في تِلْكَ القُصورِ تُثيرُ دَوْمًا عِنْدَ المَدْعُوِّينَ ذِكرياتِ العِزِّ الذي مَضَى والسَّعَةِ التي أخَذَتْ تَـتَقَلَّصُ، كما أنَّها مِنْ جانِبٍ آخَرَ تُحْيي ذِكرى جَريمَةِ الحَديقَةِ الغَنّاء.

قلنا: وَكانَ آخِرُ فِكرٍ طَرَأَ على الخادِمِ فِكْرَةَ إيْقاظِ «أسْيادِهِ»، فَقَدْ كانَ يَعْرِف أنَّ إيقاظَهُم «جَريمَةٌ» تُوازي عِنْدَ هَؤلاءِ فَظاعَةَ قَتْلِ الرَّجُلِ الذي في الحَديقَةِ، وَذَكَرَ ما كانَ أصابَ أحَدَ رِفاقِهِ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَما تَجاسَرَ وأيْقَظَ سَيِّدَةَ البَيْتِ لِضَرورةٍ ما: رَمَتْهُ أوَّلًا بإبريقِ الشّاي الذي كان أمامَها فَحَطَّمَتْ جَبينَهُ، ثُمَّ أمَرَتْ باقي الخَدَمِ بِطَرْدِهِ بَعْدَ أنْ يُشْبِعوهُ ضَرْبًا.

ألَمْ يَتَلَقَّ كَغَيْرِهِ مِنَ الخَدَمِ الأوامِرَ بِعَدَم إزْعاجِ أهْلِ البَيْتِ، وتَرْكِهِم يَنامونَ حتّى وَلَوْ خَرِبَتِ الدُّنْيا ـ وإنَّ رأسَهُ يَطيرُ إذا فَعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ تَذَكَّرَ الخادِمُ كُلَّ هذا، مَعَ كُلِّ ما كانَ عَلَيْهِ مِنِ اضْطِراب... ورأى أخيرًا أنْ يَلْجَأَ إلى المَطْبَخِ يُخْبِرُ الطّاهي الذي كان نَوْعًا ما رَئيسَ الخَدَمِ بالشَّيْءِ الفَظيعِ الذي رأى، وأُسْقِطَ في يَدِ هذا، وهو بِدَوْرِهِ راحَ يَتَساءَلُ ما الذي يَجِبُ أنْ يَعْمَلَهُ دونَ أنْ يَلْجَأَ للبوليس مِمّا كانَ يَخافُ عَواقِبَهُ كثيرًا، وَقَرَّرَ أخيرًا أنْ يُفَتِّشَ عَنْ يوسف ـ عَرْبَجي السِّتّ، وسُفْرَجي البَيْت، ونَديمِ الخَواجا.

وأخَذَ الخادِمُ والعَشِّيُّ يُفَتِّشانِ عَنْ يُوسُفَ ولَمْ يَجِداهُ مَعَ أنَّهُ

كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَكونَ يُوسُفُ بالبَيْتِ في ذَلِكَ الوَقْتِ، حَسْبَ ما تَقْتَضيهِ وظائِفُهُ المُتَنَوِّعَةُ، ولكِنْ، كانَ مِنَ المُسْتَحيلِ إيجادُ يُوسُفَ، حَيًّا على الأقَلِّ، فَقَدْ كانَتِ الجُثَّةُ في الحَديقَة جُثَّةَ يوسف، وَلَمْ يَتَمَيَّزْها الخادِمُ لأوَّلِ وَهْلَةٍ عِنْدَما شاهَدَها، إذْ إنَّهُ، كما قُلْنا، لَمْ يَقْتَرِبْ مِنْها ويَتَفَحَّصْها، وثانيًا، لِما كانَ فيها مِنْ تَبْشيعٍ وتَشْويهٍ، ولأنَّها كانَتْ مَقْلوبَةً على نَفْسِها، فلَمْ يَكُنْ بإمْكانِ رَجُلٍ أصابَهُ ذاكَ الرُّعْبُ أنْ يَتَعَرَّفَ على مَلامِحِها حالًا.

ولكِنْ، عِنْدَما تَجَمَّعَ الخَدَمُ والجيرانُ أخيرًا، واقْتَرَبوا مِنَ الجُثَّةِ، عَرَفوا فيها يُوسُفَ السُّفْرَجِيَّ العَرْبَجِيَّ النَّديمَ الشّاب.

وكانَ يُوسُفُ يَحْمِلُ في فَمِهِ شِعارَ رُجولَتِه، فَقَدْ كان قاتِلُهُ قَدْ فَظَّعَ فيهِ إلى هذا الحَدّ.

وعِنْدَما سَأَلَني المُحَقِّقُ، وأنا صَديقُ البَيْتِ، ولي، حَسْبَ ظَنٍّ فيهِ، ما يُمَكِّنُني أنْ أعْرِفَ عَنْ حَقيقَةِ هَذِهِ الجَريمَةِ التي تَجاوَبَ صَداها في المَدينَةِ حالًا وسَريعًا ـ قُلْتُ لَهُ، دُونَ أنْ أكونَ اخْتَرَعْتُ البارودَ: «هَذِهِ جَريمةُ انْتِقامٍ جِنْسِيٍّ، وهي تَحْمِلُ عُنْوانَها في فَمِ قَتيلِها، وتَلْعَبُ فِيها النِّسْوانُ دَوْرًا كَبيرًا».

وطَبْعًا كانَ المُحَقِّقُ، وكانَ جَميعُ النّاسِ يَرَوْنَ هكذا أيْضًا، ولكِنَّني وَحْدي كانَ مَطْلوبًا مِنّي أنْ أقولَ كُلَّ الذي كُنْتُ أعْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ البَيْتِ لِمَعْرِفَةِ الجَميعِ أنَّني مِنْ أصْدِقائِهِ المُقَرَّبِينَ وضُيوفِهِ الدّائِمين.

ولا شَكَّ كُنْتُ أعْرِفُ أشياءَ كثيرةً، خُصوصًا كُنْتُ أعْرِفُ صاحِبَتَهُ وبِنْتَيْها مَعْرِفَةً قَريبةً جِدًّا تَحْمِلُ طَابَعًا خاصًّا على قَدْرِ الإمْكان.

ولكِنَّني لَمْ أكُنْ غَيُورًا لِدَرَجَةٍ أقْتُلُ مِنْ وَرائِها يُوسُفَ السُّفْرَجِيَّ،

الشّابَّ القَوِيَّ، الطَّويلَ القامَةِ، الحُلْوَ العَيْنَيْنِ، الشَّديدَ المِراسِ، وأُشَنِّعُ به ذَلِكَ التَّشْنِيعَ الذي اسْتَفْظَعَهُ النّاسُ وَضَحِكوا مِنْ خَبَرِهِ كَثيرًا، وكانَ قَدْ وَصَلَ خَبَرُهُ إلى أسْماعِ البَناتِ البَريئاتِ الطّاهِراتِ في خُدورِهِنَّ، فأخَذْنَ يَتَساءَلْنَ بِكُلِّ حشريَّةٍ عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الذي بِفَمِ القَتيلِ، ولِماذا قَطَعَهُ القاتِلُ مِنْ مكانِهِ الطَّبيعيِّ لِيَضَعَهُ بِمكانٍ مُسْتعارٍ غَيْرِ طَبيعيّ.

•

حاشية نَتَكَلَّمُ بهَذِهِ الصَّراحَةِ نَقْلًا عَنِ التَّحْقيقِ الذي جرى، ولأنَّ الجريمةَ دُوِّنَتْ بِهَذِهِ التفاصيلِ حَرْفِيًّا في أوْراقِ التَّحْقيقِ المَحْفوظَةِ بِمَحْكَمَةِ جناياتِ بيروت.

وثَبَتَ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ التَّحْقيقِ عَنِ الجَريمَةِ أنَّ يُوسُفَ السُّفْرَجِيَّ كان يُحاوِلُ أنْ يَكونَ في البَيْتِ أكْثَرَ مِنْ سُفْرَجِيٍّ مِمّا كان كَثيرونَ يَفْتَرِضونَهُ ولكِنَّ علاقَتَهُ مَعَ أيِّهِنَّ كانَتْ مِنَ الثَّلاثِ حِسانٍ ـ الأُمِّ والبِنْتَيْنِ؟

وَجَدَ المُحَقِّقُ عِنْدَ الفَتاتَيْنِ في غُرْفَتَيْهِما آثارًا مِنْ يُوسُفَ تَدُلُّ على مُرورِهِ مِنْ هُناكَ مُرورًا وُدِّيًّا جِدًّا، ولكِنْ لَيْسَ فيها شَيْءٌ يَدُلُّ على اشْتِراكِ الفَتاتَيْنِ، مِنْ قَريبٍ أو مِنْ بَعيدٍ، بِتَدْبيرِ قَتْلِهِ، ولكِنْ إذا كانَ وَجَدَ آثارًا لِيُوسُفَ في غُرْفَةِ الفَتاتَيْنِ فَهُوَ لَمْ يَجِدْ في غُرْفَةِ السِّتِّ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الآثار.

وَبَيْنَ الرِّجالِ الذينَ كانوا يَزورونَ ذَلِكَ البَيْتَ الكَبيرَ ويَجْلِسُونَ على مائِدَتِهِ السَّخِيَّةِ يَوْمِيًّا تَقْريبًا، ويُغازِلونَ

ويَتَصابَوْنَ مَعَ حِسانِهِ الثلاثِ، لَمْ تَتَّجِهْ ظنونُ المُحَقِّقِ إلى أحَدٍ خاصٍّ، وبَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ الجَريمَةِ أخَذَ المُحَقِّقُ يَتَراخى ولاحَظْنا أنَّهُ أخَذَ يَتَساهَلُ جِدًّا في مُلاحَقاتِهِ لِكَشْفِ الحَقيقَةِ، ولاحَظْنا أنَّهُ بَيْنَما يَتَظاهَرُ بأنَّهُ يَتَعَمَّقُ بالتَّحْقيقِ كثيرًا، كانَ فَجْأةً يَقِفُ عِنْدَما يَظْهَرُ أقَلُّ ضِياءٍ يُؤَدّي إلى الحَقيقَةِ ويَتَراجَعُ، لا سِيَّما عِنْدَما يأتي دَوْرُ التَّحقيقِ مَعَ الحِسانِ الثَّلاثِ حَيْثُ كانَ تَراجُعُهُ يَظْهَرُ مَقْصودًا وجَلِيًّا، وكانَ، مِنْ جانِبٍ آخَرَ، يَسْتَجْوِبُ العَمَّ الطَّروبَ الدَّائِمَ الاخْضِرارِ والخمْرَةِ بِكُلِّ احْتِرامٍ وتَواضُعٍ.

وسرى بالمَدينَة خَبَرُ شِراءِ المُحَقِّق...

والمالُ كثيرٌ عِنْدَ الجَماعَةِ يَسْتَطيعونَ في ذَلِكَ الزَّمانِ، بِبِضْعِ مِئاتٍ مِنَ الليراتِ العُثْمانِيَّةِ، إسْكاتَ الأُسودِ والأَنْمارِ في الغاباتِ.

ومع ذَلِكَ أصْبَحْنا بأجْمَعِنا، أنا وبَعْضِ أصْدقاءٍ وأهْلِ البَيْت، مِنَ العَمِّ لِلْحِسانِ الثَّلاثِ مُتَّهَمينَ، كُلُّ واحِدٍ لِوَحْدِهِ طَبْعًا.

ولكِنْ أيًّا مِنّا كانَ القاتِلُ؟ مُؤَكَّدًا لَيْسَ أنا الذي قَتَلْت.

حتّى الآنَ، وبَعْدَ أرْبَعينَ سَنَةً مِنْ ذَلِكَ، والنّاسُ لا يَزالونَ يَتَحَدَّثونَ عَنِ القَتيلِ الحامِلِ بِفَمِهِ مَعالِمَ رُجولَتِهِ، ولكِنَّهُم حتّى الآنَ، وبَعْدَ أرْبعينَ سَنَةً لَمْ يَعْرِفْ أحَدٌ ما هو الصَّحيحُ، ومَنْ هُوَ القاتِل...

وأنا نَفْسي، بنَوْعٍ خاصٍّ، أُقْسِمُ اليَوْمَ، أنَّني ما اسْتَطَعْتُ مَعْرِفَتَهُ مَعَ أنَّه كان مَطلوبًا مِنّي، بالأكْثَرِ، أنْ أعْرِفَه، وسأظَلُّ، حتّى النِّهايَةِ، أحْلِفُ بالباطِلِ، وبِغَيْرِ الباطِلِ، أنَّني مَعَ كُلِّ

جُهـودي وشَـيْطَنَتي، لَـمْ أَصِلْ إلـى شَـيْءٍ حقيقـيٍّ.
مَنْ هو القاتِلُ؟
هـل العَـمُّ الظَّريـفُ الـذي غـارَ علـى عَشـيقَتِهِ امـرأةِ أخيـهِ فَقَتَـلَ يوسُـفَ اعْتِبـارًا أنَّ الشّـائِعَةَ القائِلَـةَ إنَّـهُ كانَ أيْضًـا عَشـيقَ الأرْمَلَـةِ الحَسْـناء؟
هـل أحَـدُ عُشّـاقِ الفتاتَيْـنِ قَتَلَـهُ، وَقَـدْ ظَهَـرَ للمُحَقِّـقِ أنَّهُمـا يَتَسَـلَّيانِ أيْضًـا بالسُّـفْرَجِيِّ أكْثَـرَ مِـنَ الـلازم مِمّـا هـو مِـنْ تقاليـدِ بُيُـوتٍ كبيـرةٍ معروفـةٍ بالبَلَـد؟
وأنـا، فـي تِلْـكَ اللَّيْلَـةِ، عَنْـوَةً عَـنْ باقـي الليالـي، كُنْـتُ غائِبًـا عَـنْ بَيْـروتَ ـ كُنْـتُ أقضـي اللَّيْـلَ فـي الجَبَـلِ عِنْدَمـا كانَ القاتِـلُ يَقْتُـلُ ويُشَـنِّعُ بِجُثَّـةِ قَتيلِـهِ، ويأخُـذُ وَقْتَـهُ فـي إجْـراءِ تِلْـكَ العَمَلِيَّـةِ الجِراحِيَّـةِ الفَظيعَـةِ التـي أجْراهـا فـي جُثَّـةِ يُوسُـفَ السُّـفْرَجِيِّ المِسْـكين.
وإذْ إنَّنـي، مِـنْ جانِـبٍ آخَـرَ، كُنْـتُ ديـكًا فـي البَلَـد، فلَـمْ يَكُـنْ مَسْـموحًا لـي أن أغـارَ مِـنْ رَجُـلٍ واحِـدٍ وأعْمَـلَ مـا عَمِلَـهُ القاتِـلُ مَـعَ يُوسُـفَ، فـي الوَقْـتِ الـذي كانَ بإمْكانـي أنْ أطْـرُقَ، كُلَّ لَيْلَـةٍ، نوافِـذَ عَشْـرٍ وَخَمْـسَ عَشْـرَةَ حَسْـناء.
وهكـذا، لَـمْ يَكُـنْ عِنْـدِي وَقْـتٌ للغَيْـرَةِ، مَـعَ كُلِّ مـا كانَـتْ صَديقاتـي العَديـداتُ الحِسـانُ يَعْمَلْنَـهُ مِـنَ الأشْـياءِ والخِيانـاتِ الفاضِحَـةِ التـي كانَ مِـنَ الواجِـبِ أنْ تُثيـرَ غَيْرَتـي، ولكِنَّنـي كُنْـتُ دَوْمًـا أعْتَبِـرُ أنَّ الغَيْـرَةَ مِـنَ المَـرْأةِ ضُعْـفٌ عِنْـدَ الرَّجُـلِ المِعْشـاق.
وكُنْتُ دَوْمًا أعْتَبِرُ أنَّ مُشارَكَةَ رَجُلٍ، حتّى وَلَوْ كانَ سُفْرَجِيًّا مَعَ عَشيقِها، يُريحُ العَشيقَ، ويَحْمِلُ مَعَهُ شقلة ويُخَفِّفُ عَنْه...

الفَتاةُ التي كانَتْ تُريدُ أنْ تتَرَهَّب

في جَبَلِ لُبنانَ قُرًى عِنْدَما يَسْمَعُ أهْلُ المُغامَراتِ اسْمَها، في سِياقِ تَسَمُّرِهِم وتَنادُمِهم، يَبْتَسِمونَ ابْتِساماتٍ مَعْنَوِيَّةً، وَتَظْهَرُ على ملامِحِهِم دَلائِلُ الاشْتِياقِ والاسْتِحْلام.

وفي جَبَلِ لُبنانَ القَديمِ قُرًى، وَعَدَدُها قَليلٌ لِسوءِ الحَظِّ، هي، لرُبَّما، مِنْ وَراءِ مَناخِها، وعِطْرِ أشْجارِها وأريجِ زُهورِها، وطَبيعَةِ مِياهِها، تَسْتَسْهِلُ عَمَلَ الحُبِّ أكْثَرَ بِكثيرٍ مِنْ باقي القُرى... تُوقِظُ الجَسَدَ عِنْدَ أهْلِها، ولا سِيَّما عِنْدَ نِسائِها، فيُقْدِمونَ على عَمَلِهِ، مَهْما كانَ غَيْرَ شَرْعِيٍّ، ولا يَعودُ، بِنَظَرِهِم، الشَّيْءَ الفَظيعَ المُخيفَ الذي يُرْسِلُ العُشّاقَ إلى جَهَنَّم.

ولِهذا اشْتُهِرَتْ بالمَتْنِ، مثلًا، قَرْيَةٌ في رأسِ الجَبَلِ، وقَرْيَةٌ في سَفْحِهِ، يَقولُ العارِفونَ إنَّ المَرأةَ فِيهِما أقلُّ تَمَسُّكًا بِفَضيلَتِها مِنْ غَيْرِهِنَّ مِنْ نِسوانِ باقي القُرى، واشْتُهِرَتْ بِكِسْروانَ وجِزّينَ، بنَوْعٍ خاصّ، ثَلاثُ أو أرْبَعُ قُرًى لا تُفَرِّقُ المَرأةُ فيها فِراشَ زَوْجِها عَنْ فِراشِ عُشّاقِها، واشْتُهِرَتْ بالشّوفِ قُراهُ على شاطِىءِ البَحْرِ الأزْرَقِ الجَميلِ الذي مَنْظَرُهُ يُثيرُ العاطِفَةَ والأمْيالَ، وكان الصَّليبِيّونَ عَمِلوها مَقَرًّا للتَّرْفيهِ عَنْ فُرْسانِهِم، وَجَعَلوها مَحَطّاتٍ لبَهَجاتِ الغَرامِ وَلِمُغامَراتِهِ، ولا يَزالُ بَعْضُها يَحْمِلُ أسْماءَ

إفْرَنْسِيَّةً، مُحَرَّفَةً، ولكِنَّ مَعْناها لا يَخْفى على العارفِينَ، كَقَرْيَةِ الدّامورِ، وكَقَرْيَةِ جوَيّا، وَهَكذا في مِثْلِ هَذِهِ القُرى كانَتِ النِّساءُ يَقْتَرِبْنَ مِنَ الخَطيئَةِ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِنْ بَناتِ القُرى الباقِيَة، وذَلِكَ للتَّساهُلِ الذي اخْتُصَّتْ نِساؤها بِهِ، وهو تَساهُلٌ قَدْ يعودُ لأيّامِ الصَّليبِيِّينَ، لَيْسَ في السّاحِلِ فَقَطْ، بل في الأعالي وفي كُلِّ مكان، وفي جَميعِ المَحَطّاتِ التي كانوا بالأكْثَرِ يُعَسْكِرونَ فيها، وَقَدْ بَقِيَتْ آثارُها على وُجوهِ الأهالي، يَحْتَفِظونَ حتّى الآنَ بِطابَعٍ خاصٍّ، خَليطٍ مِنَ الأشْقَرِ والأسْمَرِ الفرنجي، مِمّا هو أقْرَبُ لِهيئاتِ الأوروبيّينَ مِنْها لِهَيْئاتِ اللبنانيّين الأقْحاحِ الذين لَمْ تَصِلْ إلى قُراهُم عَساكِرُ الدُّوَلِ التي اكْتَسَحَتْ على مَمَرِّ الأزْمانِ هَذِهِ البِلادَ ومَرَّتْ فيها، فَبَقُوا على سُمْرَتِهِم وطابَعِهِم اللبنانيِّ القُحِّ.

لهذا يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّ هَذِهِ القُرى تُداوِمُ على تَقاليدِها جاعِلَةً دَوْمًا الحُبَّ عِنْدَها طَقْسًا مِنَ الطُّقوسِ الطَّبيعيَّةِ تُحافِظُ عَلَيْهِ ولا تَجِدُهُ بالبَشاعَةِ التي يَحْمِلُ اسْمَها ـ مُعْتَبِرَةً أنَّ كَلِمَةَ الفِعْلِ الشَّنيعِ لا تَتَّفِقُ ولا تتآلَفُ مَعَ البَهَجاتِ التي تُرافِقُه والتي تَجْعَلُ الذين يَذوقونَها يَجدونَهُ، بالأحْرى، الفِعْلَ الجَميلَ والحَسَنَ جِدًّا. وكما كان عِنْدَ اليونانيّين القُدَماءِ جَزيرةُ «سيتير» يَذْهَبُ إلَيْها فِتيانُ اليُونانِ يَدْرُسونَ على كاهِناتِها الجَميلاتِ عِلْمَ الحُبِّ والوِصالِ ـ مِمّا اشْتُقَّتْ مِنْهُ قَوْلُكَ لأصْدِقائِكَ مُعْتَزًّا عِنْدَما تَعودُ مِنْ مَوْعِدِ غَرامٍ جَميل: «كُنْتُ في سيتير»...

وكانَ الحُبُّ عِنْدَنا في ذَلِكَ الزَّمانِ، وَقَبْلَ الدِّيانَتَيْنِ السَّماوِيَّتَيْنِ مُقدَّسًا، ومِنَ المَراسيمِ الدّينيَّةِ الأساسِيَّةِ، ولذَلِكَ أُقيمَتْ لِآلِهَتِهِ الهَياكِلُ، وأُقيمَتْ في جَزيرَةِ قبرص أيْضًا كُلِّيَّةٌ كُبرى لِعِلْمِ الوِصالِ

ـ الحُبِّ المألوفِ بَيْنَ المَرأةِ والرَّجُل، كما أُقيمَتْ في جِوارِ جَزيرَةِ سيتير، في جزيرةِ «لسبوس»، كُلِّيَّةٌ لِعِلْمِ الحُبِّ غَيْرِ المَأْلوفِ، حُبِّ المَرأةِ للمَرْأة، وكانَتْ سافو الشَّهيرَةُ كاهِنَتَهُ الكُبرى، وجَعَلَتْهُ أيْضًا مِنَ المَراسيمِ الدّينيَّةِ المُكَرَّمَة...

وعلى هَذِهِ القاعِدَةِ، كما قُلْنا أعلاهُ، وفي جَميعِ اللُّغاتِ، وكما يَقولُ الرَّجُلُ الذي يَكونُ على مَوْعِدٍ تأدُّبًا: «لَقَدْ كُنْتُ في سيتير»، كذَلِكَ، عِنْدَما يَرى أحَدٌ امرأةً مَعْروفةً بِحُبِّ النِّساءِ يُسَمّيها تَلَطُّفًا ويَقولُ: «كانَتْ هَذِهِ في لسبوس تَـتَعَبَّدُ لسافو».

ولم تَصِلِ القُرى اللبنانيَّةُ التي نَتَحَدَّثُ عَنْها، والتي يُمْكِنُ للكَثيرينَ مِنَ المُعاصِرينَ الادِّعاءُ أنَّهُم أوَّلُ مَنْ تَعَلَّموا الغَرامَ فيها ـ لَمْ تَصِلْ هَذِهِ القُرى إلى شُهْرَةِ سيتير أو سافو ولكِنَّها كانَتْ دَوْمًا، ولا تزالُ تَقْريبًا حتّى الآنَ، مَقْصِدَ فِتيانِ القُرى المُجاوِرَةِ التي يَصْعُبُ عَمَلُ الحُبِّ فيها... يَذْهَبُ هَؤلاءِ الفِتيانُ إلَيْها يَفْتَحونَ صُدورَهُم وقلوبَهُم عِنْدَ بَناتِها مُحِبّاتِ الخَيْرِ، عامِلاتِ المَعْروف...

•

وإلى قَرْيَةٍ مِنْ هَذِهِ القُرى قَصَدْتُ ذاتَ صَباحٍ مِنْ أيّامِ الرَّبيعِ، وكُنْتُ طالِعًا على العالَمِ جَديدًا، وكُنْتُ مِثْلَ جَميعِ الفِتيانِ الذين بِعُمْري، شايف الدُّنْيا كلّها نِساء.

واتَّجَهَتْ أنْظاري، بَعْدَ أنْ أخَذَتْ نارُ الشَّبابِ تُحْرِقُ جَسَدي، إلى الضَّيْعَةِ المُكَلَّلَةِ بالأشْجارِ ذاتِ الشَّذا المُسْكِر، وهو شذا حارٌّ مُحْرِقٌ قد يَكونُ، ولا شَكَّ، يَدْفَعُ، بِوَجْهٍ أوَّلِيٍّ النّاسَ إلى الحُبِّ يُبَرِّدونَ فيه غَليلَهم.

وتَوَلَّتْ تَدْريبي في القَرْيَةِ امْرَأَةٌ ذاتُ غَيْرَةٍ وإنْسانيَّة، كَثيرةُ

الفُنونِ والحِيَلِ، وراحَتْ تُقَدِّمُني وتُعَرِّفُني إلى الكاهِناتِ الصَّبِيّاتِ الحِسان، فأخَذْتُ أتَـنَقَّلُ مِنْ زَهْرَةٍ إلى زَهْرَةٍ، يُساعِدُني في ذَلِكَ لَيْسَ شبابِيَ الظَّريفَ فَقَطْ، بل أيْضًا اللّيراتِ العُثْمانِيَّةَ التي كانَتْ عائِلَتي لا تَبْخَلُ عَلَيَّ بِها كثيرًا.

وما مضى بِضْعَةُ أسابيعَ حتّى كُنْتُ دَرَسْتُ جَيِّدًا عِلْمَ الغَرامِ وكِتابَ النِّسْوانِ، وأصْبَحْتُ صاحِبَ خِبْرَةٍ ومَعْرِفَةٍ وتَفَتُّحٍ عَقْلِيٍّ للحَياةِ، ولَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ مِثْلُ الحُبِّ يُخْرِجُكَ مِنْ سَذاجَةِ الحَداثَةِ إلى نَباهَةِ الشَّبابِ، وكانَتْ كُلُّ بِنْتٍ حُلْوَةٍ بالقَرْيَةِ قَدْ سَجَّلَتِ اسْمي في جَدْوَلِ خِلّانِها الذين كانوا قَدْ تَلَقَّوْا دُروسَ الحُبِّ على يَدِها.

وَمَرَرْتُ بِهِنَّ جَميعًا على عَجَلَةٍ، ودونَ أنْ أتَوَقَّفَ أكْثَرَ من الوَقْتِ العادِيِّ الطَّبيعِيِّ الذي تَـتَطَلَّبُهُ الأمْيالُ المُسْـتَيْقِظَـةُ ـ مَرَرْتُ بالجَميعِ ما عدا واحِدَةً فَقَطْ هِيَ تِلْكَ الفَتاةُ الحالِمَةُ ذاتُ القامَةِ الهَيْفاءِ، والنَّظَراتِ العَميقَةِ، التي تَنْبَعِثُ مِنْها بالوَقْتِ الواحِدِ شُعاعاتٌ طاهِرَةٌ وفاسِقَةٌ معًا، وكانَتْ لها مَلاحَةٌ تَتَّفِقُ مع صَبْوَتِها الشَّهِيَّةِ، وكانَتْ تِلْكَ الفَتاةُ الوَحيدَةُ التي لا تَضْحَكُ، ولا تُسايِرُ، ولا تُعْطي شَيْئًا مِنْها، مَعَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في قَرْيَتِها كانَ دَوْمًا حاضِرًا جاهِزًا للحُبِّ يَدْعو لِوَلائِمِه.

ومع ذَلِكَ بَقِيَتْ تِلْكَ الفَتاةُ بَيْنَ هاتيكَ المُتَهالِكاتِ لِوَحْدِها عَذراءَ، وبِالرَّغْمِ أنَّ أُمَّها كانَتْ مِنْ أكْبَرِ راهِباتِ المَحَبَّةِ في القَرْيَةِ، وقَرْيَتُها بِجَميعِ بَناتِها خادِماتٌ عِنْدَ عَشْتَروتَ ربَّةِ الحُبِّ، وَمَعَ أنَّ جَميعَ أتْرابِها يُعْطينَ أفْسَقَ مَثَلٍ في العالَمِ، فهي ظَلَّتْ ناصِعَةً نَقِيَّةً رافِعَةَ الرَّأسِ، طاهِرَةَ الجَسَدِ، لا تَعْرِف حتّى قُبْلَةَ

واحِدَةً مِنْ قُبُلاتِ الرِّجالِ وَقَدْ رأيْتُ، وهذا ولا شَكَّ مِمّا دَعاني في ادِّعائي لأنْ آخُذَ على نَفْسي مَسْؤولِيَّةَ إيقاعِها بالشَّرَكِ، أنْ أتَحَدّاها وأمْتَلِكَها، فأخَذْتُ أُلاحِقُها، وأخَذَتْ تَصُدّ...

وكُلَّما صَدَّتِ المَرْأَةُ ازْدادَ طالِبُها، إذا كانَتْ عاطِفَتُهُ حَقيقيَّةً، شَوْقًا إلَيْها وسَعْيًا وراءَها، وطالَتِ الحالُ هكذا... هِيَ تَصُدُّ وأنا أرْكُضُ حتّى تَعِبْتُ أنا ولَمْ تَتْعَبْ هي، فَهَجَرْتُ قَرْيَةَ الحُبِّ، وما عُدْتُ رَجَعْتُ إلَيْها، كي لا يَتَلاقى نَظَري بَعْدَ ذَلِكَ بِنَظَرِها الصّامِتِ الهادِئِ العَميقِ الذي جافاني وجَرَحَ كِبْريائي.

وكانَ أهْلُ القَرْيَةِ بأجْمَعِهِم قَدْ راهنوا على أنَّني لَنْ أَصِلَ إلى شَيْءٍ عِنْدَ هَذِهِ البِنْتِ العَنيدةِ الرَّأْسِ والصَّخْرِيَّةِ القَلْبِ، وكانوا يَقولُون إنَّها غيورة على طهارَتِها لِدَرَجَةِ البُطولَةِ، وإنَّها، بالأحْرى، ستَذْهَبُ، أخيرًا، إلى الدَّيْرِ، وتَعْمَلُ راهِبَةً، وتَكونُ أوَّلَ بِنْتٍ آدَمِيَّةٍ طَلَعَتْ مِنْ تِلْكَ القَرْيَة... ومَرَّ الزَّمَنُ بَعْدَ ذَلِكَ سِراعًا، وَمَعَ أنَّ نَفْسي كانَتْ مَجْروحَةً نَسيتُ على مَرورِ الأيّامِ تِلْكَ الفَتاة.

وبَعْدَ مُرورِ أرْبَعِ سَنَواتٍ على ذَلِكَ، كُنّا أرْبَعَةَ أصْدقاءٍ في أحَدِ أنْدِيَةِ بَيْروتَ نَلْهو ونَسْكَرُ، وخَطَرَ على بالِنا، فَجْأةً، أنْ نَذْهَبَ لِزيارَةِ وراء البَنْكِ في بَيْتٍ كَبيرٍ يَحْتَفِلُ كُلَّ مَساءٍ، عِنْدَ الغُروب، بِعَرْضِهِ جَوْقَةَ بَناتٍ عارِياتٍ تَماثيلَ حَيَّةٍ تَمُرُّ أمامَكَ مُرورَ التّرامِ بِجلالٍ ورَصانة.

وكانَ ذَلِكَ البَيْتُ الكَبيرُ زاهِيًا بأجْمَلِ بَناتِ الحُبِّ، وأخَصَّهُنَّ الرّوميّاتِ والفَرَنْسيّاتِ والأوروبيّاتِ ـ وجَلَسْنا في قاعَةِ الاسْتِقْبالِ حَيْثُ كانَ قَدْ اصْطَفَّ قَبْلَنا أكْبَرُ ذواتِ بَيْروتَ مِنْ سراسِقَةٍ وبُسْترسِيَّة وغيرِهِم.

وكانَتِ القاعَةُ تَتَّصِلُ بِكُلِّ غُرَفِ راهِباتِ الحُبِّ يَخْرُجْنَ عِنْدَ ساعَةٍ مُعَيَّنَةٍ مَعْلومَةٍ مِنَ البابِ الكبيرِ ويأخُذْنَ يَتَنَقَّلْنَ أمامَنا على طريقَةِ عارِضاتِ الأزْياءِ أمامَ الزَّبائِنِ، ولكِنْ بدونِ أزْياءٍ بالمَرَّة، إذْ إنَّهُنَّ كُنَّ عارِياتٍ تَمامًا؛ وبَيْنَما نَحْنُ في نَشْوى جامِحَةٍ أمامَ هَذِهِ الأجْسامِ البَضَّةِ البَيْضاءِ، وفَجْأةً مَرَّتْ أمامَنا فَتاةٌ تَـتَلاعَبُ بجِسْمِها الرَّشيقِ المَيّاسِ، وصَدْرِها المَتينِ العالي الرِّحابِ، وتَنْسابُ كالأفْعى، وعلى فَمِها وفي نَظَراتِها جَميعُ معالِمِ الإغْراء...

كانَتْ هي... كانَتْ بِنْتَ قَرْيَةِ الحُبِّ التي كان سُكّانُ القَرْيَةِ يَعْتَبِرونَ أنَّها سَتَدْخُلُ الدَّيْرَ، فإذا بِها تَدْخُلُ أخيرًا الكرخانة.

وهكذا اسْتَخْلَصْنا مِنْ ذَلِكَ أنَّ الدَّمَ لا يَصيرُ ماء... كذَلِكَ بَناتُ قَرْيَةِ التَّهَتُّكِ والغَرامِ مَهْما عَمِلْنَ وأجْهَدْنَ النَّفْسَ لا يَصِرْنَ راهِبات.

وأنا الذي لَمْ أعْرِفْ فِراشَها النَّقِيَّ الطّاهِرَ في قَرْيَتِها، عَرَفْتُهُ فاسِقًا خَليعًا مُتَهَتِّكًا شُيوعِيًّا عِنْدَ ماريكا إسبيريدون!

وهكذا، مَعَ تِلْكَ الصَّبِيَّةِ، رَجَعَ كُلُّ شَيْءٍ لأصْلِهِ، وَتَطَبَّقَ أيْضًا القَوْلُ العامِّيُّ القائل: «طُبّ الجَرَّة على تمها لا بُدّ للبِنْت مَهْما طال الزَّمَن أنْ ترْجِع لأمّها»، ويُمْكِنُ القَوْلُ بالمُناسَبَةِ: لا بُدَّ أنْ تَرْجِعَ للضَّيْعَة!

كَيْفَ صِرْتُ حكيمَ عَيْنَيْن؟

الحُروبُ لَيْسَت فَقَطْ عَدُوَّةَ الحَياةِ، بَلْ هِيَ أيْضًا، وبِوَجْهٍ أوَّلِيٍّ، عَدُوَّةُ الفَضيلَةِ، والعِفَّةِ النِّسائيَّةِ، فإنَّهُ كما تَنْزِلُ أسْهُمُ البورصَة في أيّامِ الحَرْبِ، تَنْزِلُ مَعَها أسْهُمُ العَفافِ، وتُصْبِحُ رَخيصَةً جِدًّا. والأقوالُ المُصْطَنَعَةُ، خُصوصًا في أيّامِ الحُروبِ، مِنْ أنَّ العَفافَ أعَزُّ مِنَ الحَياةِ، هِيَ كلامُ تَجْليط وخَلْط.

فلَيْسَ في غَيْرِ الرِّواياتِ تُضَحّي المَرأةُ في حياتِها لتُحافِظَ على عَفافِها، ولكِنْ لا يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّهُ لَيْسَ للعَفافِ قِيمَةٌ كبيرةٌ عِنْدَ الأكْثَرِيَّةِ مِنَ النِّساءِ، إنَّما قيمَتُهُ تَعْلو وتهبِط كثيرًا حَسْبَ الأوْقاتِ والظُّروفِ، وهي تُصْبِحُ ولا شَكَّ، كما قُلْنا أعْلاهُ، تَقْريبًا عَدَمًا لا شأنَ لها في وَقْتِ الحُروبِ، عِنْدَما تُصْبِحُ حَياةُ المَرأةِ عُرْضَةً في كُلِّ ساعَةٍ للمَوْتِ جوعًا أو قَتْلًا. عِنْدَما لا يَعودُ عِنْدَها شَيْءٌ تَلْبِس... عِنْدَما تَحْتَاجُ للرَّغيفِ وللفُسْتان... ساعَتَئِذٍ ما هي قيمَةُ فَضيلَتِها؟

لا شَيْءَ مُطْلَقًا...

وإذا كانَتْ تَسْتَطيعُ بَيْعَها، تَفْعَلُ ذَلِكَ حالًا.

•

في الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولى، عِنْدَما جاعَ لُبنانُ، لم يَمُتْ مِنْ بناتِهِ

جوعًا غَيْرُ البشعات مِنْهُنَّ! وأما الحُلْواتُ، فَظَلَلْنَ في قَيْدِ الحَياةِ، حتّى إنَّهُنَّ عِشْنَ أفْضَلَ من الكثيرينَ مِنْ أهْلِ السَّعَة.

وفي ذَلِكَ الوَقْتِ ما عادَ مِنْ قيمَةٍ للقَوْلِ المأثورِ المَعْروفِ عِنْدَ النّاسِ والقائِلِ: «المَوْتُ ولا العار». فالعارُ في ذَلِكَ الحينِ ما عادَ عارًا، طالَما لَمْ يَعُدْ مِنْ سَبيلٍ لإمْلاءِ البَطْنِ وَلِسَتْرِ العُرْياتِ[1] غَيْرُ إعْطاءِ الجَسَد. لهذا، كانَتْ بناتُ الجِبالِ، بالأكْثَرِ، في أثْناءِ تِلْكَ الحَرْبِ الكَوْنِيَّةِ الأُولى المُخيفَةِ، يَهْرُبْنَ مِنَ المَوْتِ المُحَتَّم، جوعًا وحاجَةً وعريةً، عِنْدَما كُنَّ يأتينَ زَرافاتٍ زَرافاتٍ إلى بَيْروتَ، حَيْثُ يَضَعْنَ حياتَهُنَّ وَفَضيلَتَهُنَّ بَيْنَ أيْدي قَوّاداتٍ مُمْتَهِناتٍ في بُيوتِ المَواعيدِ الخاصَّةِ التي لَمْ يَكُنْ حَيٌّ من أحْياءِ المَدينَةِ يَخْلو مِنْ واحِدٍ مِنْها.

وكُنّا، في ذَلِكَ الزَّمانِ في بِدايَةِ الفُتُوَّةِ، عِنْدَنا مِنَ الشَّبابِ قُوَّةٌ لا يُستهانُ بها، وكُنّا دَوْمًا نَعيشُ مَعيشَتَنا الحُرَّةَ الطَّليقَةَ الإباحِيَّةَ ولكِنَّنا في سِياقِها لا نَتْرُكُ دَرْسًا إلّا وَنَحْفَظُهُ ولا مُغامَرَةً إلّا ونَخوضُها.

وكانَتِ البَهَجاتُ الجِنْسيَّةُ تُرافِقُ غِوايَتَنا [غَوايَتَنا يجوز الكسر والفتح. د.ج] في التَّعاليمِ التي كانَ عَلَيْنا في هذا الصَّدَدِ أنْ نَحْفَظَها، مِمّا كانَ يَجْعَلُها لَذيذةً ومَرْغوبًا بِها للغايَة.

وكُنّا، كما كانَ الشُّبّانُ الذين على شاكِلَتِنا مِنْ رُوّادِ بُيوتِ المَواعِيدِ حَيْثُ كانَ أهْلُ السَّعَةِ، وأخَصَّهُم أغْنِياءَ الحَرْبِ، مِنَ الجَماعَةِ الذين لَمْ يَكُنِ الجوعُ يُهَدِّدُ حياتَهُم، يَحْتَكِرونَ في تِلْكَ البُيوتِ

(١) جمع «عرية» وهي «ترجمة فورية» لـ *Nudité* الفَرَنْسِيَّةِ أو *Nudity* الإنْكليزيَّةِ، ومِنْ تَعْريباتِ الرِّياشي على الأرجَح.

أفْضَلَ ما في هَذِهِ البِضاعَةِ الحَيَّةِ البَضَّةِ الحُلْوَةِ، مِنْ بَناتِ القُرى والجِبال، يُنْقِذونَهُنَّ مِنَ الجوعِ والأطْمارِ البالِيَةِ المُمَزَّقَةِ على أجْسامِهِنَّ الفَتِيَّةِ، فَتَشْبَعُ البُطونُ الضّامِرَةُ النّاعِمَةُ وتَـكْـتَسي الأجْسادُ الحُلْوَةُ المُشْتَعِلَةُ، مُقابِلَ ذَلِكَ الشَّيْءِ الذي جَعَلَتْهُ الحَرْبُ، وجوعُها وزُلَطُها، لا قيمةَ له وَهُوَ العَفافُ ـ العَفافُ الذي صارَ في ذَلِكَ الوَقْتِ أمامَ الفَقْرِ والحاجَةِ أرْخَصَ من الفِجْل.

وكانَتْ، طَبْعًا، بُيوتُ المَواعيدِ تَفْرُقُ كثيرًا عَنْ بَعْضِها بَعْضًا، فَقَدْ كانَتْ دَرَجاتٍ دَرَجات: برنجي وإيكنجي وترسو، ولَيْسَ فَقَطْ بأنَّ قِسْمًا مِنْها مَفْروشٌ فَرْشًا جَميلًا تَـتَوَفَّرُ فيه جَميعُ أسْبابِ النَّظافَةِ، ولأنَّ قِسْمًا آخَرَ فَرْشُهُ حَقيرٌ وأسْبابُ النَّظافَةِ فيه مَفْقودَةٌ، بَلْ أيْضًا وخُصوصًا في البِضاعَةِ المُسْتَوْرَدَة.

فهُناكَ بُيوتُ مَواعيدٍ كانَ عِنْدَها مِنَ المَقْدِرَةِ المالِيَّةِ وغَيْرِ المالِيَّةِ ما يَجْعَلُها تَسْتَوْرِدُ البِضاعَةَ مِنَ الجِنْسِ الفاخِرِ، وتَبيعُها بأسْعارٍ غالِيَةٍ للَّذين يَسْتَطيعونَ دَفْعَ الثَّمَنِ، كما كانَتْ هُناكَ بُيوتٌ للمَواعِيدِ حَقيرةً عادِيَّةً على مُتناوَلِ أهْلِ الصَّبابَةِ مِنَ الذين لا يَسْتَطيعُونَ الدَّفْعَ الكَثيرَ، وخُصوصًا مِنَ الذينَ يُحِبّون التَّوْفيرَ فَيَعْتَبِرونَ أنَّ المَرأةَ عِنْدَما تَـتَمَدَّدُ بالفِراشِ، سواءً كانَتْ جَميلةً جِدًّا أو عادِيَّةً، تُعْطي البَهَجاتِ نَفْسِها للرَّجُلِ الذي يُقارِبُها. ولَيْسَ للرَّجُلِ إلّا أنْ يُغْمِضَ عَيْنَيْهِ في الوَقْتِ اللازم، فَيَتَصَوَّرَ أنَّهُ يَتَحَظّى أجْمَلَ امْرَأةٍ بالعالَمِ، ولو كانَتِ التي بَيْنَ أحْضانِهِ فَقيرةَ الجَمالِ كثيرًا.

وكُنّا أرْبَعَةَ رِفاقٍ نَتَماعَدُ[٢] كثيرًا في مِثْلِ هَذِهِ المَواعيد.

أحَدُنا مِنْ أكْبَرِ أغْنياءِ وَوُجَهاءِ هَذِهِ المَدينَة، مِنَ الذين اشْتُهِروا بِمُطارَدَةِ الحِسانِ، والوصولِ عادَةً إلى أكْثَرِ مِنْ حُصْنٍ، لِما كان عَلَيْهِ مِنْ فُتُوَّةٍ قويَّةٍ، ومِنْ يَدٍ سَخيَّةٍ، ونَحْنُ الثَّلاثَةُ الباقينَ مِنْ أهْلِ المُغامَراتِ والمُخاطَراتِ، يَوْمًا على سَعَةٍ ويَوْمًا على ضائِقَةٍ، ولكِنْ دونَ أنْ نَكونَ تَحْتَ خَطَرِ الجوعِ والحاجَةِ تَمامًا.

وكان عَميدُنا الثَّرِيُّ قد ساعَدَ خِصّيصًا بَيْتًا للمَواعِيدِ في حَيِّ فرن الحايك مُساعَدَةً جَعَلَتِ القوّادَةَ الذَّكيَّةَ صاحِبَتَهُ تُتْقِنُ فيه كلَّ شَيْءٍ، لَيْسَ فَقَطِ المَفروشاتِ وتَوْفيرَ أسْبابِ الرّاحَةِ والرَّفاهِ، بل وخُصوصًا البِضاعَةَ التي تَسْتَوْرِدُها، والتي كانَتْ زَهْرَةَ البَناتِ المُعَدّاتِ لولائِمِ الغَرامِ والحُبِّ.

وكانَتْ قد تَدَبَّرَتْ سَماسِرَةً وسِمْساراتٍ يَعْرِفْنَ كُلَّ شَيْءٍ، تُوفِدُهُنَّ للقُرى والدَّساكِرِ، يَجْمَعْنَ أحْسَنَ ما هُناكَ مِنْ حِسانٍ مُسْتَعْمِلاتٍ مَعَهُنَّ جَميعَ أسبابِ الإغْراءِ وأخَصَّها المالَ، ويأتين بِهِنَّ إلى بَيْتِ المَواعيدِ الذي كانَتْ قَدْ جَعَلَتْهُ نَوْعًا مِنْ عُشٍّ جَميلٍ لِلْغرامِ، يَقومُ بَعيدًا عَنِ الشّارِعِ العامّ، في وَسَطِ حَديقَةٍ تُخْفيهِ أشجارُها الباسِقَةُ عَنِ العِيان.

وكانَتْ صاحِبَةُ البَيْتِ في كُلِّ مَرَّةٍ تَأْتيها قافِلَةٌ جَديدَةٌ مُمْتازَةٌ تُسْرِعُ بإعْطائِنا الخَبَر، فَنَجْتَمِعُ ساعَتَئِذٍ في ذَلِكَ البَيْتِ، ونُقيمُ الوَليمَةَ الجِنْسيَّةَ الحَمْراءَ التي كانَتِ الفَضيلَةُ، وأكْثَرَ الأحْيانِ العِذارُ يَضيعانِ في خِلالِها بِرُخْصٍ وسُهولَةٍ غَريبَيْنِ مِثْلَما تَضيعُ مَثَلًا قَشَّةُ الكِبْريت.

(٢) كذا في الأصل ولعلها من اشتقاقات الرياشي الشَّطحيَّة!

وكُنْتُ، ولا شَكَّ، رَئيسَ هَذِهِ العُصْبَةِ التي ضَرَبَتِ المِقياسَ الحُبِّيَّ في الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولى بِكَثْرَةِ عَدَدِ القِلاعِ التي اكْتَسَحْتُها ـ قِلاعِ تِلْكَ الأَجْسادِ الفَتِيَّةِ الصَّلْبَةِ بالرَّغْمِ عَنْ جوعها، فكانَ هُناكَ أمامَ السَّماءِ وأمامَ الضَّميرِ ما نَجِدُهُ مُبَرِّرًا وشَفيعًا لِهَذِه الأَعْمالِ المُجْرِمَةِ، هو افْتِراضُنا أنَّنا لَوْ لَمْ نَـكُنْ نَحْنُ فَسَيَكونُ غَيْرُنا، أو بالحَرِيِّ أنَّنا، على الأَكْثَرِ، نُنْقِذُ هَؤلاءِ البناتِ مِنَ المَوْتِ جوعًا بِما نُعْطيهِنَّ مِنْ مالٍ مُقابِلَ ما يُعْطينَهُ مِنْ بَهَجات.

إذْ إنَّ أُولَئِكَ البَناتِ كانَتْ إرادةُ السَّماءِ قَدْ أَعَدَّتْهُنَّ للمَحْرَقَة... كانَتْ قد أَعَدَّتْهُنَّ، بالرَّغْمِ عَنْهنَّ طَبْعًا، وَتَـبَعًا لحاجَتِهِنَّ للطَّعامِ واللِّباسِ وللمُتاجَرَةِ بأَجْسادِهِنّ.

فالشَّيْءُ كانَ مُقَدَّرًا ولَمْ تَـكُنْ هُناكَ مِنْ وَسيلةٍ لاسْتِدْراكِهِ، فإنَّما هُنَّ بَناتٌ يَجِبُ أنْ لا يَمُتْنَ جوعًا، ولا يَجِبُ أنْ يَمُتْنَ مِنَ البَرْد، ولَيْسَ أمامَهُنَّ غَيْرُ هَذِهِ الطَّريقِ ـ طَريقِ بَيْتِ المَواعيد، فكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ جِدًّا أنْ يأتينَ أخيرًا إلَيْهِ، مَهْما حاوَلْنَ التَّخَلُّصَ وإنْقاذَ فَضيلَتِهِنّ.

وذاتَ يَوْمِ أحَدٍ مِنْ شَهْرِ أيّارَ سنة ١٩١٧، ولا زِلْتُ أذْكُرُ التّاريخَ تَمامًا للشَّيْءِ العَجيبِ الذي جرى فيه، والذي قَضَتِ الأَنْدِيَةُ أشْهُرًا وأشْهُرًا تَـتَحَدَّثُ عَنْهُ، أرْسَلَ بَيْتُ المَواعيدِ يُعْلِمُنا أنَّ هُناكَ بِضاعَةً جَديدَةً طازَةً وَصَلَتْ إلَيْهِ، وأنَّهُ أعَدَّها، بَعْدَ الغَسيلِ والزِّينَةِ والبَهْرَجَةِ، لِوَليمةٍ شَيِّقَةٍ، وهُرِعْنا طَبْعًا إلى بَيْتِ المَواعيدِ بالوَقْتِ المُعَيَّن.

وكانَ عَلَيْنا أنْ نَعْمَلَ الشَّيْءَ الذي لا يَتَغَيَّرُ مُنْذُ الخَليقَةِ، يَبْقى بالجَوْهَرِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ الذي عَمِلَهُ آدمُ مَعَ حواء ـ ومَهْما طَرَأَ

عَلَيْهِ مِنْ بَهْرَجاتٍ ومُصْطَنَعاتٍ واخْتِراعاتٍ وطُرُقٍ جَديدةٍ فهو يَبْقى كما هو وَمَعَ ذَلِكَ، دَوْمًا، في كُلِّ مَرَّةٍ، مُنْذُ الخَليقَةِ، نَتَوَهَّمُ أنَّنا نَجِدُ فيه شَيْئًا جديدًا.

وكانَتِ البَناتُ الأَرْبَعُ في زَهْوَةِ الصِّبا، وَبِملاحَةٍ جَذّابَةٍ، وكُنَّ طَبْعًا في جَزَعٍ وجَذَلٍ معًا.

في جَزَعٍ طَبْعِيٍّ مِنْ قُرْبِ ضَياعِ عِفَّتِهِنَّ العَزيزَةِ عادِيًّا عَلَيْهِنَّ وجَذَلٍ للمَصاري التي سَيَقْبِضْنَها، فيأكُلْنَ على جُوعِهِنَّ، ويَلْبِسْنَ ما قَدْ يَتَيَسَّرُ، ثُمَّ يُنْقِذْنَ أَهْلَهُنَّ مِنَ الجوعِ أيْضًا ـ الجوعِ الذي لا يَرْحَمُ والذي كان يُهَدِّدُ الجَميع.

وكانَ بَيْنَ الصَّبايا الأَرْبَعِ واحِدَةٌ يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّها كانَتْ تَكونُ آيَةً في المَلاحَةِ، وفي رَشاقَةِ القَدِّ، ونَحافَةِ الخَصْر، ونَهْدَةِ الصَّدْرِ، وكانَتْ تَجْلِسُ بَيْنَ رَفيقاتِها خَجولَةً مُحْمَرَّةً، خافِتَةَ الرّأسِ كثيرًا.

وكان الرِّفاقُ الثَّلاثَةُ يَنْظُرونَ إلَيْها باشْتِهاءٍ، وكان لا بُدَّ، حَسْبَ ما نَعْرِفُ، أنْ تَكونَ حِصَّةَ العَميدِ ـ العَميدِ الذي يَدْفَع.

فهو ما صارَ عَميدًا لِوَجاهَتِهِ الكُبرى، بَلْ لأَنَّهُ هو الذي كانَ، أغْلَبَ الأحيانِ، يَدْفَعُ، أو بالحَرِيِّ يَسْتَطيعُ الدَّفْعَ أيَّةَ ساعَةٍ أرادَ.

وفَجْأةً تَقَدَّمَ مِنَ الصَّبِيَّة ورَفَعَ رأسَها بِيَدِهِ، فإذا بِهِ يَتَراجَع...

لَقَدْ كانَتِ الصَّبِيَّةُ الأَكْثَرُ حُسْنًا مِنَ البَناتِ الثَّلاثِ الباقِياتِ ـ لَقَدْ كانَتْ حَوْلاءَ مِنْ عَيْنٍ للشِّمال...

أقولُ حَوْلاءَ ولا أقولُ عَوْراء.

وكانَ هذا السَّبَبُ لِتَراجُعِ العَميد... وتَراجَعَ مَعَهُ الرَّفيقانِ، وبَقِيَتْ لي.

وعِنْدَئذٍ ذَكَرْتُ جَمالَ الحَوَلِ، وكَيْفَ يَتَغَنّى بِهِ شُعراءُ العَرَبِ،

وكَيْفَ جَعَلوهُ مَعْنًى جَديدًا، فتّانًا مِنْ معاني الحُسْنِ، فَتَراءى لِي حَوَلُ الفَتاةِ حُسْنًا.

وكانَتْ ملاحَتُها تُغَطّي على حَوَلِها. وكانَتْ عُذوبَتُها، لَرُبَّما، تُغطّي كُلَّ النَّواقِصِ حتّى لَوْ كانَتْ عَوْراء.

إنَّما، كما قُلْتُ، كانَ هُناكَ حَوَلٌ فَقَطْ ولكِنَّه حَوَلٌ يَكادُ يَكونُ أكْثَرَ مِنَ اللّازِمِ، إنَّما كان فيها بأجْمَعِها مُقابِلَ ذَلِكَ دَعْوَةٌ مُسْتَعْجِلَةٌ للحُبِّ وَوِصالِهِ، ويا لَيْتَ الشَّبابَ يَعودُ يَوْمًا، وكُنْتُ في ذَلِكَ الوَقْتِ سَبْعًا ونِمْرًا معًا.

وَقَدْ شاهَدْتُ في نَظَراتِ الفَتاةِ شَيْئًا يُشْبِهُ الشُّكرانَ لأنَّني انْتَقَيْتُها بَيْنَ أُولَئِكَ، فكانَتْ هكذا مِطْواعَةً ناعِمَةً كالحَمامة.

وكان الاكْتِساح.

إنَّما كانَ اكْتِساحًا جارِفًا لِدَرَجَةٍ رأيْتُ[٣] حالًا مِنَ الرَّهْبَةِ والخَوْفِ في وَجْه الفَتاةِ، ثُمَّ باسْتِغرابٍ كبيرٍ رأيْتُ عَيْنَها التي كانَتْ حَوْلَاءَ تَتَجَلَّسُ، وتُصْبِحُ شَبَهَ العَيْنِ الأُخرى ـ أُخْتَها تَمامًا.

وحينَئِذٍ، وأنا في دَهْشَةٍ غَريبَةٍ، قُلْتُ للفَتاةِ عمّا جرى، وأخَذْتُ أصْرُخُ بالرِّفاقِ يأتونَ ويَتَفَرَّجونَ وَيَشْهَدونَ بأصْلِهِم، وقامَتِ الفَتاةُ إلى المِرْآةِ ترى الحَقيقَةَ، وتَضيعُ في بَحْرٍ مِنَ الفَرَحِ والسُّرورِ، وكادت تَجْثو أمامي لِتَشْكُرَني، وأنا مُعْجَبٌ بِنَفْسي، وكَيْفَ أنَّني اسْتَطَعْتُ اجْتِراحَ أُعْجوبَةٍ كَهذِهِ، وَتَساءَلْتُ مُسْتَغْرِبًا، كَيْفَ أنَّني أصْبَحْتُ طَبيبَ عَيْنَيْنِ فَجْأَةً دونَ أنْ أدري.

(٣) «ترجمة فوريَّة» لا تحتاج إلى بيان.

ولا شَكَّ أنَّني في هذا العَمَلِ عَمِلْتُ عَمَلًا خَيْرِيًّا هُوَ أفْضَلُ ما عَمِلَهُ رَجُلٌ في حَياتِه.

وكانَ تَجْليسُ عَيْنِ الفَتاةِ أثْمَنَ وأكْبَرَ تَعْويضٍ على ضَياعِها فَضيلَتِها.

والفَتاةُ التي أصْبَحَتْ بَعْدَ أنْ جَلَّسْتُ عَيْنَها مُكْتَمِلَةَ المَلاحَةِ والجَمالِ، ماذا عَمِلَتْ؟

كُنْتُ اعْتَمَدْتُ أنْ أتَّخِذَها مَحْظِيَّةً لي، وأتْرُكَ حياةَ المُغامَراتِ والتَّنَقُّلِ التي كُنْتُ أعيشُها، ولكِنْ طَرَأَ هُناكَ شَيْءٌ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ ومُضْحِكٍ جَعَلَ أُمْنِيَّتي لا تَـتَحَقَّق.

افْتَرَضَتِ الفَتاةُ، أو بالحَرِيِّ تَصَوَّرَتْ، أنَّها إذا عَمِلَتِ الحُبَّ عَنْ جَديدٍ عادَ الحَوَلُ إلى عَيْنِها، واعْتَبَرَتْ أنَّ الشَّيءَ الذي أجْلَسَ عَيْنَها يُمْكِنُهُ طَبْعًا أنْ يَلْوِيَ عَيْنَها عَنْ جَديد...

وعادَتْ لِقَرْيَتِها وأقْسَمَتْ قَسَمَيْن: أقْسَمَتْ أنَّها طيلَةَ العُمْرِ لَنْ تَنْساني، وأقْسَمَتْ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرى، إنَّها لَنْ تَعودَ لِعَمَلِ الحُبِّ ثانِيَة.

وهي الآنَ لا تَزالُ بِقَيْدِ الحَياةِ، ويَجِبُ أنْ يَكونَ طَبيبُ القَرْيَةِ يَعْرِفُ تَمامًا بِقِصَّتِها، ويُذَكِّرُها، مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، بِخَيْرِ ذاك المُجَلِّسِ الذي جَلَّسَ لها عَيْنَيْها...

القَرَوِيَّةُ الحَسْناءُ في المطبخ

كان ذَلِكَ في دِمَشْق... وكانَتِ الدُّنْيا حَرْب ـ حَرْب ١٩١٤.
وكانَتْ دِمَشْقُ أكْثَرَ رَحْمَةً عَنْ غَيْرِها على اللبنانِيّينَ الذين كانوا يَلْجؤون إلَيْها جَماعاتٍ جَماعاتٍ طَلَبًا للشُّغْلِ، وخُصوصًا طَلَبًا للطَّحين.
فإنَّما، إذا كانَ ثُـلُثُ أهالي جَبَلِ لُبنانَ ماتوا جوعًا في تِلْكَ الحَرْبِ، فالثُّـلُثُ الثّاني لَمْ يَمُتْ جوعًا لأنَّهُ هاجَرَ للبِقاعِ بِعَدَدٍ ضَعيفٍ، وهاجَرَ لِدِمَشْقَ وحَوْرانَ بِعَدَدٍ أكْبَرَ حَيْثُ سُهولُ القَمْحِ، ومراعي المَواشي، والأراضي الفَيّاضَةُ بِمياهِها ومَزْروعاتِها، وأمّا الثُّـلُثُ الثّالِثُ فَقَدِ اسْتَطاعَ أنْ يعيشَ بِوسائِلِهِ الخاصَّةِ، وَمُتاجَراتِهِ، واسْتِثْماراتِهِ، وتَجْويعِهِ لِلْغَيْرِ، وأمْوالِ أغْنيائِهِ الأساسيَّة.
وكانَ مِنَ الثُّلُثَيْنِ الأوَّلَيْنِ فِئَةٌ مَعْروفَةٌ قليلَةُ العَدَدِ، ولكِنْ كَثيرةُ الوَقاحَةِ عاشَتْ مُتَحَدِّيَةً الجوعَ والشَّقاء.
عاشَتْ هَذِهِ الفِئَةُ بِقُوَّتِها الخاصَّةِ مَعَ أنَّ المَوْتَ لَمْ يَكُنْ في زَمَنٍ مِنَ الأزْمانِ كَثيرًا جِدًّا قَدْرَ ما كانَ في خِلالِ تِلْكَ الحَرْبِ المُخيفَة.
هَذِهِ الفِئَةُ كانَتْ خَليطًا مِنْ أهْلِ المُغامَراتِ والمُخاطَراتِ ـ مِنَ الذين امْتَهَنوا جَميعَ المِهَنِ ـ نَبيلَةً كانَتْ أو قَذِرَة.
وفي ذَلِكَ الوَقْتِ لَمْ يَكُنْ هُناكَ فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَ النَّبالَةِ والقَذارَة.

إذْ، عِنْدَ المَجاعاتِ، الشُّعوبُ الجائِعَةُ لا تَعودُ تَرْكَبُ حِصانَ المَبادِئِ كَثيرًا، وتَنْظُرُ لِلأشْياءِ التي كانَتْ تَعْتَبِرُها، وهي شَبْعانَةٌ، أنَّها أشْياءُ وَسِخَةٌ، نَظْرَةَ تَسامُحٍ ـ وحتّى نَظْرَةَ عَطْف.

فإنَّما هَذِهِ الأعْمالُ الخاطِئَةُ تُصْبِحُ حَقَّةً ومَشْروعَةً ولها عُذْرُها، مَهْما كانَتْ مُحْتَقَرَةً ورَذيلَةً، إذا كانَتْ تُنْقِذُ أصْحابَها مِنَ المَوْتِ.

ولا شَكَّ أنَّ الكثيرين جِدًّا مِنْ أهالي دِمَشْقَ عَمِلوا قَدْرَ ما اسْتطاعوا مِنَ المساعَدَةِ، فاسْتَخْدَموا الرِّجالَ مِنَ اللاجِئينَ اللبنانيّينَ كَخَدَمٍ وعُمّالٍ وكانَ هَؤلاءِ بالأكْثَرِ مِنَ المَوارِنَةِ، واتَّخَذوا الفَتَياتِ كخادِماتٍ ووَصيفاتٍ وطَبْعًا كانَتْ تَنْتَهي أخيرًا الواحِدَةُ مِنْهُنَّ بأنْ تَخْدُمَ بالنَّهارِ وتَنامَ مَعَ رِجالِ البَيْتِ باللَّيل.

وكانَتِ المَجاعَةُ في لُبنانَ، قَدْ جَعَلَتْ كُلَّ بِنْتٍ حُرَّةٍ طَليقَةً بأنْ تُفَتِّشَ عَنْ خُبْزِها أيْنَما يُمْكِنُها أنْ تَجِدَهُ.

فَقَدْ جاءَ وَقْتٌ في جَبَلِ لُبنانَ زادَتْ فيهِ المَجاعَةُ لِدَرَجَةٍ قالَتِ[1] الطَّبيعَةُ للأهالي ما يَقولُهُ القائِدُ لِجُيوشِهِ عِنْدَما يَراها مَكْسورَةً يَكادُ العَدُوُّ يُفْنيها: «لِيُنْقِذْ كُلٌّ مِنْكُمْ نَفْسَهُ كَيْفَما اسْتَطاع».

وتَـكونُ ساعَتَئِذٍ الهَريبة.

وهكذا كانَتْ في ذَلِكَ الوَقْتِ عِنْدَما كانَ العَدُوُّ الأكْبَرُ الذي اسْمُهُ الجوعُ أخَذَ في الفَتْكِ بالقُرى اللبنانيَّة المِسْكينَة.

ونَحْنُ، طَبْعًا، كُنّا مِنْ تِلْكَ الفِئَةِ التي عاشَتْ على هامِشِ الزَّمَنِ، لَمْ نَجُعْ ولكِنَّنا لَمْ نَشْبَع. لَمْ نَجُعْ لأنَّنا عَرَفْنا بِوَسائِلِنا الخاصَّةِ الطَّريقَةَ لأنْ نَبْقى في هذا العالَمِ، فامْتَهَنَ الواحِدُ مِنّا كُلَّ المِهَنِ

---

(١) «ترجمة فورية» لا تحتاج إلى بيان.

التي كانَتِ الأقْدارُ تُؤَدّيهِ إلَيْها، دونَ أيّ فارِقٍ عِنْدَهُ ـ كانَتْ تِلْكَ المِهَنُ شَريفَةً أو غَيْرَ شَريفَةٍ، حَقّةً أو مُجْرِمَةً ـ إذْ لَمْ يَكُنِ الوَقْتُ مُطْلَقًا وَقْتَ تَمْييزٍ بَيْنَ الحَسَنِ والسَّيِّء...

وكان هُناكَ بَيْنَنا مَنِ امْتَهَنَ المِهْنَةَ الأظْرَفَ والتي جَعَلَتْها الحَرْبُ سَهْلَةً جِدًّا، لا تَتَطَلَّبُ غَيْرَ ظَريفِ الكَلامِ، وقُوَّةِ الإقْناعِ، ولَطيفِ الوعود، وهي المِهْنَةُ التي أخَذَ فيها إبراهيم حديد، الذي عاشَ قَبْلَ الحَرْبِ الماضِيَةِ بِبَيْروتَ، شَهاداتٍ للدكتوراه والبكالوريا والعلوم العالية، وأخَذَ فيها جائِزَةَ الشَّرَفِ الفَوْقَ العادَةِ، ولو كانَتْ في تِلْكَ الأيّامِ جائِزَةُ نوبل للسَّلامِ وللأعْمالِ الخَيْرِيَّةِ مَوْجودَةً لكانَ صاحِبُنا، إبراهيم حديد، أوَّلَ مَنْ أخَذَها أيْضًا، وعَنْ كُلِّ جدارةٍ واسْتِحْقاق.

فإنَّما جَنابُهُ كان القَوّادَ رَقْمَ أوَّل في هَذِهِ البِلاد: اشْتُهِرَ بِمَقْدِرَتِهِ المُدْهِشَةِ في تَطْبيقِ النِّساءِ للرِّجالِ، والرِّجالِ للنِّساء، مِمّا جَعَلَ اسْمَهُ في ذَلِكَ الزَّمانِ فَوْقَ كُلِّ الأسْماءِ، ومِمّا جَعَلَ النّاسَ يُطْلِقونَ اسْمَهُ الكريمَ، ولا يَزالونَ حتّى يَوْمِنا هذا، على كُلِّ رَجُلٍ يُسَمْسِرُ بَيْنَ النِّساءِ والرِّجالِ، وكانَتْ دارَتُهُ الصَّغيرَةُ بالقُرْبِ مِنْ حَمّام الزَّهاريَّة بِبَيْروتَ مَحَجَّةَ عُظَماءِ النّاسِ، وَوُلاةِ الأتْراكِ وقُوّادِهِم، يَطْلُبُونَ رِضاها ورِضا الحِسانِ اللَّواتي يُدَبِّرُهُنّ.

وكما قُلْنا، لَمْ تَكُنِ المِهْنَةُ صَعْبَةً جِدًّا في ذَلِكَ الوَقْتِ، إذْ إنَّ السِّمْسارَ مِنْ هذا النَّوْعِ لَمْ يَكُنْ يُتْعِبُ نَفْسَهُ في إقْناعِ البَناتِ المُهاجِراتِ مَثَلًا مِنْ جَبَلِ لبنانَ إلى دِمَشْقَ بالاسْتِسْلامِ للرِّجالِ، وأكْثَرُهُنَّ ما هاجَرْنَ إلّا وَهُنَّ مُتَّكِلاتٌ، بِوَجْهٍ أوَّلَ، على هذا الرَّأسِمالِ ـ الشَّيْءِ الذي يَرْغَبُهُ الرِّجالُ فيهِنّ.

ولكِنْ كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَجِدْنَ قادةً لَهُنَّ، بالأحْرى، ولَيْسَ قَوّادينَ، يَقودونَ خَطَواتِهِنَّ في بِلادٍ غَريبَةٍ عَنْهُنَّ، لا يَعْرِفْنَ عَنْها شَيْئًا، فيأخُذونَهُنَّ إلى المَكانِ الصّالحِ حَيْثُ الرِّجالُ الصّالحون.
وكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِدِمَشْق.
ذَهَبْتُ مَعَ رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ اللَّهوِ والمَيْسِرِ، وُجهاءَ مِنْ بَيْروتَ: موسى سرسق، وإميل النَّجّار، وألِك سرسق، وبيار حمصي ويوسف لاوَنْد وغَيْرِهِم مِنَ الذين أنْقَذَتْهُم سَعَتُهُم مِنْ غائِلَةِ الجوعِ والحاجَةِ، ومِنْ أخْطارِ النَّفيرِ العامِّ، وعاشوا أثْناءَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولى في حَياةِ التَّرَفِ والانْشِراحِ والمَسَرَّة.
فإنَّما المالُ، دَوْمًا، كان حارِسَ صاحِبِهِ، خُصوصًا في أيّامِ الأتْراكِ حَيْثُ كانَ يَلْعَبُ دَوْرًا هامًّا عِنْدَ أهْلِ الدَّوْلَةِ، فَيَجْعَلُ الذي يُعْطي مِنّا مَحْفوظَ الرَّأْسِ سَليمًا.
فَطالَما أنْتَ تَدْفَع، طالما تُسَوْكِر حَياتَك.

•

وكُنّا ذَهَبْنا إلى دِمَشْقَ نَلْعَبُ بالقِمار، أو بالحَرِيِّ ذَهَبْتُ مَعَ الرِّفاقِ أتَفَرَّجُ عَلَيْهِم يَلْعَبونَ بالقِمار، إذْ إنَّ ضائِقَتي المُزْمِنَةَ لَمْ تَكُن تَسْمَحُ لي بِمعاشَرَةِ بِنْت البَسْتوني كثيرًا.
ونَزَلْنا في لوكَنْدَة «دَمَسْكوس» التي كانَتْ في ذَلِكَ الحينِ مِنْ أفْخَمِ لوكَنْداتِ دِمَشْقَ، وأخَذْنا نُلَبّي دَعَواتِ ذَواتِ الشّام ـ وبِوَجْهٍ خاصٍّ دَعواتِ آل الأصْفر الذين كانوا يَعيشونَ مَعيشَةً سَخِيَّةً، ورَفاهًا، لِما كانَ عِنْدَهُم مِنْ وسائِلَ مادِّيَّةٍ كانَتْ تَسْمَحُ لَهُمْ بِمُزاوَلَةِ كلّ أسْبابِ التَّرَفِ والتَّلَهّي ومِنْها القِمارُ ـ القِمارُ، الرَّفيقُ المُلازِمُ لِحَياةِ الاسْتِهْتارِ التي يَعيشُ فيها أهْلُ السَّعَة.

والقِمارُ في أيّامِ الحَرْبِ مِثْلُ الغَرامِ ـ نَوْعٌ مِنَ المُخَدِّرِ، فَتُنْسيكَ بِنْتُ البَسْتوني الكَثيرَ مِنَ المَخاوِفِ والهُمومِ التي يَخْلُقُها حَوْلَكَ جَوُّ المَعارِكِ والقِتالِ والمَخاطِر.

وكان إميل النَّجّار أظْرَفَ ظُرفاءِ زَمانِهِ، فَكِهَ اللِّسانِ، طَريفَ القَوْلِ، يَمْتازُ بأحاديثِهِ الجَميلَةِ، وَنِكاتِهِ [نُكاتِهِ، بالضم والكسر. د.ج] وحِكاياتِهِ اللَّطيفَةِ التي ما زالَ أكْثَرُنا يُرَدِّدُها حتّى اليَوْمِ ـ مِمّا جَعَلَهُ في ذَلِكَ الزَّمَنِ قريبًا جِدًّا للقُوّادِ والحُكّامِ الأتْراكِ الذين، مَثَلُهُم كَمَثَلِ جَميعِ قُوّادِ وحُكّامِ باقي بُلدانِ العالَمِ، يَسْتَظْرِفونَ الكلامَ الطَّريفَ ويَسْتَظْرِفونَ صاحِبَهُ لِدَرَجَةٍ يَزيدونَ فيها مِنْ تَكْريمِهِ ومُصادَقَتِهِ فَيَنْفَعونَهُ على قَدْرِ ما يُمْكِنُ، وَيَحْمونَ رَأْسَهُ مِنْ غائِلاتِ تِلْكَ الحَرْبِ المُخيفَةِ وَرَذائِلِها ومُخْتَلَقاتِ واتِّهاماتِ جَواسِيسِها.

وَدَأَبَ إميل النَّجّار، مُنْذُ أوَّلِ يَوْمٍ ذَهَبْنا فيه نَتَغَدّى عِنْدَ آلِ الأصْفر، بأنْ يَتْرُكَنا مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، كُنّا على الغَداءِ أو العَشاء، أو كُنّا على طاوِلَةِ البكارا، وَيَخْتَفي بِضْعَ دَقائِقَ، ولَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ كثيرًا مَعْرِفَةُ سَبَبِ تَغَيُّبِهِ المُفاجِئ مِرارًا عَديدَةً في كُلِّ يَوْمٍ كُنّا نَزورُ فيهِ ذَلِكَ البَيْت.

فإنَّما إميل النَّجّار كان يَنْسَلُّ مِنْ قاعَةِ الطَّعامِ، أو صالونِ اللَّعِبِ، لِلْمَطْبَخِ حَيْثُ يَدْخُلُ بِحَديثٍ طَويلٍ عَريضٍ مَعَ صَبِيَّةٍ جَبَلِيَّةٍ لُبنانيَّةٍ حُلْوَةٍ كانَتْ قد لَجَأَتْ إلى دِمَشْقَ، واتَّخَذَها ذَلِكَ البَيْتُ صانِعَةً ومُعاوِنَةً للطَّاهِيَةِ التي فيه، ولَمْ يَكُنْ مضى حينَئِذٍ على الصَّبِيَّةِ أكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ لِتَرْكِها قَرْيَتَها في لُبنانَ ـ إحْدى مَزارِعِ بَيْتِ شباب وبكفيّا.

وبالطَّبْعِ أخَذَ كُلٌّ مِنّا، بِدَوْرِهِ، يُغافِلُ الحُضورَ وَيَذْهَبُ لِلْمَطْبَخِ يَتَفَرَّجُ على الصّانِعَة.

وكان ذَلِكَ بِعِلْمِ بَناتِ البَيْتِ الظَّريفاتِ اللَّواتي كُنَّ يَتَمَنَّيْنَ أنْ تَطولَ هَذِهِ المُناوراتُ حَيْثُ يَجِدْنَ فيها الكَثيرَ مِنَ التَّلَهّي والسَّلْوى.

وأخيرًا، طَبْعًا، ودونَ ادِّعاءٍ، أصْبَحْتُ، أنا، صديقَ الصّانِعَةِ بأقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِن. لَيْسَ فَقَطْ لأنَّ شَبابي كانَ أزْهى بِكثيرٍ مِنْ رِفاقي، بَلْ أيْضًا، وخُصوصًا، لأنَّ الصَّبِيَّةَ كانَتْ بِنْتَ بلادي، فالخِنْشارَةُ، مَسْقِطُ رأسي، والمَزْرَعَةُ القَريبةُ مِنْ بَيْت شباب، مَسْقِطِ رَأْسِ البِنْت، تَكادانِ تَتَلاصَقانِ في جَبَلِنا العَزيز.

وكُنّا نَعْرِف، هي وأنا، جميعَ النّاسِ عِنْدَنا.

وكانَتِ الصَّبِيَّةُ بِحاجَةٍ كُبْرى لِصَديقٍ تَسْتَشيرُهُ وَتَسْتَرْشِدُهُ في أمورِها الخاصَّة؛ وَقَدْ كانَ لها أُمورٌ خاصَّةٌ لها شأنٌ كَبيرٌ بِحياتِها... فالفَتاةُ كانَتْ أُمًّا، وعِنْدَها طِفْلَةٌ صَغيرةٌ ابْنَةُ سِتَّةِ أشْهُرٍ في ذَلِكَ الحين، وكانَتْ قد أسْمَتْها كاترينا.

وكانَتِ ابْنَةً شَرْعِيَّةً لوالِدٍ ماتَ جوعًا مَعَ الذين ماتوا جوعًا في المَزْرَعَةِ، وقَيَّضَ اللَّهُ لأرْمَلَتِهِ الصَّبِيَّةِ ابْنَةِ التِّسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، ولِطِفْلَتِها، أحَدَ أهالي المَزْرَعَةِ جاءَ بِها عِنْدَما بَدَأتِ المَجاعَةُ تَفْتِكُ بالقَرْيَةِ إلى سوريا لتَجِدَ لها في دِمَشْقَ عَمَلًا تَعيشُ مِنْهُ، وساعَدَها الحَظُّ عِنْدَما وَصَلَتْ إلى المَدينَةِ الكُبرى، في أنَّها دَخَلَتْ مَعَ رَفيقِها في خِدْمَةِ ذَلِكَ البَيْتِ الوَجيهِ، هُوَ كَسائِسٍ وهِيَ كصانِعَةٍ بالمَطْبَخ.

وكانَتِ الصَّبِيَّةُ قد اسْتَوْدَعَتِ الطّاهِيَةَ طِفْلَتَها الصَّغيرَةَ مُقابِلَ

إعطائِها نِصْفَ أُجْرَتِها دونَ أنْ يَعْلَمَ أهْلُ البَيْتِ بأنَّها أُمٌّ وأرْمَلَة.
وكانَ على ياسمينَ، وهو اسْمُها، أنْ تَجِدَ صَديقًا تَرْوي لَهُ حِكايَةَ طِفْلَتِها، ويَسْتَطيعُ أنْ يُساعِدَها، ماليًّا طَبْعًا، كَيْما تَـتَمَكَّنُ مِنَ الخُروج، هي والطِّفْلَةُ، من تِلْكَ الحَرْبِ الضَّروسِ سالِمَتَيْن.
وحالًا، رَوَتْ لإميل النَّجّار، بَعْدَ أنْ أقْسَمَ اليَمين أنَّهُ يَحْفَظُ السِّرَّ، حِكايَةَ الطِّفْلَة.
وحالًا، أخَذَ إميل النَّجّار يَفْرِضُ على كلّ لُعْبَةٍ تَقومُ، وكُنّا نَلْعَبُ مَرَّتَيْنِ، وثَلاثَ مَرّاتٍ، كُلَّ ٢٤ ساعة، نَوْعًا من «الكنْيوت» لِمُساعَدَةِ الصَّبِيَّة.
وكانَ إميل النَّجّار يَسْتَعْمِلُ جَميعَ حِيَلِهِ لِتَكونَ القيمَةُ كبيرةً، لذَلِكَ لَمْ تَمْضِ العَشْرَةُ أيّامٍ التي قَضَيْناها بِدِمَشْقَ إلّا وكانَتِ القيمَةُ بَلَغَتِ الأرْبَعَمائَةَ ليرةً تُرْكِيَّةً مِمّا كانَ مَبْلَغًا كَبيرًا بِنَظَرِ الصّانِعَةِ في ذَلِكَ الوَقْتِ الذي كانَتْ فيه الليرةُ بزلمة كما يَقولُون.
وطَبْعًا، في خِلالِ تِلْكَ العَشْرَةِ أيّامٍ، كُنْتُ قد تَعَمَّقْتُ في صَداقَةِ الصَّبِيَّة لِدَرَجَةٍ وَصَلَتْ إلى التَّحابِّ والتَّعَشُّقِ، إنَّما على طَريقَةِ الحَرْبِ القائِمَة.
فالحُبُّ كان مِثْلَ الحَياةِ يُعاشُ كُلَّ يَوْمٍ بِيَوْمِه: لا يَعْرِفُ الإنْسانُ، عِنْدَما يَنامُ، إذا كان سَيَطْلُعُ عَلَيْهِ الضَّوْءُ وهو طيِّبٌ حَيّ.
لذَلِكَ، عِنْدَما تَحابَبْنا، ياسمين وأنا، ما عَمِلْنا حِسابَ أيِّ مُسْتَقْبَلٍ، ولا تَساءَلْنا إذا كُنّا بَعْدَ العَشْرَةِ أيّامٍ التي جَمَعَتْنا بِدِمَشْقَ سَنَعودُ وَنَتلاقى مَرَّةً أُخْرى في العُمْر.
وطَبْعًا، عِنْدَما وَدَّعْتُ ياسمين، تقاسَمْتُ وإيّاها أيْضًا المائَتَيْ ليرةٍ التي كُنْتُ أمْلِك.

وَتَرَكْناها بِدِمَشْقَ مَعَ طِفْلَتِها وَعُدْنا إلى بِلادِنا.
ومَضَتْ ١٩ سَنَةً بَعْدَ ذَلِكَ...
١٩ سَنَةً كامِلة.
وطَبْعًا كُنْتُ قَدْ نَسيتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ صانِعَةَ المَطْبَخِ وطِفْلَتَها واللَّيالِيَ العَشْرَ التي تَعَشَّقْتُها وتَعَشَّقَتْني فيها وكُنْتُ في خِلالِ تِلْكَ التِّسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً عَرَفْتُ عِشرينَ وثَلاثينَ ولربَّما أرْبَعينَ ياسمين مِثْلَ هَذِهِ الياسمين.

•

وفي صيف ١٩٣٦، في بَيْت مري، عِنْدَما كُنْتُ جالِسًا، كعادَتي عِنْدَ كُلِّ مَساءٍ في حَديقَةِ اللّوكَنْدة الكُبرى الشامِخَةِ الأشْجارِ، أو ألْعَبُ بالطّاوِلَةِ مَعَ سَيْفِ النَّصارى، وأخْسَرُ على طول، أو أتَقاتَلُ وإيّاه على السِّياسَة، حَيْثُ قَضَيْنا العُمْرَ دَوْمًا مُخْتَلِفَيْن ـ وفي ذاتِ مَساءٍ، رأيْتُ سَيِّدَةً تَرْتَدي مَلابِسَ مُحْتَشِمَةً ولكِنْ فاخِرَةً ثَمينَةً، وتَلُفُّ شَعْرَها بِمَنْديلٍ حَرائِريٍّ يَكادُ يَحْجُبُ وَجْهَها، طَويلَةَ القامَة، جَسيمَةً نَوْعًا، لا تَزالُ تَحْتَفِظُ بِبَريقِ عَيْنَيْها اللَّمّاعَتَيْنِ، وَبِلَوْنِ خَدَّيْها الأحْمَرَيْن، وَبِقَدَمِها الثّابِتَةِ القَوِيَّةِ تَطَأُ الأرْضَ بِكُلِّ طُمَأْنينَة.
مَرَّتِ المَرْأةُ أمامي ونَظَرَتْ إلَيَّ نَظْرَةً غَريبَةً جِدًّا.
وعَرَفْتُها حالًا ـ كانَتْ ياسمين!
ياسمين الصّانِعَةُ ابْنَةُ المَزْرَعَةِ المُجاوِرَةِ لِقَرْيَةِ بَيت شباب وأمُّ الطِّفْلَة.
وابْتَسَمَتْ ياسمين ابْتِسامَةً حُرَّةً طَليقَةً وقالَتْ لي: «أنا أعْرِفُكَ فَهَلْ عَرَفْتَني؟».

وطَبْعًا عَرَفْتُها، وكَيْفَ لا أعْرِفُها، وهي هي لا تَزالُ تَقْريبًا كما كانَتْ.
وعَرَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أنَّها اسْتَطاعَتْ حتّى نِهايَةِ الحَرْبِ أنْ تَبْقى صانِعَةً في البَيْتِ الذي كانَتْ فيه، ثُمَّ اعْتَنَقَتِ الإسْلامَ عِنْدَما تَزَوَّجَتْ وَجيهًا كبيرًا مِنْ أهْلِ الجَزيرة، عَرَفَتْهُ في البَيْتِ الذي كانَتْ فيه خادِمَة.
والوَجيهُ جَعَلَها تَعيشُ عِيشَةَ رَفاهٍ وتَرَفٍ، وأحاطَ طِفْلَتَها بِكُلِّ عِنايَةٍ، وشَبَّتِ الصَّغيرَةُ، كُلَّ يَوْمٍ أجْمَلَ من يَوْم، حتّى كانَتْ، وهي ابْنَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، أجْمَلَ بَناتِ الصَّحْراءِ ـ يتراكَضُ الأسْيادُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ يَطْلُبُونَ الزَّواجَ مِنْها، وَتَزَوَّجَتِ الصَّغيرَةُ ـ تَزَوَّجَتْ زيجَةً عالِيَةً جِدًّا وصارَتْ صاحِبَةَ لَقَبٍ كَبير، وصارَتْ أيْضًا أُمًّا صالِحَةً، وأنْجَبَتْ سَيِّدَيْنِ هُما اليَوْمَ مِنْ زِينَةِ العَرَب.
وقالَتْ لي ياسمين إنَّها تُداوِمُ حتّى ذَلِكَ الوَقْت، وَتَرْوي في كُلِّ مَكانٍ، حِكايَةَ مُساعَدَتي لها بِدِمَشْقَ، وكَيْفَ أنَّني كُنْتُ السَّبَبَ في إنْقاذِ الأمِّ والطِّفْلَةِ مِنْ وَيْلاتِ الحَرْب.
وَبِفَضْلِ ذَلِكَ وَصَلَتِ الطِّفْلَةُ اليَتيمَةُ الصَّغيرَةُ، أخيرًا، إلى أنْ تَـكونَ أميرةً وزَوْجَةً مُكَرَّمَةً زاهِيَةً مَحْبوبَةً في القُصور.
وهكذا، سَيِّدُ تِلْكَ القُصورِ يَكونُ نَوْعًا ما، وبِطَريقَةٍ غَيْرِ مباشِرَةٍ، صاهَرَ صاحِبَ هَذِهِ المُغامَرات...

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

كانَ القَتيلُ يَمْشي بَيْنَ الرَّجُلين

الحَسْناءُ ذاتُ الشَّعْرِ الكَسْتَنائيِّ المُجَعَّدِ، والبَشَرَةِ البَيْضاءِ المُوَرَّدَةِ، والعَيْنَيْنِ الخَضْراوَيْنِ الجَذّابَتَيْنِ، لِماذا كانَتْ في تِلْكَ العَشْرَةِ أيّامٍ مُضْطَرِبَةً دَوْمًا ومُنَرْفِزَةً، تَتَأَوَّهُ وتُصَعِّدُ الزَّفَراتِ ولا تَهْدأُ لها حَرَكَةٌ، ولا يُعيدُها شَيْءٌ إلى الرَّزانَةِ التي كانَتْ تَـتَحَلّى بِها قَبْلَ تِلْكَ العَشْرَةِ أيّام ـ كلّا! لَمْ يَنْفَعْ فيها شَيْءٌ، حتّى ولا ما كانَ يُقَدِّمُهُ لها صَديقُها مِنْ وِصالٍ ومُغازَلاتٍ وهَدايا.

وكان صَديقُها، بالمُناسَبَةِ، صاحِبَ هذ الحِكايَة.

كانَتْ حلى مِنْ أحلى فَتَياتِ المَدينَةِ الصَّغيرَةِ الجَميلَةِ، الباسِلَةِ، القائِمَةِ وَسَطَ الوادي الظَّليلِ، يَشْطُرُها النَّهْرُ الرَّقْراقُ الغِرّيدُ، تَحْرُسُ ضِفَّتَيْهِ أشْجارُ الحَوْرِ الفِضِّيِّ، وأشْجارُ الصَّفْصافِ المستحي، يَتَواعَدُ وَراءَ خَمائِلِها المُحِبّون ويَتَلاقونَ، يَخْلَعُ عَلَيْهِم جَمالُ الطَّبيعَةِ روحًا رومانطيقيَّةً [هكذا في الأصل. المتعارف عليه: رومنطيقيَّة. د.ج] رِوائيَّةً لا تَتَّفِقُ أصْلًا مَعَ أخْلاقِ مُعْظَمِ أهالي تِلْكَ المَدينَةِ، وطَبيعَتُهُم الواقعيَّةُ لا تُحيطُ الأشْياءَ، مَهْما كانَتْ جَميلةً وعاطِفِيَّةً، بإطارٍ مِنَ الخَيالِ والشِّعْر...

وكانَ المَفْروضُ في حلى، مُنْذُ وِلادَتِها في بَيْتٍ هادِئٍ ساكِنٍ، وفي وَسَطٍ مُطْمَئِنٍّ عِنْدَ أبَوَيْنِ مُتَحابَّيْنِ مُتَّفِقَيْنِ، وهِيَ الوَحيدَةُ

لَهُما ـ كان المَفْروضُ أنْ تَكونَ لَعوبًا طَروبًا في ذَلِكَ الوَقْتِ الذي كانَتْ فيه تَقولُ، وتُؤَكِّدُ، لِصَديقِها، إنَّ حُبَّها لَهُ جَعَلَها تَرْتَفِعُ عَنِ العَقْلِيَّةِ العادِيَّةِ المِسْكينَةِ التي تَعيشُ فيها مَعَ رفيقاتِها، وتَجِدُ في هذا الحُبِّ كُلَّ ما كانَتْ تَتوقُ إلَيْهِ مِنْ أمانٍ واكْتِفاءٍ وعاطِفَةٍ سامِيَة.

وفِعْلًا، قَبْلَ تِلْكَ الأيّامِ العَشْرَةِ، لَمْ تَكُنْ حلى فَقَطْ أحْلى بِنْتٍ في المَدينَةِ الصَّغيرَةِ بَلْ أسْعَدَ وأهْنَأَ بِنْت.

وفَجْأةً، انْقَلَبَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَها إلى شُجونٍ وعَصَبِيَّةٍ وتأوُّهاتٍ، وأجْهَدَ صَديقُها النَّفَسَ مُسْتَفْسِرًا مُسْتَخْبِرًا فكانَتْ، على طول، تُجيبُ الجَوابَ الغامِضَ الذي لا يَدُلُّ على شَيْءٍ: «لَيْسَ بي شَيْء». ولكِنْ كانَ، ولا شَكَّ، هُناكَ شَيْءٌ، لَمْ أسْتَطِعْ فَهْمَهُ رَغْمَ كُلِّ جُهودي... وَبَقيتُ زَمَنًا أتَساءَلُ عَنِ السَّبَبِ الذي جَعَلَها في تِلْكَ الحالَةِ الشَّجِيَّةِ القَلِقَةِ، وكُنْتُ بِدَوْري شَديدَ الاهْتِمامِ بِحالَتِها هذِهِ، وأخَذْتُ أُقارِنُ الدَّلائِلَ الأوَّلِيَّة لانْقِلابِها، فَوَجَدْتُهُ بَدَأَ في اليَوْمِ الثّاني مِنْ ذُيوعِ خَبَرِ الجَريمَةِ الفَظيعَةِ المُسْتَغْرَبَةِ التي أقْلَقَتِ البَلَدَ، وخَلَقَتْ في المَدينَةِ الصَّغيرَةِ مَوْجَةً مِنَ الاضْطرابِ والخَوْفِ، جَعَلَتْنا بأجْمَعِنا نَشْعُرُ بِرَهْبَةٍ خَفِيَّةٍ تُثيرُ الجَزَع.

وشاهَدْنا رِجالَ البوليس وقُضاةَ التَّحْقيقِ يأتون مِنْ بَيْروتَ تِباعًا، الواحِدَ وَراءَ الآخَرِ، يَتَكاتَفونَ على كَشْفِ الحَقيقَةِ، ويُفَتِّشونَ عَنِ الرَّجُلِ الذي اخْتَفى وضاع.

فلا شَكَّ أنَّهُ كانَ جَريمَةُ قَتْلٍ، وكانَ هُناكَ قاتِل. ولكِنْ... أيْنَ الجُثَّة؟

فَلِكَيْ تَكْتَمِلَ جَريمَةُ القَتْلِ، يَجِبُ أنْ يَكونَ هُناكَ قتيلٌ، أو

بالأحْرى جُثَّةُ القَتيلِ، إذْ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ على بالِ أحَدٍ أنَّ الرَّجُلَ الذي اخْتَفَى لا يَزالُ على قَيْدِ الحَياةِ، فَكُلُّ شَيْءٍ كان يَدُلُّ أنَّه اغْتيلَ ومات.

إنَّما أين هِيَ جُثَّتُه؟

وأخَذَتْ مفارِزُ البوليس، وَقَدِ انْضَمَّتْ إلَيْها جَمْهَرَةٌ مِنَ المَدَنِيّينَ المُتَطَوِّعينَ يُفَتِّشونَ عَنِ الجُثَّةِ في المَغائِرِ والأقْبِيَةِ والمَجاريرِ والغاباتِ ومَجْرى النَّهْر ـ كانوا يُفَتِّشونَ عَنِ الرَّجُلِ الذي اخْتَفى... وكانَ كُلُّ شَيْءٍ يَدُلُّ على أنَّهُ مَقْتول. ذَلِكَ أنَّ ابْنَةَ أخيهِ، الصَّبِيَّةَ الحَسْناءَ التي تَعيشُ عِنْدَهُ بَعْدَ وَفاةِ والِدَيْها، كانَتْ في ذَلِكَ الوَقْتِ قَدْ أيْنَعَتْ وَنَمَتْ رَشيقَةً هَيْفاءَ، مَليحَةَ الوَجْهِ والجَسَدِ لها فَمٌ أُرْجُوانِيٌّ، وصَدْرٌ عالٍ يَتَحَدّى النَّاظِرينَ، وَيَقْبَلُ تَحَدِّيهِ فِتْيانُ الحارَة، ولا يَسْتَطيعون إلَيْهِ وُصولًا.

فالعَمُّ كان يغَارُ على الفَتاةِ غَيْرَةً مُخيفَةً، يَحْرُسُها لَيْلًا ونَهارًا، فلا تَغْفُلُ عَيْنُهُ عَنْها، مِمّا دَعا الكَثيرينَ للافْتِراضِ أنَّه يَتَعَشَّقُها ويَخافُ عَلَيْها.

ولكِنْ، مُنْذُ حينٍ، قَبْلَ الجَريمَةِ، أخَذَ بَعْضُهُم يَشْتَبِهُ بِعَلاقةٍ بَيْنَ الفَتاةِ وبَيْنَ ذاكَ زيرِ النِّساءِ، الذي اشْتُهِر في المَدينَةِ بِحياتِهِ المِعْشاقَةِ، وظَرْفه، وحُسْنِ هِنْدامِه، وكَثْرَةِ مُغامَراتِهِ الغَراميَّةِ، مِمّا يُغْري النِّساءَ، حَتْمًا، وَيَجْعَلُهُنَّ يَتَمَنَّيْنَ وِصالَهُ وَحُبَّهُ، يَخْلَعْنَ عَلَيْهِ رِداءً مِنَ الأُرْجُوانِ الذي يَجْتَذِبُ القُلوبَ والشَّهَوات.

قلنا: وكانَ الرَّجُلُ الذي اخْتَفى، ولا شَكَّ، مَقْتولًا... وكانَتِ ابْنَةُ أخيهِ اسْتَيْقَظَت، بَعْدَ الهَزيعِ الأوَّلِ مِنْ تِلْكَ اللَّيلةِ على حَرَكَةٍ مُسْتَغْرَبَةٍ سَمِعَتْها في المَنْزِلِ، خافَتْ أوَّلًا، واضْطَرَبَتْ، وقيلَ،

بَعْدَ ذَلِكَ، عَنْ ثِقَةٍ، إنَّ الرَّجُلَ المِعْشاقَ كان نائِمًا بِقُرْبِها، وهو أيْضًا، جَزِعَ وقَلِقَ، خَوْفًا مِنْ أنْ يَكونَ العَمُّ اسْتَيْقَظَ وَقَدْ يأتي فيُفاجِئُهُما وَهُما في سَريرِ الحُبِّ فاسْتَكَنّا على نَفْسَيْهِما حتّى إذا هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ قامَتِ البِنْتُ إلى الغُرَفِ الباقِيَةِ مِنَ البَيْتِ تَتَفَقَّدُها، فَوَجَدَتْ غُرْفَةَ نَوْمِ عَمِّها خالِيَةً مِنْهُ، وكانَ كُلُّ شَيْءٍ مُرَتَّبًا في مكانِهِ، ما عدا الفِراشَ الذي كانَ يَدُلُّ عَدَمُ انْتِظامِهِ على أنَّ صاحِبَهُ تَرَكَهُ مُنْذُ حين.

وَتَفَقَّدتِ الفَتاةُ الصُّنْدوقَ الحَديديَّ الذي في زَاوِيَةِ الغُرْفَةِ وهي تَعْرِفُ أنَّ عَمَّها يَسْتَوْدِعُ فيه ثَرْوَتَهُ النَّقْدِيَّةَ البالِغَةَ سَبْعَةَ أو ثَمانِيَةَ آلافِ ليرةٍ ذَهَبيَّةٍ، وبَعْضَ الحِلى فَوَجَدَتِ الصُّنْدوقَ سَليمًا مِنْ كُلِّ عطَب.

واسْتَنْتَجَتِ الفَتاةُ مِنْ وَراءِ هذا، أنَّ عَمَّها رُبَّما خَرَجَ مِنَ البَيْتِ لِداعٍ لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَفْهَمَهُ، وهو لأوَّلِ مَرَّةٍ يَتْرُكُ المَنْزِلَ دونَ أنْ يَقولَ لها شَيْئًا.

وأما الرَّجُلُ الظَّريفُ فَقَدْ تدارى أمْرَهُ حالًا، خَوْفًا مِنَ المُفاجَآتِ، قَبْلَ عَوْدَةِ العَمِّ، وانْسَلَّ مِنْ سَريرِ العَشيقَةِ بَعْدَ أنْ أوْصاها أنْ تُغْلِقَ أبْوابَ البَيْتِ وتَنْتَظِرَ عَوْدَةَ ذَلِكَ العَمّ.

ولكِنْ، مضى اللَّيلُ ولَمْ يَرْجِعْ، أو بالحَرِيِّ رَجَعَ بَعْدَ عَشْرَةِ أيّامٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيلَةِ جُثَّةً هامِدَةً مُسَجّاةً وَسَطَ القاعَةِ على مَرْتَبَةٍ نَثروا الزُّهورَ فَوْقَها، وَقَدِ اجْتَمَعَ أهْلُهُ يَتَقَبَّلونَ التَّعازي وَيَسْتَعِدّونَ لِنَقْلِهِ إلى مَقَرِّهِ الأخير...

وخِلالَ تِلْكَ الأيّامِ العَشْرَةِ، بَيْنَ اخْتِفاءِ الرَّجُلِ والعُثورِ على جُثَّتِهِ، عاشَتِ المَدينَةُ، كما قُلْنا، في حالَةٍ مُتَأَرْجِحَةٍ قَلِقَةٍ غَيْرِ طَبيعيَّة.

كَيْفَ اخْتَفى... ولِماذا اخْتَفى؟
لَقَدْ كانَ مِفْتاحُ الصُّنْدوقِ الحَديديِّ مَفْقودًا أيْضًا.
وكانَ قَدْ خَطَرَ على بالِ رِجالِ البوليس والقُضاةِ أنْ يَكْسِروا الصُّنْدوقَ وَيَفْتَحوهُ عَنْوَةً، ولكِنَّهُم قالوا بالانْتِظارِ حتّى يَجِدوا الرَّجُلَ، فَقَدْ يَكونُ مِفْتاحُ الصُّنْدوقِ، على الأرْجَحِ، في جُيوبِه.
فَوَضَعوا الأخْتامَ الحَمْراءَ على ذَلِكَ الصُّنْدوقِ وأخَذوا يَتَفَقَّدونَها كُلَّ يَوْمٍ مِرارًا عَديدَة.
ولكِنْ أيْنَ هُوَ الرَّجُلُ، أو بالحَرِيِّ أيْنَ هِيَ الجُثَّة؟
وأيَّةُ عَلاقَةٍ بَيْنَ هَذِهِ الفَتاةِ، صَديقتي الحَسْناءِ، وَشُحوبِها واضْطِرابِها، وهَذِهِ الجُثَّةِ وصاحِبِها؟
ولِماذا صارَتْ بهذِهِ الحالَةِ في نَفْسِ اليَوْمِ الذي اخْتَفى فيهِ الرَّجُل؟
ما مِنْ أحَدٍ في العالَمِ، مِنَ الذين يَعْرِفون الصَّبِيَّةَ أو لا يَعْرِفونَها، كانَ بإمْكانِهِ الافْتِراضُ، وَلَوْ دَقيقَةً واحِدَةً، أنَّ للصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ علاقَةً ما، مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِجَريمَةِ قَتْله.
وَمَعَ ذَلِكَ، ويا لَلدَّهْشَة، كانَتْ تِلْكَ الفَتاةُ تَعْرِف أيْنَ هِيَ الجُثَّةُ ولا تَـتَكَلَّم!
ففي تِلْكَ اللَّيلةِ يَجِبُ أنْ تَـكونَ تاقَتْ إلى الحُبِّ وَوِصالِهِ، وَصَديقُها الحَميمُ غائِبٌ بَعيدٌ عَنْها، فأرِقَتْ وفَقَدَتْ هُدوءَها، وقامَتْ إلى الشُّرْفَةِ تُبَرِّدُ غليلَها، وتَسْتَنْشِقُ الهَواءَ الطَّلْقَ طالِبَةً إرْواءَ عَطَشِها، وذَلِكَ على التَّقْريبِ بَعْدَ السّاعَةِ الثّانِيَةِ مِنَ اللَّيلِ، فَشاهَدَتْ ثَلاثَةَ رِجالٍ يَمْشون بِصَفٍّ واحِدٍ على الطَّريقِ ويَتَعَثَّرونَ في مِشْيَتِهِم. إثْنانِ مِنْهُم، واحِدٌ إلى اليَمينِ، وواحِدٌ

إلى اليَسارِ يَتَأَبَّطانِ ذِراعَ الرَّجُلِ الثّالِثِ في الوَسْطِ، تأبُّطًا تَصَوَّرَتْهُ الفَتاةُ بالأكْثَرِ نَوْعًا مِنْ إسْعافِ رَجُلٍ سَكرانٍ يأخُذُهُ صَديقاهُ إلى بَيْتِهِ، واسْتَغْرَبَتِ الشَّيْءَ، وخافَتْ، وتَسَتَّرَتْ وَراءَ الجِدارِ الذي على طَرَفِ الشُّرْفَةِ وهِيَ تَسْتَرِقُ النَّظَرَ لِتَرى ما يَكون.

وكان مَكْتَبي، مَكْتَبُ الصِّحافيّ التّائه، بِقُرْبِ بَيْتِ الصَّبِيَّة، وَقَدْ يَكونُ هذا هو السَّبَبُ في تَعارُفِنا الوَثيقِ جِدًّا، وكان المَكْتَبُ على ضِفافِ النَّهْر... غُرْفَتانِ عالِيَتانِ تَقَعانِ فَوْقَ هُوَّةٍ كَبيرةٍ تُجَرُّ إلَيْها مِياهُ ومَجاريرُ البَلْدَةِ إلى النَّهْر.

وكان لِتِلْكَ الهُوَّةِ قَنْطَرَةٌ وَسيعَةٌ لها فُتْحَةٌ صَغيرَةٌ لِساقِيَةِ ماءٍ تَتَفَرَّعُ عَنِ السّاقِيَةِ الكَبيرةِ.

في هَذِهِ الفُتْحَةِ رمى الرَّجُلانِ الرَّجُلَ الثّالِثَ، الذي كان، ولا شَكَّ، مَيْتًا، وشاهَدَتِ الفَتاةُ مِنْ مَكْمَنِها كُلَّ شَيْءٍ...

وهُنا يَجِبُ أنْ تَتَصَوَّرَ حالَها بَعْدَ ذَلِكَ، وكَيْفَ أنَّها قَضَتِ السّاعاتِ الثَّلاثَ الباقِيَةِ لِطُلوعِ الفَجْرِ في جَزَعٍ وخَوْفٍ، لا تَجْسُرُ أنْ تُبْدِيَ أيَّةَ حَرَكَةٍ، حتّى ولا إيقاظِ والِدَتِها لإعْلامِها بِما جَرَى، وما كادَتْ تَرى نورَ الصَّباحِ حتّى نَهَضَتْ خائِفَةً مُضْطَرِبَةً، فأسْرَعَتْ وارْتَدَتْ أثْوابَها، ودونَ أنْ تُعْلِمَ والِدَتَها بشَيْءٍ، مَشَتْ إلى دَيْرِ الجزويت في تِلْكَ المَدينَةِ، وقَصَدَتْ رئيسَ الدَّيْرِ تَعْتَرِفُ لَهُ.

اعْتَرَفَتْ بِما رَأَتْ وشاهَدَتْ، وَسِرُّ الاعْتِرافِ عِنْدَ النَّصارى شَيْءٌ مُقَدَّسٌ فالذي يَبوحُ بِهِ تُحْرِقُهُ جَهَنَّمُ طيلَةَ الدُّهور، سواءً أكانَ الخُوريَّ الذي يَسْمَعُ الاعْتِرافَ، أم كانَ الشَّخْصَ الذي اعْتَرَفَ عِنْدَهُ، فلا يَجوزُ لأحَدِهِما أنْ يَقولَ لِلْغَيْرِ ما قالَهُ أو سَمِعَهُ أثْناءَ الاعْتِراف.

وهكذا أصْبَحَ السِّرُّ مَكْتومًا... وهكذا كانَ الكاهِنُ والفَتاةُ فَقَطْ يَعْرِفانِ أيْنَ هِيَ الجُثَّةُ، بَيْنَما جَميعُ قُوّاتِ البَلْدَةِ والحُكومَةِ تُفَتِّشُ عَنْها...

لَقَدْ كانَتْ تَحْتَ مَكْتَبي بالذّات، بل كانَتْ تَحْتَ الكُرْسِيِّ الذي أجْلِسُ عَلَيْهِ بمَكْتَبي، لا يَفْصِلُني عَنْها سِوى سَقْفُ الهُوَّة!

وهكذا... عَشْرَةُ أيّامٍ مُتوالِيَةٌ وأنا أعيشُ وأكْتُبُ، وأنْشُرُ الأخبارَ وأُعطي الآراءَ... وأنا جالِسٌ، لَيْسَ فَوْقَ بُركانٍ، بل فَوْقَ جُثَّة! جُثَّةِ الرَّجُلِ الذي اخْتَطَفَهُ صديقاهُ المَعْروفانِ مِنْ أهْلِ المَدينَةِ، بَيْنَما كانَتِ ابْنَةُ أخيهِ نائِمَةً في الغُرْفَةِ الثّانِيَةِ، وهِيَ على مَوْعِدٍ مَعَ الفَتى زيرِ النِّساء الذي تَكَلَّمْنا عَنْهُ، إذْ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ في المَدينَةِ رَجُلٌ تَتَعَشَّقُهُ الحِسانُ أكْثَرَ مِنْهُ.

اِخْتَطَفَ الصَّديقانِ الرَّجُلَ مِنْ فِراشِهِ وهُما يُهَدِّدانِهِ بالقَتْلِ، وذَهَبا بِهِ إلى بُسْتانٍ قريبٍ، حَيْثُ كانَ قَدْ بَدَأَ يَموتُ رُعْبًا وبَقِيَ واحِدٌ مِنْهُما يَحْرُسُهُ والسِّكّينُ بِيَدِهِ، وذَهَبَ الآخَرُ مَعَ مَفاتِيحِ الصُّنْدوقِ الحَديديِّ وكانَ قَدْ وَجَدَها في جَيْبِهِ، وفَتَحَهُ وحَمَلَ مِنْهُ كُلَّ ما فيه، وابْنَةُ أخيهِ تَنامُ هانِئَةً في الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ بَيْنَ أحْضانِ عَشيقِها.

سَبْعَةُ آلافِ ليرةٍ ذَهَبًا وحِلى وغَيْرُها.

وهُنا يَجِبُ القَوْلُ إنَّ ابْنَةَ أخِ القَتيلِ لَوْ أتَتْ بأقَلِّ حَرَكَةٍ لكانَ المُجْرِمانِ أسْكَتاها إلى الأبَد... كانا يَحْمِلانِ مُسَدَّسَيْنِ مُخيفَيْنِ وتَمَنْطَقَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بِسكّينٍ هائِلَة.

وفي الحَديقَة قَضى الشَّقِيّانِ على الرَّجلِ، واقْتادا جُثَّتَهُ بالطَّريقَةِ التي ذَكَرْنا، والتي أرادا بها إيهامَ الذي قَدْ يَتَلاقى بِهِما أنَّ الرَّجُلَ

الثّالِثَ سَكْرانُ ثَمِلٌ وهُما يُساعِدانِهِ على السَّيْرِ، وسارا بِهِ إلى الهُوَّةِ التي تَحْتَ مَكْتَبي، وكان بَيْتُ الصَّديقَةِ المَعْلومَةِ يُطِلُّ عَلَيْها.

وأخيرًا... اكتُشِفَتِ الجُثَّةُ وقَبَضَ البوليس على القاتِلَيْنِ، دونَ أنْ يَتَكَلَّمَ الخوريُّ ولا الصَّبِيَّةُ، وظَلَّ هكذا سِرُّ الاعْتِرافِ مَحْفوظًا إلى النِّهايَة.

وَقَدْ كان مِنَ الطَّبيعِيِّ في التَّفْتيشِ الذي قامَ به البوليس والجَنْدُرمة والأهالي أنْ يَنْتَهوا أخيرًا إلى تِلْكَ الهُوَّة.

وما رَوَتِ الصَّبِيَّةُ حِكايَةَ الرَّجُلِ الثّالِثِ، حِكايَةَ الجُثَّةِ، وقالَتْ إنَّها شاهَدَتْها بَيْنَ الرَّجُلين، إلّا بَعْدَ أيّامٍ، ساعَةَ عَرَفَ النّاسُ كلَّ شَيْءٍ وعِنْدَما لَمْ يَعُدِ الكَلامُ عمّا رَأَتْ خَطيئَةً تُحْرِقُ صاحِبَها بِنارِ جَهَنَّمَ طيلَةَ الدُّهور.

وحَكَتْ لِيَ الصَّبِيَّةُ الحِكايَةَ مِنْ أوَّلِها لآخِرِها، وقالَتْ إنَّ الكاهِنَ اسْتَحْلَفَها بالمَسيحِ أمامَ صليبِه أنْ لا تَقولَ شَيْئًا.

ولكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أن تُخْفِيَ عَنّي، أنا، الشَّيْءَ أطْوَلَ مِمّا فَعَلَتْ، وكانَ ذَلِكَ قَبْلَ العُثورِ على الجُثَّةِ، وطَبْعًا حَفِظْتُ السِّرَّ كما طَلَبَت.

وظَلَّ حَديثُ الرَّجُلِ الذي اخْتَفى يَمْلأُ البَلْدَةَ، على أشْهُرٍ وأشْهُرٍ، يَرْوي النّاسُ حِكايَةَ مَقْتَلِهِ مَعَ تَفاصيلِها الفَظيعَةِ، فلا يَتْرُكونَ شَيْئًا مِنْ خَفايا تِلْكَ الجَريمَةِ إلّا ويَتَكَلَّمونَ عَنْه... ما عدا شَيئًا واحِدًا كانَ عَلَيَّ وعلى الفَتاةِ طَبْعًا، أنْ نَحْرُصَ بِكُلِّ قُوانا على إخْفائِهِ عَنِ النّاس ـ كانَ عَلَيَّ وعلى الفَتاةِ أنْ نَسْكُتَ إلى النِّهايَةِ، وَلَوْ أنَّ البوليسَ لَمْ يَجِدِ الجُثَّةَ لَظَلَّتِ الجَريمَةُ دونَ جَزاءٍ ولكانَ هُناكَ

قَتَلَةٌ ولكِنْ غَيْرُ مَعْروفين.

وهكذا، في خِلالِ كُلِّ الوقائعِ والمُغامَراتِ والمَعارِكِ العاطفيَّةِ والسِّياسِيَّةِ الكَثيرةِ التي خُضْتُها، يَجِبُ أنْ تَـكونَ هُناكَ مُفاجَآتٌ مُدْهِشَةٌ فَوْقَ العادَةِ لا تَقَعُ إلّا معي.

فهُناكَ رِجالٌ، ولحُسْنِ الحَظِّ قليلو العَدَدِ، جَعَلَتْهُمُ السَّماءُ يَعيشونَ في بَحْرٍ فَيّاضٍ مِنَ الأحْداثِ والمُسْتَغْرَبات.

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

الرَّجُل الذي لا يشيخ

كان ذَلِكَ في عهد الصِّبا ـ مَعَ أنَّ الصِّبا، بَعْدَ تَعَدُّدِ السِّنينِ، لا يَزالُ مِنْ نَصيبِنا.

فإنَّما الإنْسانُ لا يَشيخُ طالَما يُؤْمِنُ أنَّهُ لا يَزالُ فَتِيًّا، ومِنَ الأشْياءِ العالِيَةِ الثّابِتَةِ أنَّ الإنْسانَ عِنْدَما يأخُذُ بالاعْتِقادِ أنَّهُ شاخَ تَراه فَجْأَةً يَحْني ظَهْرَهُ، وَتَسْقُطُ أسنانُهُ، وَيخِفُّ نَظَرُهُ، وتَتَراخى رُجولِيَّتُهُ، ويَبْدَأُ بالخَرَف.

ولا شَكَّ أنَّني بَيْنَ الرِّجالِ القَلائِلِ الذين لا يُمْكِنُهُم أنْ يَشيخوا، بل أنا مِنَ الذين يَشْعُرونَ أنَّ الشَّيْخوخَةَ، وحتّى الكُهولَةَ، مَهْما طالَ العُمْرُ، لَنْ تكونَ مِنْ نَصيبِهِم، فَطالَما أنَّ القَلْبَ في العِشْرين، فالسُّنونُ لا تَعْمَلُ مَعَهُ شَيْئًا ولا تَمْنَعُهُ مِنْ أنْ يَخْفُقَ خَفَقانًا حارًّا شُعورًا واشْتِهاءً.

ولا شَكَّ، مِنْ جانِبٍ آخَرَ، أنَّ في العالَمِ رِجالًا ونِساءً، قَليلونَ أيْضًا، أتَوْا، ويأتونَ إلَيْهِ، تَحْتَ شارَةِ الحُبِّ، فكأنَّهُم يُخْلَقونَ ويُخْلَقُ الحُبُّ مَعَهُم، فيَكونُ هذا مِنْ مُسْتَلْزَماتِ حَياتِهِم، ورَفيقَها طيلَةَ العُمْر.

هؤلاءِ، أكْثَرُهُم، يَكونونَ، عادِيًّا، مِنْ أهْلِ الخَيالِ والشِّعْرِ، ومِنْ عُشّاقِ الجَمالِ والطَّبيعَةِ والشَّهَوات.

وهؤلاءِ يُطْلِقُ عَلَيْهِم عُلَماءُ النَّفْسِ اسْمَ «لاڤرز» (*Lovers*) بالإنكليزِيَّة، أي العُشّاق، فَقَطْ بِمَعْنى الذين تكونُ السَّماءُ جَعَلَتِ العِشْقَ ضَرورَةً مِنْ ضَروريّاتِ حَياتِهِم.

وذَلِكَ، بِطَبيعَةِ الحالِ، تكونُ السَّماءُ أيْضًا قَدْ أعْطَتْهُم مِيزاتٍ تَجْعَلُهُم عُشّاقًا ومَعْشوقينَ معًا، وهؤلاءِ هُمُ الأكْثَرُ حَظًّا بَيْنَ النّاسِ، تَأْتي الكُهولَةُ ثُمَّ الشَّيْخوخَةُ إلَيْهِم ولا يَشْعُرونَ بِقُدومِها، حتّى إنَّها لا تَطْبَعُهُم بِتَجاعيدِها، وبَياضِ شَعْرِها، وارْتِخاءِ جَسَدِها، ويَظَلّونَ، وَهُمْ بَيْنَ أحْضانِ الحِسانِ، يَجِدونَ أنْ لا شَيْءَ تَبَدَّلَ مَعَهُم عَمّا كانوا عَلَيْهِ في زَمَنِ الشَّباب.

أقولُ كُلَّ هذا لأنَّ المُلاحِظينَ الذين يَعْرِفونَني جَيِّدًا يَجِدونَني المِثالَ الصَّريحَ الجَلِيَّ لِمِثْلِ هؤلاءِ الرِّجالِ الذين تَشيخُ الأرْضُ وَهُم لا يَشيخون.

وَقَدْ يكونُ، كما لاحَظْتُ، دَوامُ التَّعَشُّقِ عِنْدَ الإنْسانِ الحافِظَ الأكْبَرَ لِقُوَّتِهِ، وأفْضَلَ مِنْ جَميعِ الڤيتاميناتِ والبوغولسكاتِ وحُقَنِ فورونوف، وحَشيشَةِ الزَّلّوعِ المَعْروفَةِ بِبِلادِنا بأنَّها تُعيدُ الشَّيْخَ إلى صِباهُ إذا شَرِبَ عَصيرَها مَغْلِيًّا على طَريقَةِ الشّاي.

وهي حَشيشَةٌ تَنْبُتُ بنَوْعٍ خاصٍّ في مَزْرَعَةِ حوش الحريمة بالبِقاع، لِصاحِبِها الأسْتاذِ الكَبيرِ إلياس بك نمّور، وإذا كانَ سِيادَتُهُ يَسْتَعْمِلُها، كما يَجِبُ أنْ نَفْتَرِضَ، فهِيَ ولا شَكَّ نافِعَةٌ، إذ إنَّهُ وَقَدْ كَبُرَ، زادَ اللّهُ عُمْرَهُ، ولا يَزالُ، على الأقَلِّ بِهَيْئَتِهِ وقابِلِيَّتِهِ الغَرامِيَّةِ يَحْتَفِظُ بالكَثيرِ مِنْ مَعالِمِ الشَّبابِ واشْتِهاءاته.

والآنَ نَعودُ ونَقولُ: إنَّ المُغامَرَةَ التي نَرْوي حِكايَتَها هُنا تَرْجِعُ لِعَهْدِ الصِّبا، مَعَ أنَّنا، كما قُلْنا أعْلاهُ، نَعْتَبِرُ أنَّ عَهْدَ الصِّبا لا يَزالُ

يُرافِقُنا، ونَجِدُ مِنَ الظُّلْمِ والجَوْرِ أنْ يَتَخَلّى عَنّا، إذْ إنَّ السَّماءَ لَمْ تَخْلُقْ رَجُلًا قامَ بِواجِبِهِ نَحْوَ عَهْدِ الصِّبا، وأكْرَمَهُ، وتَعَبَّدَ إلَيْهِ، وأحَبَّ مَلَذّاتِهِ، أكْثَر منا.

لهذا لا يَزالُ يَرْعانا حتّى الآنَ، ولَيْسَ هُناكَ ما يَـقولُ إنَّهُ لَنْ يُداوِمَ على رِعايَـتِنا كَثيرًا أيْضًا.

•

كانَ لم يَمْضِ على الفَتاةِ الصَّبِيَّةِ، القَرَوِيَّةِ التي يَطْفَحُ الدَّمُ مِنْ وَجْهِها، ويَفيضُ الاشْتِهاءُ مِنْ عَيْنَيْها، وَيَتَفَتَّحُ فَمُها ظَمْآنَ للقُبُلاتِ ـ كانَ لَمْ يَمْضِ على زَواجِها في الوادي الجَميلِ أكْثَرَ مِنْ ثلاثَةِ أيّامٍ، عِنْدَما أخَذَتْ تَـتَمَلْمَلُ وَتَشْمَئِزُّ وَتَـتَباعَدُ مِنَ الرَّجُلِ الذي تَزَوَّجَتْهُ، وكانَ مُهاجِرًا، وعلى سَعَةٍ، جاءَ لِبِلادِهِ يُفتِّشُ عَنْ عَروسٍ لَهُ، فَوَجَدَها في تِلْكَ الصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ الفَقيرةِ التي اعْتَبَرَتْ، كما قالَ لها أهْلُها، أنَّ المالَ يُغَطّي بَشاعَةَ الرَّجُلِ، وكِبَرَ سِنِّهِ، وضَخامَةَ جُثَّتِهِ، وفَظاظَةَ أنْفِهِ، وفَظاعَةَ كلامِه. فإنَّما المُهاجِرُ والثّلاثونَ سَنَةً التي قَضاها في أميركا لَمْ تُبَدِّلْ فيهِ شَيْئًا، عمّا كان عَلَيْهِ مِنْ شَراسَةٍ وَهَمَجِيَّةٍ وبشاعَةٍ يَوْمَ تَرَكَ لُبنانَ وهاجَر...

لَمْ يَتَبَدَّلْ فيهِ شَيْءٌ سِوى أنَّهُ عادَ بَعْدَ الثَّلاثين سَنَةً ومَعَهُ مَصاري ـ ثلاثَةُ إلى أرْبَعَةِ آلافِ ليرةٍ ذَهَبيَّةٍ مِمّا كان في ذَلِكَ الزَّمانِ، في قُرانا، ثَرْوَةً مُحْتَرَمَة.

تَزَوَّجَ مِنْ هُنا، وأخَذَتِ العَروسُ بَعْدَ لَيْلَةٍ واحِدَةٍ مِنْ زَواجِها تُفَتِّشُ عَنْ عَشيقٍ يُعْطيها ما لَمْ تَجِدْهُ بَيْنَ أحْضانِ هذا الذِّئْبِ الجائِعِ الذي كانَ، إذا ما ارْتَوى مِنْها، بَعْدَ أنْ يَكونَ قَدْ أنْهَكَها،

يَرْتَمي بالقُرْبِ مِنْها، ويَنامُ نَوْمَ الكواسِرِ، يَغُطُّ بِنَوْمِهِ غَطيطًا كانَ الجيرانُ على بُعْدِ عَشَراتِ الأمْتارِ يَسْمَعونَهُ قَوِيًّا فَظيعًا.

فَأيْنَ أحْلامُ الفَتاةِ الصَّبِيَّةِ القَرَوِيَّةِ في الأميرِ الفَتّانِ الفَتى الحُلْوِ الظَّريفِ التي كانَتْ تَنْتَظِرُهُ؟

وأخَذَتْ، عِنْدَما تَنْظُرُ إلى صَدْرِ زَوْجِها الذي اخْتَفَتْ عريته في غِطاءِ الشَّعْرِ الكَثيفِ المُخيفِ، تقرف وتَشْعُرُ أنَّ فَضيلَتَها، وأمانَتَها الزَّوْجِيَّةَ، شَيْءٌ هَزيلٌ جِدًّا لا يُمْكِنُها أنْ تُحافِظَ عَلَيْهِما أكْثَر مِنْ ثلاثَةِ أيّام.

وفِعْلًا، في اليَوْمِ الثّالِثِ، عِنْدَ صِياحِ الدِّيكِ، كانَتِ الحَسْناءُ تَـتَعَرَّفُ لِمَلَذّاتِ الحُبِّ التي كانَتْ تَحْلُمُ بِها قَبْلَ زَواجِها، وذَلِكَ بَيْنَ أحْضانِ الشّابِّ الذي كانَ يَنْتَظِرُ سُقوطَها، ولكِنْ لَيْسَ بالسُّرْعَةِ التي جرى الشَّيْءُ فيها.

وَقَدْ كانَتْ قَبْلَ زَواجِها تَعْرِفُهُ عَشيقًا لِصَديقَةٍ لها، تَـتَحَدَّثُ عَنْهُ تِلْكَ الصَّديقَةُ دَوْمًا بالإعْجابِ، وتَعْتَزُّ بِحُبِّها وَتَعَلُّقِها بِهِ، وتُفاخِرُ بِتَغَلُّبِها على باقي الحِسانِ في الوادي، اللَّواتي كُنَّ يُزاحِمْنها عَلَيْهِ، ولم تَظْفَرْ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِهِ.

وكان، طَبْعًا، ذَلِكَ العَشيقُ، صاحِبَ هَذِهِ المُغامَرَة.

ولكِنْ، كَيْفَ صارَ زبون العَروسِ الجَديدَةِ، بَعْدَ أنْ كانَ قَبْلَ زَواجِها لا يَحْفَلُ بِها ولا يُعيرُها أدْنى اهْتِمامٍ، ولا يَجِدُ فيها كما لا يَجِدُ في غَيْرِها مِنْ بناتِ الوادي واحِدَةً أفْضَلَ مِنَ العَشيقَةِ التي كانَتْ لَهُ، والتي كانَ قَدِ انْتَقاها عَنْوَةً بَيْنَ جَميعِ أتْرابِها، وفازَتْ عَلَيْهِنَّ جَميعًا لَيْسَ فَقَطْ لِما كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَلاحَةٍ ونَباهَةٍ، بَلْ وخُصوصًا لأنَّها كانَتْ بِوَجْهٍ أوَّلِيٍّ نَظيفَةً جِدًّا، يَكادُ الحَشيشُ

يَنْبُتُ على جِسْمِها قَدْرَ ما كانَتْ تَغْتَسِلُ يَوْمِيًّا، في وَقْتٍ كانَتْ فيه مُعْظَمُ بَناتِ القُرى يَغْتَسِلْنَ غالِبًا كُلَّ ثَلاثينَ يومًا مَرّةً واحِدَةً وذَلِكَ بِظروفٍ شَهْرِيَّةٍ خاصَّةٍ بالنِّساء.

وكانَتْ دَوْمًا تَرْتَدي أثوابًا تَحْتانِيَّةً غايةً في الأناقَةِ، تَهْتَمُّ بِها وتَنْتَقيها مَعَ عَدَمِ سَعَةِ يَدِها، ناعِمَةً جِدًّا ومِنْ أحْسَنِ جِنْس، مِمّا كانَ يَجْعَلُها هكذا مُضْطَرَّةً أنْ تُهْمِلَ أثْوابَها الخارِجِيَّةَ عِنْدَما تَقْتَضي الحالَةُ، وذَلِكَ في الوَقْتِ الذي كانَتْ فيه أترابُها يَعْتَنينَ بأثْوابِهِنَّ الخارِجِيَّةِ قَدْرَ ما يُمْكِنُهُنَّ ولا يُقِمْنَ وَزْنًا لأثْوابِهِنَّ الدّاخِلِيَّةِ التي تكونُ غالِبًا مِنَ الأقْمِشَةِ الرَّخيصَةِ الخَشِنَةِ غَيْرِ المُشَجِّعَةِ والتي تَجْعَلُ الرِّجالَ يَنْفِرونَ مِنْهُنّ.

ومَعَ ذَلِكَ، ففي اليَوْمِ الثّالِثِ لِعُرْسِ الفَتاةِ التي نَتَكَلَّمُ عَنْها أصْبَحْتُ عَشيقَها...

كان ذَلِكَ بِطَريقَةٍ فُجائِيَّةٍ جِدًّا طَبْعًا.

وعِنْدَما أجَبْتُ طَلَبَ الصَّبِيَّةِ كُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أنَّني لَنْ أجِدَ بَيْنَ أحْضانِها غَيْرَ القَليلِ مِنَ البَهَجاتِ التي كانَتْ عَشيقَتي الحَسْناءُ تُعطيني إيّاها.

وللحَقيقَةِ، أيْضًا، كُنْتُ في ذَلِكَ الوَقْتِ لا أُحِبُّ كثيرًا خِيانَةَ عَشيقَتي، ولَمْ أكُنْ وَصَلْتُ لِلْكَمالِ الذي يَجْعَلُني اليَوْمَ أعْتَبِرُ أنَّ خِيانَةَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ، أو لِعَشيقَتِهِ، فيها اكْتِفاءٌ كبيرٌ لِكرامَتِهِ ولَذَّةٌ خاصَّةٌ، وَتُعَبِّرُ عَنِ اسْتِقْلالِهِ واحْتِرامِهِ لِحُرِّيَّتِه.

فإنَّما أكْثَرُ الرِّجالِ يَخونونَ زَوْجاتِهِم أو عَشيقاتِهِم المَحْبوباتِ مِنْهُم كَيْما يُثْبِتوا لأنْفُسِهِم أنَّهُم لَيْسُوا مُسْتَعْبَدين لَهُنَّ ولَيْسوا وَقْفًا عَلَيْهِنَّ، مِمّا هُوَ مِنْ مَعالِمِ الاسْتِقْلالِ والحُرِّيَّة.

في ذَلِكَ المَساء كُنْتُ عائِدًا مِنَ «السَّرْكل» إلى مَوْعِدٍ مَعَ صَديقَتي.
أتكَلَّمُ هُنا عَنْ سركل مَدينَةِ الوادي الأنيسِ الطَّريفِ الذي قَضَيْتُ فيهِ أجْمَلَ سَنَواتِ الشَّبابِ وخَسِرْتُ فيه أكْثَرَ أمْوالِ الأهْلِ والنّاس.
كُنْتُ عائِدًا مِنَ السَّرْكل، وكانَ ذَلِكَ عِنْدَ الغُروب تَقْريبًا، وكانَتِ العَيْنُ لا تَزالُ تَتَمَيَّزُ الأشْياءَ، وكانَ عَلَيَّ كَيْما أصِلُ إلى المَكانِ الذي أقْصِدُهُ أنْ أمُرَّ بالقُرْبِ مِنْ بَيْتِ عَروسِ الثَّلاثَةِ أيّام، وكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ أنْظُرَ إلى نافِذَةِ غُرْفَتِها التي تُطِلُّ على الطَّريقِ ولا تَعْلو عَنْها غَيْرَ مِتْرٍ ونِصْفٍ فَقَطْ، فإذا هِيَ هُنالِكَ، وإذا هي تَبْتَسِمُ لي، وتَهُمُّ بالتَّحَدُّثِ مَعي بِطَريقَةٍ مُشْتاقَةٍ مِمّا جَعَلَني أتأكَّدُ أنَّ عَريسَها الوَحْشَ لَيْسَ هُناكَ، وكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ ساعَتَئِذٍ أنْ أُمازِحَها عَنْ زَواجِها، وأسْأَلَها بِعباراتٍ لَبِقَةٍ عَنِ اللَّيالي الثَّلاثِ، وأقولَ لها إنَّني كُنْتُ عاتِلًا هَمَّها، خائِفًا عَلَيْها وعلى صِحَّتِها مِنْ شَراسَةِ ذَلِكَ العَريسِ العَنْتَرِيّ.
ورأيْتُها تَضْطَرِبُ ولا تَضْحَكُ، بل تَكادُ تَبْكي، وتَظْهَرُ جَميعُ دَلائِلِ التَّعاسَةِ واليَأْسِ على ملامِحِها.
وأرادَتِ الكلامَ، ولكِنَّ صَوْتَها كان أجَشَّ لِدَرَجَةٍ لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أفْهَمَ ما تَقول.
وَمَدَدْتُ لَها يَدي أُريدُ إثْباتَ صَداقَتي لَها، فأخَذَتْها بِيَدِها المُشْتَعِلَةِ المُتَأَجِّجَةِ التي تَنِمُّ عَنِ النّارِ التي تَتَآكَلُ جَسَدَها، وشاهَدْتُ في عَيْنَيْها نَظَراتِ تَوَسُّلٍ وَرَجاءٍ وجَزَعٍ واشْتِهاءٍ جَعَلَتْني، وأنا المُسْتَهْتِرُ الوَقِحُ الذي يَرْمي نَفْسَهُ بالهَلاكِ إكْرامًا لِعَيْنٍ ساحِرَةٍ ولابْتِسامَةٍ شَهِيَّةٍ، أقْفِزُ مِثْلَ لَمْحِ البَصَرِ إلى النّافِذَةِ

ثُمَّ إلى الغُرْفَةِ، ثُمَّ إلى الوِصالِ وَقَدْ دَعَتْني إلَيْهِ الفَتاةُ بجَميعِ الأدِلَّةِ والحَرَكاتِ والوَسائِل.

وطَبْعًا لَمْ يَكُنْ هُناكَ غَيْرُ طريقةٍ ناجِعَةٍ وَحيدَةٍ لِجَعْلِ الصَّبِيَّةِ تَـنْسى خَيْبَةَ أمَلِها وشَقاءَها في زَواجِها التَّعِس.

وبِطَبيعَةِ الحالِ نَسَتْ كُلَّ شَيْءٍ حتّى إنَّها يَجِبُ أنْ تكونَ نَسَتِ الرَّجُلَ المُخيفَ الذي اقْتَرَنَ بِها عِنْدَما تَحاضَنّا بِلَهْفَةٍ وشَبَقٍ وأخَذْنا نَعْمَلُ الحُبَّ، تَمامًا حَسْبَ ما كانَتْ تَـتَصَوَّرُهُ، فَتضيعُ في نَشْوَةِ وِصالِها لِدَرَجَةٍ لا هِيَ ولا أنا فَطِنّا لِلْوَقْتِ والمَخاطِرِ التي كُنّا عُرْضَةً لها، إذْ في أيِّ وَقْتٍ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَعودَ الزَّوْجُ الفَظُّ ويُفاجِئَنا مَعًا وهُناكَ المُصيبَةُ المُفْجِعَة.

ولكِنْ، عِنْدَما يَكونُ هُناكَ شابّانِ في أوَّل عُنْفُوانِ الصِّبا، وفي أشَدِّ حالاتِ الشَّبَقِ والهُيامِ، وفي مَباهِجِ الوِصالِ، يَفْقِدانِ كُلَّ بَصيرَةٍ وَكُلَّ احْتِرازٍ ويَهيمانِ في عالَمٍ غَيْرِ هذا العالَمِ ـ في عالَمٍ مَليءٍ بالمَلَذّاتِ والسَّعادَة.

وعاوَدْنا الكَرَّةَ بِضْعَةَ أيّامٍ، وذاتَ مَساءٍ، ونَحْنُ في أشَدِّ حالاتِ الهَوى، وفَجْأةً، ودونَ أقَلِّ تَنْبيهٍ، فُتِحَ البابُ وَقَدْ نَسِيَتْهُ الصَّبِيَّةُ وَلَمْ تُقْفِلْهُ بالمِفْتاحِ، وَدَخَلَ الرَّجُلُ عَريسُ الثَّلاثَةِ أيّام.

وَلَوْ أنَّ الدَّهْشَةَ لَمْ تَجْعَلْهُ يَجْمُدُ مَكانَهُ بِضْعَ ثَوانٍ، وَقَدْ يَكونُ أضاعَ تَفْكيرَهُ لِلْمَشْهَدِ الذي كانَ يَتَمَثَّلُ أمامَهُ، لكانَ هَجَمَ على الفَتى الخادِعِ الوَقِحِ ومَزَّقَه.

ولكِنَّ هَذِهِ البِضْعَ ثَوانٍ التي جَمَدَ فيها، تَرَكَتْ لِيَ الوَقْتَ الكافي لأنْ أقْفِزَ مِنَ النّافِذَةِ قَبْلَ أنْ يَطالَني الزَّوْجُ المَخْدوعُ، وإنَّما، إذا كانَ صارَ حِينَئِذٍ عِنْدَ الفَتى المَعْشوقِ الوَقْتُ الكافي لِيَقْفِزَ مِنَ

الشُّبّاكِ إلى الخارِجِ، لم يَصِرْ عِنْدَهُ وَقْتٌ لأنْ يَحْمِلَ أثوابَهُ مَعَهُ،[1] وَقَدْ كانَ، كما كانَتِ الصَّبِيَّة، بِثَوْبِ آدَمَ وحَوّاء.

وشاهَدَ أهالي الوادي في ذَلِكَ المَساءِ، والوَقْتُ كانَ لا يَزالُ غَسَقًا، فتًى يَجْري كالغَزالِ في الأزِقَّةِ والشَّوارِعِ، وبالزّلْط، مِمّا لَمْ يَكُنْ مَنْظَرًا سَيِّئًا مُطْلَقًا للنِّسْوانِ اللَّواتي شاهَدْنَهُ[2]، وذَلِكَ لأنَّ جِسْمَ الفَتى كانَ مَمْشوقًا وجَميلًا، ولكِنْ مِمّا جَعَلَ الفَضيحَةَ المُخيفَةَ مُضْحِكَةً جِدًّا أيْضًا، قضى أهالي الوادي الأشْهُرَ والأشْهُرَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَحَدَّثونَ بِها.

وهكذا هَرَبَ كَلْبُ العَرَب... واسْتَطاعَ في طَريقِهِ عِنْدَما وَصَلَ لِظاهِرِ المَدينَةِ أنْ يَسْتَعينَ بأثوابِ أحَدِ أصْدقائِهِ؛ ارْتداها، واسْتَقْرَضَ مِنْهُ مالًا، واسْتَطاعَ اللَّحاقَ بالقِطارِ الذي مَرَّ في ذَلِكَ الوَقْتِ مِنْ هُناكَ ذاهِبًا للشّام.

وكانَتْ دِمَشْقُ في ذَلِكَ الحينِ تَعِجُّ بالجُيُوشِ التُّرْكِيَّةِ، وكانَتْ قد احْتَشَدَتْ هُناكَ في حَمْلَةٍ تَقومُ بها على جَبَلِ الدُّروزِ، وكان جَبَلُ الدُّروزِ أيْضًا، كَعادَتِهِ القَديمَةِ، كُلَّ عَشْرِ سَنَواتٍ، يُعْلِنُ عِصْيانًا جَديدًا على الدَّوْلَة.

واسْتَأْنَسَ المَعْشوقُ الهارِبُ بِجَميعِ هؤلاءِ الضُّبّاطِ والعَساكِرِ يَقْضي كُلَّ الوَقْت بَيْنَهُم، مُسْتَدْرِكًا هكذا غَضَبَ الرَّجُلِ المُخيفِ الذي كانَ، ولا شَكَّ، يُفَتِّشُ عَنْهُ، ومُؤَكَّدًا، لِيَقْتُلَهُ... وكانَتْ تَصِلُني أخْبارُ جُنونِهِ وتَهْديداتِهِ المُخيفَة.

وطَبْعًا كانَ هاجِسُ العاشِقِ الهارِبِ الأوَّلُ في هَذِهِ الحالَةِ أنْ

---

(١) «ترجمة فوريَّة» لا تحتاج إلى بيان.

(٢) في الأصل شاهَدْناهُ [د.ج].

يَخْلُصَ بِجِلْدِهِ، ويُنْقِذَ نَفْسَهُ، ثُمَّ كانَ هاجِسُهُ الثّاني ماذا قَدْ يَكونُ جَرَى للصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ التي كانَ المَعْشوقُ اكْتَشَفَ فيها، وهو يَتَحَظّاها، بَراكينَ مُشْتَعِلَةً وكُنوزًا مُحْرِقَةً، وكانَ قَدْ تَرَكَها عِنْدَما هَرَبَ في هَلَعٍ فَظيع...

وأخَذْتُ، أنا المغامِرَ الجَبانَ، أنْتَظِر.

وكُنْتُ، طَبْعًا، أرْسَلْتُ للأهْلِ أخْباري على أنْ يَحْذَروا البَوْحَ بالمَكانِ الذي لَجَأْتُ إلَيْه.

وعَرَفْتُ أنَّ الصَّبِيَّةَ عادَتْ إلى أهْلِها، بَعْدَ الفَضيحَةِ، وبَعْدَ أنْ حاوَلَ زَوْجُها قَتْلَها، وَقَدِ اجْتَمَعَ الحَيُّ يُنْقِذُها مِنْه.

وعَرَفْتُ أنَّ الرَّجُل أخَذَ يُفَتِّشُ عَنّي في بَيْروتَ والقُرى اللبنانيَّةِ وهو يَتَوَعَّدُ بأنَّهُ سَيَقْضي عَلَيَّ، وَلَوْ كُنْتُ فَوْقَ طَيِّ الغَمام...

ومَضَتْ عَلَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ أرْبَعَةُ أشْهُرٍ، وأنا شارِدٌ في أنْحاءِ البِلادِ والرَّجُلُ يُطارِدُني، وكُنْتُ قَدْ تَرَكْتُ دِمَشْقَ وجِئْتُ إلى جَبَلِ لُبنانَ أجوبُ قُراهُ وأكْتُبُ مُذَكِّراتي عَنْه ـ وهي المُذَكِّراتُ التي ظَهَرَتْ بِكتابِ **أعيش مع الآلهة** عَنِ القِدّيسينَ اللبنانيّين وحِكاياتِهِم الطَّريفَة.

وأخيرًا تَدَبَّرَتِ الأُمورُ بِطَريقَةٍ فُجائِيَّةٍ، إذْ إنَّ الرَّجُلَ، ذاتَ صَباحٍ، أعادَ زَوْجَتَهُ إلَيْهِ بَعْدَ أنْ تَوَسَّطَ لها جَميعُ ذَواتِ المَدينَةِ الصَّغيرَةِ، وفي اليَوْمِ نَفْسِهِ رَكِبَ وإيّاها البَحْرَ، وسافَرَ الاثْنانِ إلى أميركا.

ولا شَكَّ أنَّ الصَّبِيَّةَ، طيلَةَ سَنَواتٍ، كانَتْ لا تَنْسى الفَتى الذي هَرَبَ مِنْ سَريرِها بالزِّلْط.

وأنا مِنْ جِهَتي ظَلَلْتُ وَقْتًا طَويلًا أُحِسُّ بِطَعْمَةِ وِصالِها باقِيَةً تَحْتَ لِساني... ولكِنْ بِقُشَعْريرَةٍ مِنَ الخَوْفِ عِنْدَما كُنْتُ أُفَكِّرُ

كَيْفَ كانَ الرَّجُلُ يُمَزِّقُني إرَبًا إرَبا لَوِ اسْتَطاعَ الوصولَ إلَيّ. وظَلَّ أهالي الوادي، طيلَةَ سَنواتٍ، أيْضًا، يَذْكُرونَ ذَلِكَ العاشِقَ الهارِبَ العُرْيانَ يَجْري كالغَزالِ في الأزِقَّةِ، وهُمْ يَضْحَكون...

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

قَصْرُ الدَّمِ والغَرام والسِّياسَة

في برمّانا، المَعْدودَةِ أرْقى مَصْيِفٍ في جَبَلِ لبنان، وأكْثَرَ القُرى اللبنانيَّةِ ثَقافَةً، إذْ تَسْمَعُ فيها، أيُّها السّائِحُ، الإنكليزيَّةَ قَدْرَ ما تَسْمَعُ فيها العَرَبِيَّةَ، وإذْ لَيْسَ بَيْنَ أهْلِها، وعَدَدُهُم يَتَجاوَزُ الأرْبَعَةَ آلافٍ، أُمِّيٌّ واحِدٌ، بأجْمَعِهِم يَقْرَؤُونَ ويَكْتُبون... مِنْهُم بِفَصاحَةٍ وعِلْمٍ وفَهْمٍ، بأقْرَبِ سَبيل.

ولَيْسَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم بِحاجَةٍ لأنْ يَكونَ جَهْبَذًا وَمُؤَلِّفًا، ولكنْ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم يَعْرِف دَوْمًا لُغَتَيْنِ: الإنكليزيَّةَ بِوَجْهٍ عامٍّ، وبَعْضَ الفَرَنْسيَّةِ بِوَجْهٍ خاصّ.

ولكنْ لَيْسَ بِفَصاحَةِ شكسبير أو ڤولتير، إنَّما على قَدْرِ الإمْكان.

وَيَرْجِعُ ذَلِكَ لأنَّ في الضَّيْعَةِ التي عَدَدُ سُكّانِها أرْبَعَةُ آلافٍ أكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَدارِسَ خاصَّةٍ ولَيْسَتْ صَغيرَةً، وأغْلَبُها أجْنَبِيَّةٌ، ومِنْها بِوَجْهٍ أوَّلِيٍّ مَدْرَسَةُ «الفردنس» الإنكليزيَّةُ الرّائِجَةُ جِدًّا مُنْذُ القَديمِ، والتي يُسْرِعُ التَّلامِذَةُ قَبْلَ سَنَةٍ وَسَنَتَيْنِ يَسْعَوْنَ للدُّخولِ فيها، وأكْثَرَ الأحْيانِ يَجِدونَ الصُّفوفَ مُكْتَمِلَةً والمَقاعِدَ مأخُوذَة.

وفي القَرْيَةِ أيْضًا، بِوَجْهٍ ثانٍ، دَيْرُ راهِباتِ اللعازاريّاتِ الذي كانَتْ تَتَخَرَّجُ فيه، بِوَجْهٍ خاصٍّ، بَناتُ الأُسَرِ الكُبْرى في البِلادِ وهذا الدَّيْرُ يُشْبِهُ تَمامًا في مَنْظَرِهِ وبِناياتِهِ وإدارَتِهِ وعاداتِهِ وتقاليدِهِ

الأدْيرَةَ القَديمَةَ بِفَرَنْسا المُخَصَّصَةَ لِتَعْليمِ وَتَرْبِيَةِ بَناتِ الطَّبَقاتِ العالِيَة.
وفي مِثْلِ هذا الدَّيْرِ تَسودُ الأحْلامُ الجَميلةُ والآمالُ اللَّطيفَةُ المَحاسِنِ، الطَّرِيَّةُ الآخِذَةُ بالتَّفَتُّح لِلْحياةِ وللازْدِهار.
ولكنَّ الجَوَّ المَدْرَسِيَّ الكامِلَ الذي يُشْبِهُ جَوَّ مُدُنِ الجامِعاتِ بإنكلترا هو جَوُّ المَدْرَسَةِ الإنكليزيَّةِ ـ مَدْرَسَةِ «الفردنس» التي تَـكَلَّمْنا عَنْها، والتّابِعَةِ، قَريبًا، لِشيعَةِ الكويكر المَذْهَبِيَّةِ المَعْروفَة. وشيعَةُ الكويكر، كما نَعْلَمُ هِيَ المَذْهَبُ البِروتِسْتَنْتِيُّ المَسيحِيُّ المُتَقَشِّفُ الصّارِمُ الذي يَتَقَيَّدُ أتْباعُهُ بِنِظامٍ كُلُّهُ زُهْدٌ وحَياةٌ بَريئَةٌ، يُحَرِّمُ السُّكْرَ والزِّنا والإسْرافَ لِكُلٍّ مِنَ الجِنْسَيْنِ، ويُحَرِّمُ الزّينَةَ والبَهْرَجَةَ والكَذِبَ العاطِفِيَّ وحتّى المَيْلَ الجِنْسيَّ للمَرْأة.
وَمَعَ أنَّ الكويكر جاؤوا لِهَذِهِ البِلادِ، أساسًا، مُبَشِّرينَ عَلَيْهِم أنْ يَعْمَلوا لِضَمِّ أكْبَرِ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنَ الأهالي يَعْتَنِقونَ مَذْهَبَهُم، ولكِنَّهُم مَعَ كُلِّ جُهودِهِم لَمْ يَجِدوا، وعلى عُمْرِ السِّتّينَ أو السَّبْعينَ سَنَةً التي مَضَتْ على قُدومِهِم إلَيْنا، عَدَدًا كَبيرًا يَعْتَنِقُ مَذْهَبَهُم هذا، ما عدا طَبْعًا بَعْضَ الذين كانوا يَسْتَفيدونَ مِنْهُم بِطُرُقِ الشَّعْوَذَةِ والكَذِبِ عَلَيْهِم.

الليرة أُمُّ الحِصان وَمِنْ هُنا راجت تِلْكَ الأُسْطورَةُ التي قالَتْ: إنَّ رَجُلًا مِنْ برمّانا اعْتَنَقَ مَذْهَبَ الكويكر مُقابِلَ لِيرَةٍ إنكليزيَّةٍ ذَهَبٍ كان يَقْبِضُها كُلَّ آخِرِ شَهْرٍ تُساعِدُهُ على العَيْش.
وكان ذَلِكَ الرَّجُلُ أوَّلَ مَنِ اعْتَنَقَ المَذْهَبَ مِمّا جَعَلَ عَمَلَهُ هذا

مَدْعاةَ فَخْرٍ لِجَماعَةِ الكويكر الذين أرْسلوا التَّقاريرَ العالِيَةَ إلى لندن ونيويورك يُـبَشِّرونَ رُؤساءَهُم بهذِهِ الخُطْوَةِ المُبارَكَةِ التي خَطَوْها في رِسالَتِهِم التَّبْشيريَّةِ المُقَدَّسَة.

وَقَدْ يَكونُ تَبِعَ ذاكَ المُرْشِدَ غَيْرُهُ أيْضًا، وَعَمِلَ مِثْلَهُ، إنَّما بَعْدَ حينٍ جاءَ يَوْمٌ أخَذَ أبو فارس يَتَغَيَّبُ عَنِ الصَّلاةِ يَوْمَ الأحَد، وذَلِكَ لأنَّ الجَماعَةَ كانوا قد نَسَوا أو تَناسَوا وأوْقَفوا الدَّفْعَ، فَغابَ أبو فارس، ولَمْ يَعُدْ يُشاهِدُهُ النّاسُ في الكَنيسَةِ الكويكريَّةِ مُنْكَبًّا على الصَّلاةِ في كِتابِهِ المُقَدَّسِ، وما عادوا يَسْمَعونَهُ يُرَنِّمُ ويُنْشِدُ مَعَ المُرَنِّمينَ والمُنْشدينَ تِلْكَ التَّرانيمَ والأناشيدَ المُبارَكَةَ، وأقْلَقَ تَغَيُّبُهُ خواطِرَ الجَماعَةِ واضْطَرَبوا وراحوا يُفَتِّشونَ عَنْ أبي فارس حتّى وَجَدوهُ لاجِئًا في كَنيسَةِ المَوارِنَةِ يُثْبِتُ بِتَقَشُّفِهِ ونَدامَتِهِ أنَّهُ طَلَّقَ الكويكريَّةَ ورَجَعَ لِدينِ أجْدادِهِ.

وطَبْعًا، كانَ الشَّيءُ مُناسَبَةً لِشَماتَةِ الرُّهْبانِ المَوارِنَةِ بالكويكر ورِجالِ الدِّينِ مِنْهُم، مِمّا جَعَلَ هؤلاءِ يَنْزَعِجونَ كثيرًا حتّى الْتَقى يَوْمًا مُديرُ المَدْرَسَةِ الكويكريَّةِ بأبي فارسٍ فقال لَهُ عامِلًا على إقْناعِهِ بالارْتِدادِ: «هكذا تَعْمَل معنا يا أبا فارس وتَتْرُك... اِرْجِعْ إلَيْنا تَـكُنْ[1] مبسوطًا».

فَقالَ لَهُ أبو فارس الدَّهْرِيُّ جِدًّا: «قد أعودُ عِنْدَما تُأنْكلِزْلي عَنْ جديد... وَعِنْدَئذٍ أُأَنْكلِزْلَك».

وعنى بذَلِكَ، طَبْعًا، اللّيرةَ الإنكليزيَّةَ المُعْتادَةَ التي لَمْ تَعُدْ تَصِلُهُ مُنْذُ حين.

(١) في الأصل «تكون».

ولا نَعْرِف إذا كان مُديرُ المَدْرَسَةِ أَنْكلَزَ لأبي فارس يَوْمَئِذٍ، ولكنَّ الذي نَعْرِفه أنَّ حِكايَةَ أبي فارس عَمِلَتْ فَضيحَةً، إذْ إنَّ الكَثيرَ مِنَ الطَّفْرانين هُنا، كانوا أقْبَلوا على اعْتِناقِ الشّيعَةِ الجَديدةِ عِنْدَما عَرَفوا أنَّها بابُ رِزْق، وهكذا أبو فارس ما كانَ يُصَلّي بالإنكليزي إلّا بالأُجْرَة.

حَرْب المُرْسَلين بَعْضُهُم بِبَعْض ويَجِبُ أنْ نَقولَ: إنَّ في جَبَلِ لبنانَ قُرًى ومَناطِقَ مُعَيَّنَةً اخْتُصَّتْ للرِّسالاتِ البروتِسْتَنْتِيَّةِ الإنكليزيَّةِ والأميركيَّةِ، كما للفَرَنْسيّينَ قُرًى ومَناطِقُ مُخْتَصَّةٌ بِرِسالاتِهِم الدّينيَّة.

ولا شَكَّ أنَّ الرِّسالاتِ الفَرَنْسيَّةَ أكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الرِّسالاتِ البروتِسْتَنْتِيَّةِ الأنكلوسكسونيَّةِ مِمّا يَجْعَلُ القُرى ذاتَ المَدارِسِ الفَرَنْسيَّةِ مِنْ هَذِهِ الوُجْهَةِ أكْثَر عَدَدًا، ولكنْ لَيْسَ أكْثَرَ ارْتِزاقًا وخَيْرات.

إذْ إنَّ الرِّسالاتِ الأميركيَّةَ والإنكليزيَّةَ كان عَلَيْها، أساسًا، التَّبْشيرُ بِمَذْهَبِها البروتِسْتَنْتِيِّ، والعَمَلُ على اكْتِسابِ العَدَدِ الأمْكَنِ مِنَ الأهالي لَهُ، وهذا ما جَعَلَها مُضْطَرَّةً لاسْتِعمالِ المالِ في مُناسَباتٍ عَديدةٍ، مِمّا كانَ أغْلَبَ الأحْيانِ في مَقْدورِها، إذْ إنَّ صَنادِيقَها كانَتْ دَوْمًا تَجِدُ في تَبَرُّعاتِ جماعَةِ مَذْهَبِها، أبناءِ بِلادِها، ما يَمْلَؤُها، وهكذا كان الفَرْقُ بَيْنَها وبَيْنَ الرِّسالاتِ الفَرَنْسيَّةِ الإكليريكيَّةِ أنَّ رسالَتَها الأُولى التَّبْشيرُ بالبروتِسْتَنْتِيَّةِ، في حينِ أنَّ الرِّسالاتِ الفَرَنْسيَّةَ الكاثوليكيَّةَ لَمْ تَكُن بِحاجَةٍ للتَّبْشيرِ بالكَثْلَكَةِ، إذ إنَّ المَوارِنَةَ، زبائِنُها في هَذِهِ البِلادِ، وَقَدْ نَزَلَتْ بالأكْثَرِ في

قُراهُم بالجَبَلِ وفي أحيائِهِم في بَيْروتَ وهم كاثوليكٌ مِثْلُها.
لهذا كانَتْ مُهِمَّتُها، بِدَرَجَةٍ أُولى، إشاعَةَ اللُّغَةِ الفَرَنْسيَّةِ مِمّا نَجَحَتْ فيه كثيرًا، إذ جَعَلَتْ هَذِهِ اللُّغَةَ حتّى عِنْدَ غَيْرِ الطَّوائِفِ الكاثوليكيَّةِ الثّانِيَةَ في البِلادِ، وَجَعَلَتْها عِنْدَ بَعْضِ الفِئاتِ النَّصْرانِيَّةِ اللُّغَةَ العائِلِيَّةَ المُعْتادَةَ حتّى إنَّ الحَيَّ السُّرْسُقِيَّ كان لا يَتَكَلَّمُ غَيْرَ الفَرَنْسيَّة.

يهوديت لبنان وهيرودس الملك ولكِنْ لِماذا نَذْهَبُ في مِثْلِ هَذِهِ التَّفاصيلِ ونُطيلُ الحَديثَ بِها في حينِ أنَّ هُناكَ مُغامَرَةً طَريفةً طَلَّتْ عَلَيْنا قَبْلَ الحَرْبِ الأخيرةِ في برمّانا يُمْكِنُنا أنْ نَحْسُبَها نُبْذَةً من النُّبُذاتِ الظَّريفَةِ المُضْحِكَةِ والمُفيدَةِ جِدًّا مِنْ تاريخِ الانْتِدابِ عِنْدَنا.

•

كُنّا نَتَحَدَّثُ عَنْ ذَلِكَ الجَوِّ الجامِعِيِّ البروتِسْتَنْتِيِّ المُتَحَفِّظِ الذي يَسودُ برمّانا، والمُتَّفِقِ مَعَ صَرامَةِ وَزُهْدِ مَذْهَبِ الكويكر أصْحابِ المَدْرَسَة المَشْهورَةِ، مِمّا جَعَلَ الأهالي يَتَّعِظونَ بِهِ ومِمّا جَعَلَهُ، هو، يَتَمَلَّكُ بِهِم، وَيَتَسَرَّبُ إلَيهِم، فَيَجْعَلُهُم أكْثَرَ تَحَفُّظًا في حياتِهِم وعاداتِهِم عَنْ أهالي القُرى الباقِيَة.

شقراء ڤارسوڤيا وكانَ قَدْ مَضَتْ سَنواتٌ وسَنَواتٌ ازْدادَتْ فيها سَيْطَرَةُ هذا الجَوِّ على القَرْيَةِ الخَضْراءِ، حتّى اليَوْمِ الذي أطَلَّتْ فيهِ على برمّانا تِلْكَ الشَّمْسُ الشّارِقَةُ الشَّقْراءُ فَبَدَّدَتِ الكَثيرَ مِنْ غُيومِهِ، وأقْلَقَتِ الوَسَطَ الدّينيَّ الذي قامَ فيه، وَخَلَقَتْ

نَوْعًا مِنَ الفَوْضى الأخلاقيَّةِ بَيْنَ طَلَبَةِ المَدْرَسَةِ الزّاهِرَةِ العائِشَةِ حتّى ذَلِكَ الحين في ظِلالِ المُقَدَّسِ وَعِظاتِ القُسُسِ الكويكر الذين يَجْلِدونَ أجْسامَهُم لِطَرْدِ شَيْطانِ الشَّهَواتِ الجِنْسيَّةِ مِنْهُ، ويَطْلُبُونَ مِنْ تَلامِذَتِهِم وأتْباعِهِم أنْ يَفْعَلوا مِثْلَهُم.

فكانَتِ المَدْرَسَةُ هَيْكَلًا لِفَضيلَةِ الكويكر تَمْتَدُّ على بِضْعَةِ أمْيالٍ مِنْ حَوْلِها، حتّى جاءَت تِلْكَ الشَّمْسُ الشّارِقَةُ تَسْكُنُ في قَصْرٍ قَديمٍ يُشْبِهُ بناؤهُ القِلاعَ العَتيقَةَ في حِجارَتِهِ المُزَرْكَشَةِ، وهو بِناءٌ جذّابٌ مُحاطٌ بالأسْرارِ، كان يُخَيَّلُ لنا دَوْمًا، نَحْنُ الذين عَرَفْناه مُنْذُ سَنَواتٍ وسَنَوات، أنَّه يُخْفي في ظُلُماتِ أبْراجِهِ الضَّيِّقَةِ الصَّغيرَةِ المُرْتَفِعَةِ كالأسْهُمِ فَوْقَ سُطوحِهِ مَكْنوناتِ الأحْداثِ والمُغامَراتِ الغَراميَّةِ الرِّوائيَّةِ التي كانت تَجْري فيه وتتوالى عَلَيْه.

«الدَّمُ الذي يَبْقى» ... ويُخْفي خُصوصًا سِرَّ الجَريمَةِ الفَظيعَةِ التي وَقَعَتْ فيه ـ جَريمَةِ مَقْتَلِ الطَّبيبِ الأميركيِّ الشَّهيرِ الذي ابْتَناهُ وسَكَنَهُ، وَقَدْ تَلَطَّخَتْ ذاتَ لَيْلَةٍ جُدْرانُهُ مِنْ دِمائِه.

ومِنَ الثّابِتِ أنَّ آثارَ تِلْكَ الدِّماءِ لا تَزالُ ظاهِرَةً حتّى الآنَ، بَعْدَ سِنينَ عَديدةٍ مِنْ مَقْتَلِ الطَّبيبِ، ولَمْ تَنْفَعْ في إزالَتِها جَميعُ الوَسائِلِ التي اسْتُعْمِلَتْ في هذا السَّبيل.

وكان النّاسُ، وأخَصُّهُم المُصْطافينَ،[٢] الذين يُـقْبِلونَ بِكَثْرَةٍ على القَرْيَةِ الجَميلَةِ، يَتَحاشَوْنَ اسْتِئْجارَهُ وَسُكناهُ، فَظَلَّ هكذا مَهْجورًا، وَظَلَّتْ مِنْ وَراءِ ذَلِك بَعْضُ البُيوتِ المُجاوِرَةِ لَهُ مَهْجورَةً أيْضًا،

(٢) في الأصل «المُصْطافون».

حتّى ذَلِكَ الوَقْتِ الذي بَدَأَتْ فيهِ حِكايَتُنا هَذِهِ، عِنْدَما جاءَتْ «مدام دي ك»، الحَسْناءُ الجَذّابَةُ والتي لا خَوْفَ عِنْدَها ولا إيمان. جاءَتْ تَسْكُنُهُ وتَخْلُقُ فَوْقَهُ، وحَوْلَهُ، جَوًّا عابِقًا بالعُطورِ وبالشَّهَواتِ وبالمُغامَراتِ والمُتاجَراتِ الجِنْسيَّةِ والاجْتِماعيَّةِ والسِّياسِيَّةِ مِمّا أخَذَ يَشُقُّ له طَريقًا، وإلى مدًى بعيدٍ، في جَوِّ الكويكر المُقَدَّسِ وَمَدْرَسَتِهِم الجارَةِ القَريبَةِ جِدًّا للقَصْرِ المَسْكون...
يَقَعُ ذَلِكَ القَصْرُ الذي يُشْبِهُ بالأحْرى قَلْعَةً مُصَغَّرَةً على صورةِ قِلاعِ الصَّليبيّين في بِلادِنا ـ يَقَعُ ذَلِكَ القَصْرُ بَيْنَ حِرشٍ كَثيفٍ مِنَ الصَّنَوْبَرِ، وعلى كَتِفِ وادٍ عَميقٍ تَتيهُ فيهِ تَخَيُّلاتُ المُحِبّينَ والرِّوائِيّينَ وعُشّاقِ الطَّبيعَةِ وجَمالاتِها.

طريق الرَّذيلَة وبِطَبيعَةِ الحالِ أصْبَحَتْ، حالًا، طَريقُ ذَلِكَ القَصْرِ التي تَتَّصِلُ بالمَدْرَسَةِ بِمَسافَةٍ قَصيرَةٍ تُظَلِّلُها الأشْجارُ الباسِقَةُ الدّائِمَةُ الاخْضِرارِ مُحَرَّمَةً على الكويكر وتَلامِذَتِهِم وَكُلِّ مَنْ تَشَيَّعَ بِشيعَتِهِم. فهِيَ بَعْدَ مَجيءِ هَذِهِ الحَسْناءِ الخاطِئَةِ أصْبَحَتْ دَرْبَ الخَوْف.

الدَّرْب المُحَرَّمَة وهذا التَّحْريمُ زادَ طَبيعيًّا الطَّلَبَةَ حشريَّةً فأخَذوا يُطِلّونَ مِنْ بَعيدٍ مِنْ وَراءِ جُدْرانِ مَدْرَسَتِهِم على أبْراجِ ذَلِكَ القَصْرِ يَتَخَيَّلونَ هَذِهِ اليهوديت الجَديدةَ تَرْقُصُ عارِيَةً أمام هيرودس المَلِك، وهي حامِلَةٌ لَيْسَ رأسَ يُوحَنّا السّابِقِ كما فَعَلَتْ يهوديت ذَلِكَ الزَّمانِ، بل الرُّؤوسَ الفَتِيَّةَ لِضَحاياها المَساكينِ مِنْ عُشّاقٍ وسياسِيّينَ، تُقَدِّمُها لِلْمَلِكِ الجديدِ، سُلطانِ

البَرَّيْنِ والبَحْرَيْنِ ـ صديقِها في بِلادِ الانْتِدابِ الفَرَنْسيِّ، الكونت دو مارتل، الحاكِمِ المُطْلَقِ المِهْزارِ الذي جَعَلَ مِنْ لُبنانَ مَسْرَحًا لِمباذِلِهِ ومُغامَراتِهِ ولَهْوِه.
وكانَتْ هي، الكونتة دي ك، يومِيادورُ عَهْدِهِ ـ رافِعَةً مَنْ يَحوزُ على رِضاها، ومُدَمِّرَةً مَنْ تَغْضَبُ عَلَيْهِ، تَعْمَلُ ما تَشاءُ وما تُريدُ، دونَ أنْ يَهْتَمَّ ضَميرُ الكونت عَشيقِها لِرَدْعِها وإيقافِها عِنْدَ حَدّ.

البَيْتُ المَسْكون لَمْ يَكُنْ غَيْرُ تِلْكَ الحَسْناءِ التي سَكَنَها الشَّيْطانُ يَجْسُرُ على سُكْنى ذَلِكَ البَيْتِ وَقَدْ كانَ أهْلُ الضَّيْعَةِ أخَذوا بَعْدَ الجَريمَةِ المُخيفَةِ التي وَقَعَتْ فيه، يَعُدُّونَهُ مَسْكونًا يَتَباعَدُ عَنْهُ المارّونَ وَيَتَحاشَوْنَهُ، يَعيشُ مُنْذُ سَنَواتٍ وسَنَواتٍ مُقْفِرًا وبالظَّلامِ يُخَيَّلُ لأهْلِ القَرْيَةِ أنَّ الأشْباحَ تَأْتيهِ باللَّيالي المُظْلِمَةِ تَرْقُصُ بَيْنَ جَنَباتِه.

المفاجأة المُخيفة وإذا بنوافِذِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ تَتَفَتَّحُ على مِصْراعَيْها، وإذا بالأنْوارِ تُشَعْشِعُ مِنْ وَرائِها.
وَيَتَراءَى للمارّينَ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ، ومن بَعيدٍ، وَجْهٌ صَبوحٌ يُكَلِّلُهُ الشَّعْرُ الأشْقَرُ الزّاهي تَتَماوَجُ تَجَعُّداتُهُ الذَّهَبِيَّةُ مَعَ تَمَوُّجاتِ الهَواء.
والمَرْأةُ صاحِبَتُهُ ضَحوكَةٌ طَروبٌ لَعوبٌ، لا يَظْهَرُ عَلَيْها شَيْءٌ مِنَ الخَشْيَةِ التي، حَسْبَ اعْتِقادِ أهْلِ الضَّيْعَةِ لذَلِكَ الحين، يَجِبُ أنْ يَشْعُرَ بِها كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ بَيْتَ الجَريمَة...

سُلطانُ البَرَّيْنِ والبَحْرَيْن كان بيلاطوسُ لبنانَ وسوريا يُصادِقُها... ولَمْ تَكُنْ تَتَمَلَّكُ بِهِ كَيْما يَكونُ لَهُ عُذْرٌ في اسْتِرْسالِهِ لها بَلْ

كانَ هو يَتَمَلَّكُ بِها، وَمَعَ ذَلِكَ كانَ يَتْرُكُها تَعْمَلُ ما تُريد... حتّى خيانَتُه [خيانَتِه. دج].

فإنَّما ما كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَهارَةٍ في فُنونِ الحُبِّ والمَلَذّاتِ، وما كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَباهَةٍ وفُكاهَةٍ في الحَديثِ، وما تَخْلُقُهُ حَوْلَها من جَوٍّ ضَحوكٍ مُتفائِلٍ لاهٍ جَميلٍ مَعَ لَياليها الحَمْراءِ العابِقَةِ بالشَّهَواتِ المُتَعَدِّدَةِ ـ هَذِهِ الأشْياءُ جَعَلَتِ الدّيكتاتورَ الفَرَنْساوِيَّ في البَلَدَيْنِ يَرْضى بِكُلِّ ما تَعْمَلُهُ صديقَتُهُ على أنْ يَسْتَطيعَ أنْ يَتَمَتَّعَ بذَلِكَ الجَوِّ في أوقاتِ فَراغِهِ فَيُرَفِّهَ عَنْ سُوَيْدائِهِ ومَشاغِلِهِ بَعْدَ المَتاعِبِ الكَبيرةِ التي كان يَلْقاها، والتي كان يَخْلُقُ أكْثَرَها لِنَفْسِه.

وهكذا... بَعْدَ أنْ صارَتْ ليالي القَصْرِ في برمّانا مَسْرَحًا لِلَيالي روما، وبَعْدَ أنْ ثَبَتَ لِرَئيسِ مَدْرَسَةِ الكويكر أنَّ الخَطَرَ اقْتَرَبَ كثيرًا، وأنَّ تَلامِذَتَهُ، الكِبارَ مِنْهُم على الأقَلّ، أخَذوا يَنْظُرونَ مِنْ بَعيدٍ نَحْوَ بَيْتِ الحُبِّ ولَياليهِ الحَمْراءِ، أكْثَرَ مِمّا يَنْظُرونَ، مِنْ قَريبٍ، إلى كُتُبِهِم ودُروسِهِم ـ خافَ مِنْ تَعَدّي الرَّذيلَةِ مِنْ قَصْرِ الحَسْناءِ إلى بَيْتِ الفَضيلَةِ، مَدْرَسَةِ الكويكر، فَحَرَّمَ على الطَّلَبَةِ والمُعَلِّمينَ تَعَدّي خَطِّ العَرْضِ الذي رَسَمَهُ لَهُمْ بَيْنَ أسْوارِ المَدْرَسَةِ وأبْراجِ القَصْر.

المَهَراجا والعِقْدُ الثمين وفي ذَلِكَ الحينِ، وَبَيْنَما الرَّذيلَةُ والفَضيلَةُ يَقِفانِ في برمّانا على سِلاحِهِما، جِئْتُ مَعَ المَهَراجا خليل معتوق، صديقِ ذَلِكَ الزَّمَنِ، الرَّجُلِ الذي عادَ مِنْ بِلادِ العَجَمِ مليونيرًا كبيرًا يَصْرِفُ الأمْوالَ يُمْنَةً وَيَسارًا، خُصوصًا على مَلَذّاتِهِ وعلى أصْدقائِهِ، فأدْهَشَ البَلَدَ بإسْرافِهِ وهَداياهُ ومُغامَراتِهِ

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed

وعَطاياهُ مِمّا جَعَلَ الشّاعِرَ شِبْلي الملّاط يَقولُ فيه، ذَلِكَ البَيْتَ المَشْهور:

«الواهِبُ المِئَةَ الصَّفْراءَ مُعْتَذِرًا

كما رَوَوا عَنْ مُلوكٍ مُنْذُ أزْمانِ»

الغزالة تفترس الغول وكانَ لا بُدَّ للكونتيسَّة أنْ تُصادِقَ المَهَراجا، وَقَدْ دَعَوْناهُ يَوْمَئِذٍ هكذا، أُسْوَةً بأقْيالِ الهِنْدِ الأغْنياءِ والمُسْرِفين العِظام.

وكان المَهَراجا يَسْتَحْلي مِنْ جِهَةٍ عِشْرَةَ الكركوفيَّة، ويُريد مِنْ جِهَةٍ ثانِيَةٍ اسْتِعمالَ سَطْوَتِها لِتَصْريفِ أعْمالِهِ الكُبْرى، وَمِنْها الثَمانِيَةَ عَشَرَ ألْفَ كيسِ تُنْباكٍ عَجَمِيٍّ التي اسْتَطاع تَهْريبَها مِنْ بِلادِ العَجَمِ، وأرادَ، هُنا، أن يُجْبِرَ إدارَةَ الرّيجي على شِرائِها بالأسْعارِ التي يُقَرِّرُها هُوَ، مِمّا دعا دو مارتل، صديقَهُ أوَّلًا، لإبْعادِهِ عَنْهُ، خَوْفًا مِنْ أنْ يَفْضَحَهُ أكْثَرَ مِمّا كانَ مَفْضوحًا.

قَرَّرَ دو مارتل إبْعادَ مَلِكِ التنبك عَنْهُ، كما أخَذَ معتوق أيْضًا هذا اللَّقَبَ، ولكِنَّهُ لَمْ يُقَرِّرْ إبْعادَهُ عَنِ اليومپادور الشَّقْراءِ المُصْطافَةِ يَوْمَئِذٍ، سَعيدًا وشَيْطانيًّا في قَصْرِ الدَّمِ ببرمّانا.

وهكذا رَأَيْتُ نَفْسي، ذاتَ لَيْلَةٍ، في ساعَةٍ سَمّاعَةٍ، في ذَلِكَ القَصْرِ بِرِفْقَةِ المَهَراجا... يَحْمِلُ عُلْبَةً مُخْمَلِيَّةً صغيرةً، كانَ أوَّلُ شَيْءٍ عَمِلَهُ عِنْدَما وَجَدْنا أنْفُسَنا أمامَ الحَسْناءِ الشَّقْراءِ، أنْ قَدَّمَ لها تِلْكَ العُلْبَةَ، وَقَدْ أبْهَرَها ما فيها: عِقْدٌ مِنَ اللّؤلؤِ الزّاهي الزّاهِرِ بِحَبّاتٍ مُحْتَرَمَةٍ كَبيرة.

وطَلَبَتِ الحَسْناءُ مِنَ المَهَراجا أنْ يُعَلِّقَ العِقْدَ بِنَفْسِهِ في عُنُقِها

الغَضِّ الحارِّ، فَعَمِلَ الشَّيْءَ وانْتَهَزَ المُناسَبَةَ وباسَها بَوْسَةً كبيرةً في نُقْرَتِها.

ولم تَهْتَزَّ وَقَبِلَتِ القُبْلَةَ بالرِّضا.

فإنَّما، إذا كانَتْ تِلْكَ البَوْسَةُ ثَمَنًا للعِقْدِ، فَقَدْ كانَتْ أغْلى بَوْسَةٍ قَبَضَتْ ثَمَنَها امْرَأَةٌ في هَذِهِ البِلاد؛ ولكِنْ يَظْهَرُ أنَّهُ كانَ قَبْلَ ذَلِكَ ما كانَ بَيْنَ المَهَراجا والحَسْناءِ لَيْسَ لأنَّها كانَتْ تَسْتَحْلي وِصالَهُ، وَقَدْ كان وِصالُهُ بشعًا ولَيْسَ فيهِ شَيْءٌ مِنَ الفِتْنَةِ، بل للثَّمَنِ الذي كانَ يَدْفَعُه.

وسَأَلَها صَديقُنا في سِياقِ الأحاديثِ العَديدَةِ الفَكِهَةِ التي كُنّا نَتَبادَلُها، والتي كُنْتُ أَلْعَبُ فيها دَوْرًا أوَّلِيًّا، لأنَّني، ولا شَكَّ، أُجيدُ الكَلامَ والطَّرائِفَ أكْثَرَ مِنْ رَفيقي المَهَراجا ـ وسَأَلَها المَهَراجا السُّؤالَ المُسْتَغْرَبَ التّالي: «لِماذا تُخْفينَ عَنّي أشْياءَ أراها في عَيْنَيْكِ، ولِماذا جِسْمُكِ مُضْطَرِبٌ هكذا؟».

ولكِنْ ضَحِكَتْ مِنْهُ ولَمْ تُجِب. ثُمَّ سألها: «وأيْنَ صارَ المِلْيونان؟».

قالَتْ: «لو بِعْتُ اليَوْمَ هذا العِقْدَ لاكْتَمَلا».

وَفَهِمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أنَّ هَذِهِ اليومپادور الجَديدَةَ كانَتْ قَدْ أخَذَتْ إذْنًا صَريحًا مِنَ «البروقنصل» الفَرَنْساوِيِّ صَديقِها أنْ تَجْمَعَ لِنَفْسِها بالوَسائِلِ التي تَراها حَسَنَةً مِلْيونَي ليرةً تَحْتَفِظُ بِها، وتَقِفُ أخيرًا عِنْدَ حَدِّها.

وَقَدْ كانَ المَجالُ وَسيعًا لها لِجَمْعِ المَبْلَغِ الذي كانَ في ذَلِكَ الحينِ يسوى[٣] مِنْ عُمْلَةِ اليَوْمِ العِشْرينَ مَلْيونًا وأكْثَر.

---

(٣) كذا في الأصل وقد آثرنا تركه على حاله.

نَعَمْ، كانَتِ المَرْأةُ جَميلَةً وجَريئَةً ومُتلاعِبَةً، وكانَتْ خُصوصًا نَبيهةً جِدًّا، ولكِنْ لَوْلا مُتاجَرَتُها بِصَديقِها حاكِمِ البَلَدَيْنِ وسَيِّدِ القُطْرَيْن لما جَمَعَتْ شَيْئًا مِنْ ذَيْنِك المِلْيونَيْن.

مصنع الرِّجال والحكّام وكانَ، كما قُلْنا أعلاهُ، قَدْ حَدَّدَ لها الثَّرْوَةَ التي عَلَيْها أنْ تَجْمَعَها، وذَلِك بَعْدَ أنِ افْتُضِحَ أمْرُ مُتاجَراتِها في البَلَدَيْنِ افْتِضاحًا كامِلًا، وبَعْدَ أنْ جَعَلَتْ بَيْتَها مَصْنَعًا للنِّياباتِ والوِزاراتِ والأوْسِمَةِ والصَّفَقاتِ المُتَفَرِّعَةِ المَشْبوهَةِ لِدَرَجَةٍ فَضّاحَةٍ صارِخَة.

وفي لَيْلَةِ عِقْدِ اللُّؤلؤِ اسْتَغْرَبَ صديقي الحالَةَ المُهتاجَةَ التي كانَتْ فيها الحَسْناءُ، وَقَدْ أخَذَتْ تَقومُ بِحَرَكاتٍ تُحاوِلُ كِتْمانَها، ولكنَّها تَدُلُّ على يَقَظاتٍ مُضْطَرِبَةٍ في جَسَدِها.

ولمّا اسْتَغْرَبَ صديقي أمْرَها أجابَتْ على سُؤالِهِ: «لا أعْرِفُ ما بي، ولكنّي أشْعُرُ أنَّ في جَسَدي، الآنَ، ألْفَ شَيْطان».

ثُمَّ فَجْأةً ضَرَبَتْ يَدَها على رَأْسِها وقالَتْ: «لا بُدَّ أنَّ هذا الابْنَ العَقوقَ،[٤] نَجْلَ دو مارتل، وَضَعَ شَيْئًا في البُحَيْرة» ـ بُحَيْرَةِ قَصْرِ الصَّنَوْبَرِ بِبَيْروتَ الذي كانَ دو مارتل يُقيمُ فيهِ، مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، حَفَلاتِ اسْتِحْمامٍ رومانيَّة.

وفِعْلًا عَرَفْنا بَعْدَ ذَلِكَ أنَّ نَجْلَهُ الذي كان يُحِبُّ التَّفْكِهَةَ، ولا يَتَرَدَّدُ أمامَ أيِّ شَيْءٍ، مَهْما كانَ فَظيعًا، لِيَنْشَرِحَ وَيَشْرَحَ خاطِرَ الأصْدِقاءِ ـ وفِعْلًا عَرَفْنا بَعْدَ ذَلِكَ أنَّهُ، في تِلْكَ اللَّيلةِ، كانَ قَدْ صَبَّ في البُحَيْرَةِ كَمِّيَّةً وَسيعَةً من الهومِمبين، الدواءِ الذي يُوقِظُ

(٤) كذا في الأصل والمقصود «العاقّ».

الشَّهَواتِ بِطَريقَةٍ كَبيرةٍ وَيَجْعَلُ المُسْتَحِمّينَ بِمائِهِ يَفْقِدونَ كُلَّ حَياءٍ ولا يَسْتَطيعُونَ كَبْحَ جِماحِ الشَّبَقِ الذي يُصيبُهُم.

ولا أُبالِغُ هُنا في رِوايَةِ هذا الشَّيْءِ، إذْ إنَّ جَميعَ المُعاصِرينَ يَذْكُرونَ ويَعْرِفونَ خَبَرَهُ تَمامًا.

وكانَتِ الحَسْناءُ، بَعْدَ الظُّهْرِ، قَدِ اسْتَحَمَّتْ أمامَ دو مارتل بالبُحَيْرَةِ الصَّغيرَة.

وهكذا، كانَ جَسَدُ پومپادور العَهْدِ في تِلْكَ اللَّيلَةِ عَطِشًا جائِعًا.

ولكنَّ المَهَراجا لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ، ولا يُمْكِنُهُ أنْ يَصْلُحَ، لإرْواءِ هَذِهِ العَطْشى الجائِعَةِ الجَميلة.

لَيْسَ فَقَطْ لِدَمامَتِهِ ولِتَرَهُّلِ جَسَدِه، ولكنْ أيْضًا لِدُخولِهِ مِنَ البابِ الكبيرِ في جَمْعِيَّةِ عَدَمِ الإمْكانِ.

ولكن، كانَ أخيرًا على تِلْكَ الشَّقْراءِ المُهْتاجَةِ أن تُبَرِّدَ أحْشاءَها وأنْ تُشْبِعَ نَهَمَها...

وكانَتْ أخيرًا وَصَلَتْ إلى حالَةٍ حَرِجَةٍ لِدَرَجَةٍ فَقَدَتْ فيها بَصيرَتَها، وأصْبَحَتْ مُسْتَعِدَّةً لأنْ تَرْتَمِيَ بأحْضانِ أيِّ ذَكَرٍ تَجِدُهُ أمامَها.

وفي تِلْكَ الحالَةِ كان المَهَراجا يَفْهَمُ ماذا يَعْمَلُ عِنْدَما أخَذَني مِنْ مَنْكِبي وَدَفَعَني إلى أحْضانِ المَرْأةِ المُشْتَعِلَة.

عِنْدَما سَيْطَرَ الهُدوءُ على الجَبْهَة ولا شَكَّ أنَّها بَعْدَ ذَلِكَ عادَتْ إلى طَبيعَتِها الهادِئَةِ وَوَقَفَ غَلَيانُ دَمِها.

ولا شَكَّ أيْضًا أنَّني ما اسْتَفَدْتُ مادِّيًّا بشَيْءٍ عَنْ طَريقِها، مَعَ أنَّ الذين عَرَفوا فِراشَها كانَ بإمْكانِهِم، قَبْلَ ذَلِكَ التّاريخِ، أنْ يَسْتفيدوا، وأنْ تَتَيَسَّر أمورُهُم المالِيَّةُ كثيرًا.

ولكن، كانَ المِلْيونانِ في ذَلِكَ المَساءِ قَدِ اكْتَملا، وكانَتْ تِلْكَ المَرْأةُ تَحْتَرِمُ تَعَهُّداتِها احْتِرامًا مُقَدَّسًا.
وكانَتْ تَعَهَّدَتْ لِصَديقِها الحاكِمِ الأكْبَرِ أنْ تَقِفَ عِنْدَ المِلْيونَيْنِ عَنْ كُلِّ مَسْعًى، وكُلِّ تَدْبيرٍ لِصَفَقاتٍ جَديدةٍ مَهْما كانَتْ صَغيرةً، وهكذا لَمْ يَنَلْني مِنْ تِلْكَ الخَيْراتِ التي كانَتْ تَـتَوَزَّعُ عَنْ طَريقِها على أصْدِقائِها وعُشّاقِها شَيْئًا غَيْرَ ذِكْرى الحَريقَةِ في جَسَدِها التي اسْتَطَعْتُ إطْفاءَها ولكنَّ إطفاءَ تِلْكَ الحَريقَةِ لَمْ يَكُنْ لِيَقومَ مَقامَ العَشْرَةِ أو العِشْرينَ ألف ليرةٍ التي كُنْتُ أحْلُمُ بأنَّني سَأَصِلُ إلَيْها وأنا بَيْنَ ذِراعَيْها وهي تضيع في نَشْواها.

إبتسامةٌ بَدَلَ الصَّفْعَة وبَعْدَ أيّامٍ من ذَلِكَ، في وَليمَةٍ للمُفَوَّضِ السّامي، شاهَدْتُ هيرودسَ المَلِكَ فَجْأةً يأتي صَوْبي، وَقَدِ اعْتَنَيْتُ في البِدايَةِ أنْ لا تَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيَّ، وأخَذْتُ أرْتَجِفُ وأقولُ إنَّهُ قَدْ يَكونُ عَرَفَ بِما جَرى، ولا شَكَّ أنَّهُ سَيَصْفَعُني، ولكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هذا، بل اقْتَرَبَ مِنّي وضَرَبَني على كَتِفي مازِحًا وقال: «براڤو سكاڤو».
وأرَدْتُ أنْ أُظْهِرَ شَيْئًا مِنَ الأسَفِ، ولكِنَّهُ مَنَعَني عَنْ ذَلِكَ وقال: «لي بالأحْرى أنْ أ شْكُرَك ، فَقَدْ وَفَّرْتَ عَلَيَّ تِلْكَ اللَّيلَةَ تَعَبًا كَبيرًا!».

أرسلها جَسَدُها المُشْتَعِلُ للعصفوريَّة

ما وَضَعْتُ مُذَكِّراتِ «مَجانينِ الحُبّ»[1]، وهي فُصولٌ قَيِّمَةٌ شَيِّقَةٌ تُرْجِمَتْ إلى لُغاتٍ عَديدةٍ، ونَشَرَتْها بنَوْعٍ خاصٍّ مَجَلَّةُ «برلينر زيتنغ» بالألمانيَّةِ، كما نَشَرَتْها غَيْرُها من المَجَلّاتِ والجَرائِدِ الأجْنَبِيَّة ـ قُلْتُ: ما وَضَعْتُ فَصْلَ مَجانينِ الحُبِّ، إلّا بَعْدَ أنْ قُمْتُ بِرِحْلَةِ تَحْقيقٍ إلى مُسْتَشفى العَصْفوريَّة اسْتَغْرَقَتْ أسْبوعًا كامِلًا قَضَيْتُهُ مَعَ المَجانينِ، وهي رِحْلَةٌ عَمِلَتْ طَنَّةً وَرَنَّةً في ذَلِكَ الزَّمانِ، لِما رافَقَها مِنْ تَعاليقَ وآراءٍ جَعَلَتها، لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ، حَديثَ المُجْتَمَعاتِ، وأخَصَّها أنْدِيَةَ الأدَبِ والصَّحافَةِ والاجْتِماع.

وعَرَفْتُ يَوْمَئِذٍ، وعَرَفَ قُرّائي مِنْ وَراءِ ما نَشَرْتُهُ، أنَّ مُعْظَمَ أسْبابِ الجُنونِ، وفُقْدانِ العَقْلِ، أساسُها رَزايا الحُبِّ ومَصائِبُه. وكُنْتُ أخَذْتُ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ أهْلِ العَصْفوريَّةِ عِشْرينَ امرأةً وعِشْرينَ رَجُلًا، رَوَيْتُ حِكَايَةَ جُنونِ كلٍّ مِنْهُم، وذَلِكَ بَعْدَ تَرَدُّدي على ذَلِكَ المُسْتَشفى مُدَّةَ أُسْبوعٍ كامِلٍ، كما قُلْتُ أعلاه، قَضَيْتُهُ أدْرُسُ وأتَفَحَّصُ حِكايَةَ كُلِّ واحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ الأرْبعينَ مَجْنونًا ومَجْنونَةً دَرْسًا وتَفَحُّصًا مُسْتَفيضَيْن، اسْتَطَعْتُ مِنْ وَرائِهِما أنْ أنْشُرَ، بالطَّريقَةِ المُثْلى، ذَلِكَ الريبورتاج الذي أخَذَ، كما قُلْتُ، شَأْنًا كبيرًا في وَقْتِهِ، وَتَناقَلَتْ أحاديثَهُ المُنْتَدَياتُ والكَثيرُ مِنَ الصُّحُف.

الحكاية الأربعون كانَتْ، ولا شَكَّ، حِكايَةُ مَرْتا بولس أرْوَعَ وأدْهَشَ حِكايَةٍ بَيْنَ الأرْبَعينَ حِكايَةً التي خَصَّصْتُها لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ المَجانينِ والمَجْنوناتِ الذين كَتَبْتُ عَنْهُم، إنَّما نَشَرْتُ فَقَطْ في

(١) هي المذكرات التي نشرها الرياشي تحت عنوان: «مجانين ومجنونات الحب».

ذَلِكَ الوَقْتِ ٣٩ حِكايَةً مِنَ الأَرْبَعينَ حِكايَةً المَذْكورة، واحْتَفَظْتُ حتّى الآنَ بِحِكايَةِ مرتا بولس وَلَمْ أَنْشُرْها في ذَلِكَ الريبورتاج لأسْبابٍ خاصَّةٍ، فلَمْ أكُنْ في ذَلِكَ الحينِ وَصَلْتُ للعُمْرِ الذي ما عُدْتُ أخشى فيهِ أحَدًا، حتّى ولا زَوْجَتي.

البَيْتُ الذي في الضَّيْعَة القريبة كانَتْ مرتا بولس قَرَوِيَّةً مِنْ ضَيْعَةٍ جَبَلِيَّةٍ تُجاوِرُ ضَيْعَتَنا، وقَبْلَ أنْ تَنْتَهيَ تِلْكَ النِّهايَةَ التَّعِسَةَ، كانَتْ فَتاةً جَبَلِيَّةً شَهِيَّةً، جَعَلَتْها السِّتَّ عَشْرَةَ سَنَةً التي كانَتْ قَدْ وَصَلَتْ إلَيْها عِنْدَما اكْتَشَفَتْ ذاتَ يَوْمٍ ما عِنْدَها مِنْ مُدَوَّراتٍ ومحَاسِنَ ـ وكانَتْ قَدْ وَصَلَتْ فَجْأَةً ودونَ أيِّ انْتِظارٍ إلى الأُنوثَةِ والجَمالِ الكامِلَيْنِ، مَعَ أنَّني قَبْلَ ذَلِكَ الوَقْتِ بأُسْبوعٍ فَقَطْ كُنْتُ الْتَقَيْتُ بِها، ولَمْ يَسْتَلْفِتْ نَظَري مِنْها شَيْءٌ ـ إنَّما في ذَلِكَ اليَوْمِ رأيْتُ صَدْرَها بَرَزَ بُروزًا غَريبًا مُتَحَدِّيًا يَدْعو للاشْتِهاءِ، وَيَجْعَلُ النّاظِرَ وَقِحًا وجَريئًا، مَهْما كانَ حَيِيًّا وجَبانًا قبل ذَلِكَ، فإنَّما هُناكَ مِنَ المَحاسِنِ النِّسائِيَّةِ ما يَجْعَلُ الرِّجالَ يَنْقَلِبونَ إلى حَيَواناتٍ هائِجَةٍ فَيَثورونَ على رَصانَتِهِم وجَبانَتِهِم ويُضَيِّعونَ تَوازُنَهُم، ويَفْقِدونَ حياءَهُم إذا كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أهْلِ الحَياءِ والرَّصانَة.

لَمْ يَكُنْ حِصْنُها قويًّا وطَبْعًا، حَسْبَ العادَةِ التي كُنْتُ قَدْ دَرَجْتُ عَلَيْها، وهي عادَةٌ مَحْمودَةٌ عِنْدَ الرِّفاقِ الذين يُحِبّونَ الحَياةَ ومَلَذّاتِها، خُصوصًا في ذَلِكَ الوَقْتِ عِنْدَما كُنّا في عَهْدِ الشَّبابِ، وكانَ قَدْ كفاني أنْ شاهَدْتُ مرتا يَوْمَئِذٍ وَوَجَدْتُها مُسْتَعِدَّةً حاضِرَةً لِوَليمَةِ الحُبِّ، فاعْتَبَرْتُ حالًا أنَّني قَدْ أُضَيِّعُ احْتِرامي لِنَفْسي إذا تَرَكْتُها تُفْلِتُ مِنْ يَدَيَّ وتَقَعُ بَيْنَ يَدَيْ غَيْري.

وهي، طَبْعًا، لَمْ تَـكُنْ في سِلْسِلَةِ مُغامَراتي أوَّلَ بِنْتٍ ولا آخِرَ بِنْتٍ أتَعَرَّفُ إلى مَحاسِنِها في ضَيْعَتِها المُجاوِرَةِ لِضَيْعَتي.

وأخَذْتُ بِمُطارَدَةِ مرتا بولس التي لَمْ تَـكُن بِحاجَةٍ للكَثيرِ مِنَ المُطارَداتِ، وهي الفَتاةُ التي يَشْعُرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ ما يَلْتَقي بِها، حتّى وهي بَعيدَةٌ عَنْهُ، بالنّارِ تَـتَـآكَلُ جَسَدَها البَضَّ المَمْشوق.

وأخَذْتُ أذْهَبُ كُلَّ عَصْرِيَّةٍ، وَبَعْضَ الأحْيانِ عِنْدَ الظَّهيرةِ، إلى الحرشِ المُجاوِرِ لِبَيْتِها الصَّغيرِ، ذَلِكَ الحرشُ الجميلِ ذو أشْجارِ الصَّنَوْبَرِ الكَثيفَةِ التي كانَتْ أيْضًا، مِثْلَ مرتا، تُدَوِّخُ الرَّأْسَ بِأريجِها الحارِّ المُعَطَّر.

وكان بَيْتُ الفَتاة صغيرًا تَعْتَني مرتا بِتَنْظيفِهِ وتَجْميلِهِ بِطَريقَةٍ فَنِّيَّةٍ وَقَدْ دُهِنَتْ نَوافِذُهُ وأبوابُهُ بالألْوانِ الزّاهِيَةِ، مِمّا كانَ مُسْتَغْرَبًا في ذَلِكَ الزَّمَنِ، عِنْدَما كانَتْ ألْوانُ البُيُوتِ مَطْروشَةً مِنَ الدَّاخِلِ، عادِيًّا، بالكِلْسِ الأبْيَضِ ونَوافِذُها مَدْهونَةً باللَّوْنِ الأزْرَقِ الرَّخيصِ الباهِتِ، وكانَتْ أغْصانُ الأشْجارِ الباسِقَةِ الدّائِمَةِ الاخْضِرارِ تَـكادُ تَدْخُلُ إلى نَوافِذِ ذَلِكَ البَيْتِ، مِمّا كان يُوحي بالشّاعِرِيَّة.

الفَتاةُ التي تعشق جَسَدَها وبَعْدَ سُدولِ اللَّيلِ كُنْتُ أتَسَلَّقُ غُصْنًا يُطِلُّ على نافِذَةِ الفَتاةِ وأخْتَفي وَراءَ سِتارِ أوْراقِهِ الكَثيفَةِ وَقْتًا طَوِيلًا، أتَرَبَّصُ للحَسْناءِ حتّى تَأوي إلى غُرْفَتِها فأُشاهِدُها تَأْخُذُ بالاسْتِعْدادِ للرُّقاد.

وعِنْدَما تسهى عَنْ إسْدالِ السِّتارِ الكَثيفِ على زُجاجِ النّافِذَةِ كُنْتُ أراها، وبأيِّ ارْتِياحٍ واشْتِهاءٍ، تَأخُذُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا في التَّعَرّي

على مَهَلٍ جِدًّا أمامَ المِرآةِ كأنَّها تَقومُ بِعَمَلٍ لَذيذٍ تُريدُ إطالَةَ بَهْجَتِهِ، فتَأخُذُ بإمْلاءِ عَيْنَيْها مُحَدِّقَةً باشْتِهاءٍ وعِبادَةٍ إلى مَحاسِنِها، تَـتَناوَلُ بِلُطْفٍ وعِنايَةٍ نَهْدَيْها الصَّغيرَيْن الصَّلْبَيْن فَتَرْفَعُهُما إلى العَلاءِ أيْضًا كأنَّها تُريدُ أنْ تَزِنَهُما.

وكُنْتُ أُلاحِظُ أنَّ يَدَيْها تُظْهِرانِ نَوْعًا مِنَ التَّعَبِ مِنْ ثِقَلِ ذَيْنِكَ النَّهْدَيْنِ البَديعَيْن.

وكانَتْ بَعْضَ الأحْيانِ تَـتَفَحَّصُ بِكُلِّ دِقَّةٍ جَميعَ مَرافِقِ وجَوانِبِ وظواهِرِ وخَفايا جَسَدِها، مِمّا كانَ يُثْبِتُ لي تَعَشُّقَ هَذِهِ الفَتاةِ المَفْسودَةِ لِجِسْمِها تَعَشُّقَ الرِّجالِ لَهُ، خُصوصًا، لو اسْتطاعوا مُشاهَدَته.

وكُنْتُ أراها كَثيرًا ما تَقِفُ مَبْهوتَةً مَسْحورَةً أمامَ ما كانَتِ المِرْآةُ تُريها مِنْ جَمالات.

وكانَتْ هَذِهِ المَشاهِدُ تَنْتَهي مَعَها دَوْمًا بالاسْتِرْسالِ إلى عاداتٍ بَشِعَةٍ تُحاوِلُ أنْ تَجْعَلَ مَباهِجَها تَطولُ ثُمَّ تَنْتَهي بأنْ تَرْتَميَ مِنْ بَعْدِها على فِراشِها مَنْهوكَةَ القُوى، خائِرَةَ العَزْم.

مِنْ وَراءِ أغصان الشَّجَر وكُـنْتُ، ولا شَكَّ، أسْتَأْنِسُ كُلَّ الخَيْرِ مِنْ هَذِهِ المَشاهِدِ مُعْتَبِرًا أنَّ الفَتاةَ التي تَسْتَرْسِلُ هكذا إلى مِثْلِ هَذِهِ العاداتِ لا بُدَّ أنْ تَـكونَ حُصونُها مُتَزَعْزِعَةً، وتَجْعَلُها وَفْرَةُ جِنْسِيَّتِها قَريبَةً سَهْلَةَ المَنالِ للرِّجالِ، خُصوصًا إذا كانوا مِنْ طِرازِ ذاكَ الفتى الظَّريفِ المُتَهَتّكِ المُتَرَصِّدِ مِنْ بَيْنِ أغْصانِ الصَّنَوْبَرِ على ما يَجْري في الغُرْفَةِ الصَّغيرَةِ التي لَمْ تكُنْ جُدْرانُها الحَمْراءُ تَدُلُّ كثيرًا على نَقاوَةِ وطهارَةِ سُكّانِها.

وكان الفتى، في ذَلِكَ الحينِ، الخَطَرَ المُباشِرَ لِقِلاعِ بَناتِ القَرْيَتَيْن. وفِعْلًا، في أوَّلِ فُرْصَةٍ اسْتَطَعْتُ بِها الانْفِرادَ بمرتا في الحرشِ الذي يُجاوِرُ بَيْتَها، وَقَدْ تَلاقَيْتُ بها هُناكَ بنَوْعِ الصُّدْفَةِ، رأيْتُ عِنْدَها كُلَّ الاسْتِعْداداتِ اللازِمَةِ لأنْ تَـكونَ سَخِيَّةً في كُلِّ ما تُعْطيهِ، وبِناءً على هَذِهِ الاسْتِعْداداتِ طَلَبَتْ مِنّي أنْ أجيءَ إلَيْها بَعْدَ أنْ يُجَنَّ اللَّيل.

وبَعْدَ الذي كُـنْتُ أُشاهِدُهُ في غُرْفَتِها لَمْ أسْتَغْرِبِ الشَّيْءَ مُطْلَقًا، وفي لَيْلَةِ ذَلِكَ اليَوْمِ، ما كِدْتُ أصِلُ لِتَحْت نافِذَةِ غُرْفَتِها أنْتَظِرُ الإشارَةَ التي اتَّفَقْنا عَلَيْها كَيْما أتَسَلَّقُ الجِدارَ، حتّى شاهَدْتُها تُطِلُّ مُشيرَةً إلَيَّ أنْ أفْعَل.

وفي لَمْحِ البَصَرِ كانَتْ بَيْنَ أحْضاني، ودونَ سُؤالٍ ولا جَوابٍ، ودونَ كَلامٍ وشَرْحٍ، كُنْتُ أتَمَرَّغُ وإيّاها في فِراشِها الوَثير، نُثْبِتُ، أنا وإيّاها، أنَّ الفُتُوَّةَ والحُبَّ عِنْدَما يَتَلاقَيان يَضْرِبانِ الدُّنْيا طَبَنْجَة، ويَنْسَيانِ في نَشْواهُما العالَمَ بأجْمَعِهِ.

«**حريقة فظيعة**» وطالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ علاقَتي مَعَ الفَتاةِ، مَعَ أنَّني كُنْتُ قَبْلَها عُصْفورًا دُورِيًّا أنْتَقِلُ مِنْ غُصْنٍ إلى غُصْن، فإذا بي، هَذِهِ المَرَّةَ، أتْرُكُ جَميعَ بَناتِ القَرْيَتَيْنِ صَديقاتي، وأُخَصِّصُ نَفْسي لِمَرْتا.

ولكنَّ مَرْتا، كما قُلْنا، كانَتْ في اشْتِعالِها تَطْلُبُ أكْثَرَ مِنَ اللازِمِ، وكُنْتُ، مَعَ كُلِّ نشاطي، أتَعَجَّبُ كَيْفَ أنَّ مَرْتا تكتفي بي فَقَطْ مَعَ كُلِّ ما كُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ سَخاءٍ في أعْمالِ الحُبِّ يَوْمَئِذٍ، وكانَ ولا شَكَّ أهْلُ الضَّيْعَتَيْنِ بأجْمَعِهِم أخَذوا يَعْرِفونَ خَبَرَ عَلاقَتي مَعَ الفَتاةِ، مِمّا

كانَ سَهْلًا جِدًّا، إذ إنَّ مَرْتا ما كانَتْ مُطْلَقًا تُفَتِّشُ عَنِ السِّتْرَة.
وعِنْدَما كانَتْ أُمُّها تُؤَنِّبُها على خِفَّتِها وَطَيْشِها، كانَتْ تَغْضَبُ وتَأخُذُ في تَكْسيرِ كُلِّ ما يَقَعُ تَحْتَ يَدِها، مِمّا كانَ يَدْعو أُمَّها للسُّكوتِ والصَّبْرِ، خَوْفًا مِنْ أنْ تَراها تُدَمِّرُ جَميعَ مَفْروشاتِ البَيْتِ، وأواني السُّفْرَةِ فيه، ولا شَكَّ أنَّ الفَتاةَ كانَتْ لا تُريدُ أنْ تَعْرِفَ مُطْلَقًا في الغَرامِ خَيالاتِهِ، وشاعِريَّتَهُ، وروحانيّاتِهِ، وضَوْءَ القَمَرِ، وعِطْرَ الأزْهارِ، وأغاريدَ العَصافيرِ، كلّا... كُلُّ هذا كانَ بِنَظَرِها، كما كانَتْ تَقولُ، أشياءُ تافِهَةٌ لا شأنَ لها ونَوْعٌ مِنْ أكل الهواء، وتَضْييعِ الوَقْتِ، فالغَرامُ عِنْدَها مَرْكَزُهُ ومَقَرُّهُ وعالَمُهُ هو في الفِراشِ، وفي الفِراشِ فَقَط.

الكلام والمُسايَرَة بلا طعمة ما كانَتْ تُريدُ أنْ تَعْرِفَ مِنْ أُمورِ الغَرامِ غَيْرَ عَمَلِهِ... غَيْرَ التَّحَظّي... لهذا كانَتْ طيلَةَ الوَقْتِ الذي نَجْتَمِعُ فيه تَسْتَرْسِلُ بجَميعِ حَواسِّها وجوارِحِها إلى المَباهِجِ الواقِعِيَّةِ لا تَسْمَعُ الكَلامَ، ولا تَأخُذُ لِنَفْسِها دَقيقةَ راحَةٍ، مِمّا يُمَكِّنُني مِنَ التَّأْكيد أنَّني في خِلالِ الشَّهْرَيْنِ اللَّذَيْنِ خَصَّصْتُهُما بأجْمَعِهِما لِمَرْتا لَمْ أرَها مَرَّةً واحِدَةً، أثْناءَ اللَّيالي الطَّويلَةِ التي كُنْتُ أجْتَمِعُ بِها فيها دَوْمًا، تُبادِلُني الأحاديثَ مَهْما كانَ هُناكَ مِنْ أمورٍ هامَّةٍ يُمْكِنُ التَّحَدُّثُ بِها.
وطَبْعًا، بَعْدَ هذا، يُمْكِنُ للقارِىءِ أنْ يَتَصَوَّرَ الواجِباتِ التي كانَتْ مَطْلوبَةً مِنّي، والتي كُنْتُ أُجْهِدُ النَّفْسَ للقِيامِ بِبَعْضِها، مِمّا جَعَلَني أخيرًا أكادُ أرْمي سِلاحي، وأطْلُبُ النَّجْدَةَ، وَقَدْ كُنْتُ وَصَلْتُ إلى وَقْتٍ أخَذْتُ ألْجَأُ إلى المأكولاتِ الحارَّةِ، والعَقاقيرِ المُقَوِّيَةِ، وكُنْتُ،

ولا شَكَّ، أعْرِفُ تَمامًا أنَّ مَرْتا إذا ما رَأَتْ عِنْدي ضَعْفًا تَتْرُكُني وَتَرْميني مِثْلَ قَدَحٍ مِنَ الخَمْرَةِ شَرِبْتَهُ وَلَمْ يَبْقَ في ثُمالَتِهِ شَيْء.

واحِدٌ مِنْ ألف ولَمْ أكُنْ مُغْرَمًا بِمَرْتا بالمَعْنى الذي يَجْعَلُ الرَّجُلَ مُضْطَرًّا أنْ يُضَحّيَ في سَبيلِ مَرْضاةِ عَشيقَتِهِ بأشْياءَ عَديدَةٍ كَثيرةٍ تكونُ عَزيزَةً عَلَيْهِ.

ولكِنَّني كُنْتُ مَأْخوذًا بِها، أو بالحَرِيِّ مأخوذًا بِشَرَهِها الجِنْسيِّ ـ بذاك الشَّبَقِ المُشْتَعِلِ الذي لَيْسَ عِنْدَ الكَثيراتِ مِنَ النِّساءِ مِنْهُ شَيْء.

فإنَّما بَيْنَ ألْفِ امْرَأةٍ، امْرَأةٌ واحِدَةٌ قَدْ تكونُ مِثْلَ مَرْتا وهُناكَ، كما قال الشاعر زاماكويس: «إنَّ السَّماءَ حَرَمَتْ وأخَذَتْ جَمالاتِ ألْفِ امْرَأةٍ أُخْرى فأصْبَحْنَ بشعاتٍ دَميماتٍ، وأعْطَتْ تِلْكَ الجَمالاتِ للفَتاةِ التي أحْبَبْتُها»، كذَلِكَ يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّ السَّماءَ أخَذَتْ، أو بالأحْرى حَرَمَتْ، ألفَ امْرَأةٍ اشْتهاءَهُنَّ الجَسَديَّ وأعْطَتْهُ لِمَرْتا... وهكذا، ألْفُ امْرَأةٍ يَبْقَيْنَ ألْواحًا مِنَ الثَّلْجِ بَيْنَ أحْضانِ الرِّجالِ فَتَبْتَهِجُ مَرْتا في فِراشِ الحُبِّ عَنْهُنَّ بأجْمَعِهِنّ.

وكانَ أخيرًا لا بُدَّ أنْ يَنْتَهِيَ الأمْرُ معي بالسُّقْمِ والهُزالِ، وعِنْدَئِذٍ كانَ ما لَمْ أكُنْ أنْتَظِرُهُ... واضْطُرِرْتُ أخيرًا أنْ أهْجُرَ الفَتاةَ، وبَعْدَ أنْ كانَ والِدُها عَرَفَ بِحِكايَتِها وحَجَزَ عَلَيْها في البَيْت مانِعًا إيّاها من الخُروجِ مُطْلَقًا.

كانَ أخيرًا أنَّ مَرْتا الحَسْناءَ التي قَدْ تَكونُ أثْناءَ الشَّهْرَيْنِ اللَّذَيْنِ تَعاشَرْنا في خِلالِهِما أخَذَتْ حِصَّةَ بناتِ الضَّيْعَتَيْنِ مِنْ مَباهِجِ الوِصالِ ومَلَذّاتِه ـ كانَ أنَّ مَرْتا، التي اعْتادَتْ كُلَّ لَيْلَةٍ أنْ تَرْوِيَ

إلى أقْصى حَدٍّ ظَمَأها الغَريبَ ـ كانَ أنْ أُصيبَتْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ مِنَ الحِرْمانِ بِنَوْباتٍ صاخِبَةٍ صارِخَةٍ مِثْلِ النَّوْباتِ التي يُصابُ بِها المُدْمِنُ على الأفيون والمورفين، ويأتي وَقْتٌ لا يَعود يَجِدُ مِنْ هَذِهِ المُخَدِّراتِ شَيْئًا يُمْكِنُه الوصولُ إلَيْهِ فيُصابُ تَمامًا بالنَّوْباتِ التي أُصيبَتْ بِها مَرْتا.

وكان، ولا شَكَّ، هُناكَ رِجالٌ في الضَّيْعَتَيْنِ يُمْكِنُهُم أنْ يُلَبّوا حالًا نِداءَ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ المُسْتَهْتِرَةِ، ولكنَّ النَّوْباتِ أصابَتْ مَرْتا فَجْأةً ودونَ سابِقِ إنْذارٍ، فَلَمْ تَعُدْ تعي على شَيْءٍ سِوى على الأوْجاعِ المُخيفَةِ التي كانَتْ تُوجِعُها في كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أعْضاءِ جَسَدِها.

وأخيرًا جُنَّتْ مَرْتا وأخَذَت تُـكَسِّرُ كُلَّ شَيْءٍ تُصادِفُهُ أمامَها.

وعِنْدَها نَقَلوا مَرْتا إلى العَصْفوريَّة.

وفي العَصْفوريَّةِ شاهَدْتُ مَرْتا بِحالَةٍ مُخيفَةٍ مِنَ الهِسْتيريا تَقِفُ على نافِذَتِها المُشَبَّكَةِ بالحَديدِ ولا تَنْفَكُّ عَنْ دَعْوَةِ المارّينَ مُشيرَةً إلى جَسَدِها المُهْتاجِ بِطَريقَةٍ وأسْلوبٍ فاحِشَيْنِ، ولم تَعْرِفْني، وَدَعَتْني أيْضًا كما دَعَت غَيْري... فَقَدْ كانَتْ أضاعَتْ عَقْلَها تَمامًا وأصْبَحَتْ خَوْتة.

وبَعْدَ أسَابيعَ قَليلةٍ مِنْ دُخولِها المُسْتَشفى، انْتَهَتْ وانْطَفَأتْ فَجْأةً كما تَنْطَفِئُ الحريقةُ تَحْتَ فَيَضانِ نَهْرٍ مِنَ المِياه.

ومضى بَعْدَ ذَلِكَ عَشَراتُ السِّنين، وكاتِبُ هَذِهِ السّطورِ يُفَتِّشُ بَيْنَ بَناتِ بِلادِهِ عَلَّهُ يَعْثُرُ على بِنْتٍ باشْتِعالِ مَرْتا، ولكنَّهُ لَمْ يَجِد. مَرْتا كانَتْ فَريدةَ زَمانِها، وكُلُّ مائَةِ سَنَةٍ قد تَخْلُقُ السَّماءُ بِنْتًا واحِدَةً، بِلُبنانَ، بِنارِ وهِسْتيرِيَّة مَرْتا...

الحُبُّ وَوَرَقُ اللَّعب

يُمْكِنُ لأيَّةِ حَسْناءَ أنْ تَلْعَبَ بِعَقْلِ أيِّ شابّ...

هكذا كان رَئيسُ مَدْرَسَتِنا يَقولُ في المُناسَباتِ التي كان فيها بَعْضُ التَّلاميذِ مِنْ صَفِّ الكِبارِ يَقَعونَ ضَحايا بَعْضِ المُغْرِياتِ، فَيَسْتَوْلي عَلَيْهِم الطَّيْشُ ويُهْمِلونَ دُروسَهُم، وكَثيرًا ما يَتَغَيَّبونَ عَنْ صُفوفِهِم ـ عِنْدَئذٍ كان الرَّئيسُ يَقولُ قَوْلَهُ هذا بِلَهْجَةِ التَّأَسُّف.

وكُنْتُ، أنا، بِصَفِّ الكِبارِ، وفي أوائِلِ الشَّبابِ، وكُنْتُ أعْتَبِرُ أنَّني أعْرِفُ بِكِتابِ النِّسْوان وحِيَلِهِنَّ أكْثَرَ مِنْ جَميعِ رفاقي، لذَلِكَ كُنْتُ لا أعْبَأُ بِما كانَ يَقولُهُ رَئيسُ مَدْرَسَتِنا على اعْتِبارِ أنَّ باقي رِفاقي قد تَلْعَبُ بِعُقولِهِم الحِسانُ، ولكنَّ الحِسانَ لَنْ يَسْتَطِعْنَ اللَّعِبَ بعقلي.

وَمَعَ أنَّني كُنْتُ أشْعُرُ أنَّ هذا الادِّعاءَ فيه الكَثيرُ مِنَ التَّفْشيرِ، فَقَدْ كُنْتُ أقولُهُ بِكُلِّ وَقاحَةٍ وفي كُلِّ مَكان، مِمّا جَعَلَ كثيراتٍ مِنَ البَناتِ يَسْمَعْنَهُ ويَتَفَكَّهْنَ بِهِ دونَ أنْ يَجِدْنَ في ذَلِكَ ما يُزْعِجُهُنَّ ما عدا واحِدَةً بَيْنَهُنّ.

ودَوْمًا هُناكَ واحِدَةٌ بَيْنَ أيَّةِ فِئَةٍ مِنَ البَناتِ يَجِبُ أنْ تكونَ أكْثَرَ ادِّعاءً وأكْثَرَ جُرْأَةً مِنْ رفيقاتِها.

وهَذِهِ الواحِدَةُ قالَتْ: «الكَلامُ لَيْسَ مِثْلَ الفِعْلِ، وَسَيأْتي وَقْتٌ، يَفْهَمُ

فيهِ هذا المُدَّعي أنَّه لا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ كِتابِ النِّسوانِ وحِيَلِهِنّ».
وَوَصَلَني هذا الكلامُ، وظَلَلْتُ سَنَواتٍ عَديدَةً أذْكُرُهُ وأحْذَرُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَلْتُ أجِدُ أنَّ الفَتاةَ التي قالَتْهُ كانَتْ مُخْطِئَةً، فَقَدْ بَقيتُ أتلاعَبُ بِقُلوبِ البَناتِ دونَ أنْ أجِدَ واحِدَةً بَيْنَهُنَّ، مَعَ أنَّ عَدَدَهُنَّ كانَ كبيرًا، اسْتَطاعَتْ أنْ تَلْعَبَ بي.
حتّى كان ذاتَ يَوْم...
بَعْدَ عِشْرينَ سَنَةً من ذلِك.
عِنْدَما كُنْتُ في عِزِّ مُغامَراتي السِّياسِيَّةِ والنِّسائِيَّةِ، وأنا دَوْمًا خَلَطْتُ السِّياسَةَ بالمَرْأةِ، وجَعَلْتُ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُما تَرْتَبِطُ مَعَ الأُخْرى ارْتِباطًا فَكِهًا شَهِيًّا.
فالسِّياسَةُ مَعَ الحُبِّ تُخَفِّضُ الكَثيرَ مِنْ شَأْنِهِ وَسِحْرِهِ.
والسِّياسَةُ كثيرًا ما أنْقَذَتْ بَعْضَ رِجالِها مِنْ حالاتٍ حَرِجَةٍ في غَرامِيّاتِهِم ومَشاكِلِهِم العاطِفِيَّة.
مَعَ أنَّ الكثيرينَ لا يَزالونَ حتّى الآنَ يَقولُونَ إنَّ لَعِبَ الوَرَقِ هو للعُشّاقِ التُّعَساءِ أفْضَلُ وَسيلَةٍ لِنِسْيانِ مَصائِبِهِم الغَرامِيَّةِ، وَلَوْ كانَ لِوَقْتٍ قَصيرٍ، مُعْتَبِرينَ أنَّ السِّياسَةَ لَيْسَ لها على المُغْرَمينَ فاعِلِيَّةُ لَعِبِ الوَرَق.
والقائِلونَ هكذا يَسْتَنِدونَ بالأكْثَرِ على القاعِدَةِ التي اخْتَرَعَ فيها فاكوم المُقامِرُ الطّليانيُّ وَرَقَ اللَّعِبِ، وذَلِكَ في الجيلِ الخامِسَ عَشَر.
فَقَدْ كانَ فاكوم أُصيبَ بِشقاءِ الحُبِّ، وكانَتِ الحَسْناءُ التي يَعْشَقُها عِشْقًا جُنونِيًّا أخَذَتْ تُعْرِضُ عَنْهُ وتُجافيهِ بَعْدَ أنْ كانَتْ جَعَلَتْهُ يَتَعَلَّقُ بِها تَعَلُّقًا كَبيرًا، وكانَتْ أيْضًا تَخونُهُ ولا تَسْأَلُ عَنْهُ، لا تَنْفَعُ

مَعَها تَوَسُّلاتُهُ وَتَذَلُّـلُـهُ لها، مِمّا جَعَلَهُ يُصابُ أخيرًا بِيَأْسٍ كبيرٍ ويُقرِّرُ الانْتِحار.

ولكنْ بانْتِظارِ ذَلِكَ ذَهَبَ إلى أحَدِ المَقاهي، وأخَذَ يَشْرَبُ الخَمْرَةَ طالِبًا مِنْها القُوَّةَ للتَّغَلُّبِ على أيِّ تَرَدُّدٍ يَعْتَريهِ في قَتْلِ نَفْسِه.

وَقَدْ كانَ رَسّامًا ماهِرًا فأخَذَ يَرْسُمُ على طاوِلَةِ الرُّخامِ التي أمامَهُ رُسومًا مُتَنَوِّعَةً، مِنْها رَجُلٌ كبيرٌ بالسِّنِّ تَخَيَّلَهُ عَشيقَ حَبيبَتِهِ التي مَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِها لِكَثْرَةِ أمْوالِهِ، ثُمَّ رَسَمَ صورَتَهُ بِهَيْئَةِ شابٍّ جَميلِ الصّورَةِ، كثيرِ الحَلاوَةِ، أغْرَتْهُ عَشيقَتُهُ في فِسْقِها وَتَهَتُّكِها واقْتَطَفَتْ عِذارَهُ، وكان لا يَزالُ بَتولًا عِنْدَما جاءَتْ بِهِ لِفراشِها، ثُمَّ رَسَمَ صُورةَ فَتاةٍ جَعَلَ لها رأسَيْنِ، رَأْسًا مِنْ فَوْقُ وَرَأْسًا مِنْ تَحْتُ، تَخَيَّلَها حَبيبَتَهُ لها وَجْهان: وَجْهٌ مَلائِكِيٌّ وَوَجْهٌ شَيْطانيٌّ، وهكذا مِنْ صُورَةٍ لصورَةٍ، ومِنْ عَدَدٍ لِعَدَدٍ، إذْ بَدَأَ بالعَدَدِ الأوَّلِ، وهو يَوْمُ عَرَفَ فيه الحَسْناءَ، ثُمَّ تَوالَتِ الأعْدادُ حتّى وَصَلَ للعَشْرَةِ أشْهُرٍ، وهي المُدَّةُ التي قَضاها مَعَها.

وأخَذَ بَعْدَ ذَلِك، وَقَدْ ضَرَبَتِ الخَمْرَةُ بِرَأْسِهِ، يُرَكِّبُ الأسْوَدَ على الأبْيَض، ويُرَكِّبُ الصُّوَرَ على بَعْضِها ـ يُرَكِّبُ مَثَلًا العَشيقَ المُتَصابيَ الغَنِيَّ على الفَتاةِ الحَسْناءِ ذاتِ الوَجْهَيْنِ والرَّأْسَيْنِ، ويَضَعُ الشّابَّ، صَبِيَّ الكُبَّة، يُزاحِمُهُ، وهو أخَذَ لنَفْسِهِ صُورَةَ صَبِيِّ السّباتي، ومِنْ رَسْمٍ إلى رَسْمٍ... ظَهَرَ لَهُ فَجْأةً أنَّهُ اخْتَرَعَ صُوَرًا يُمْكِنُه، إذا رَتَّبَها حَسْبَ ما يَرى، أنْ يُؤَلِّفَ لُعْبَةَ وَرَقٍ قَدْ تَجْعَلُ اللّاعبينَ بِها يَتَلَهَّوْنَ كَثيرًا، مِمّا خَفَّفَ الكَثيرَ مِنْ غُلَوائِهِ وأساه، ومِمّا جَعَلَهُ، رُوَيْدًا رُوَيْدًا، يَنْسى أنَّهُ قَرَّرَ الانْتِحارَ وَقَدْ أشْغَلَهُ اخْتِراعُهُ للوَرَقِ عَنِ الحَبيبَةِ الخائِنَةِ الهاجِرَة.

وفي حَنَقٍ شَديدٍ وجَديدٍ، وإظْهارًا لِقُوَّتِهِ وسَيْطَرَتِهِ على قَلْبِهِ، حَمَلَ نَفْسَهُ بِعُنفٍ، وذَهَبَ ذاتَ يَوْمٍ للعَشيقَةِ الخَائِنَةِ مُتَحَدِّيًا يَضْرِبُها على وَجْهِها ويَقولُ: «بَعْدَ الآنَ لَنْ أسْأَلَ عَنْكِ... فَقَد اخْتَرَعْتُ الوَرَقَ الذي يَجْعَلُ اللاّعِبينَ فيهِ يَنْسونَ النِّساءَ وشَقاءَ الحُبِّ ورَزاياه».

•

ولكنَّهُ، مَعَ كُلِّ ما الوَرَقُ يَجْعَلُ النّاسَ يَلْهَوْنَ عَنِ الحُبِّ وأعْمالِهِ،[1] فإنَّما السِّياسَةُ، كما اتَّضَحَ لِجَميعِ الذين يَشْتَغِلونَ فيها، هي في هذا الصَّدَدِ أقْوى مِنَ الوَرَقِ ولَعِبِه.
السِّياسَةُ تُنْسي صاحِبَها المُشْتَغِلَ بِها مَصائِبَ الغَرامِ وشقاءَهُ أكْثَرَ بِكثيرٍ مِنَ الوَرَقِ الذي اخْتَرَعَهُ فاكوم.
ويلعن أبا فاكوم والسّاعَةَ التي اخْتَرَعَ فيها الوَرَقَ، فإذا كان لَعِبُ الوَرَقِ أحْيانًا كثيرةً خَفَّفَ عَنّي، أنا مثلًا، مَتاعِبَ الحُبِّ، فهو لم يُنْسِني أنَّني خَسِرْتُ فيه ثَرْوَةً يُقَدِّرُها العارِفونَ بِمِلْيونِ ليرةٍ وأكْثَرَ، كانَ بإمْكاني، لو بَقِيَتْ في جَيْبي أنْ أشْتَرِيَ فيها اليَوْمَ جَميعَ حِسانِ البَلْدَةِ، خُصوصًا وأنَّ الحُسْنَ مِثْلُ وَرَقِ العُمْلَةِ، يَتَدَنّى سِعْرُهُ تِباعًا؛ فأيَّةُ عُمْلَةِ وَرَقٍ، حتّى الدّولاراتِ واللّيرَةِ الإنكليزيَّةِ، لَمْ تَـتَدَهْوَرْ أسْعارُها تِباعًا؟
وهكذا، في تِلْكَ الأيّامِ، كانَ الحُسْنُ أغلى مِمّا هو اليَوْمَ بِكثير، فإنَّما أسْعارُ الحُبِّ اليَوْمَ نَزَلَتْ بالمائَةِ تِسعين عَنْ أسْعارِهِ في الوَقْتِ الذي خُضْتُ فيه هَذِهِ المُغامَرَةَ التي أرْوي حِكايَتَها الآن...

(١) كذا في الأصل.

فإنَّما كانَتْ أسْعارُ الحُبِّ في ذَلِكَ الحينِ بالعُمْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ ومَجيدِيّاتِ الفِضَّة، وصارَتِ اليَوْمَ بالوَرَقِ وأسعارِهِ المُتَدَهْوِرَةِ يَوْمًا عَنْ يَوْم.

•

على كُلِّ حالٍ أرْجِعُ لِمَوْضوعِيَ الأوَّل، وأُرَدِّدُ أنَّني ظَلَلْتُ أعْتَبِرُ أنّي أعْرِفُ بِكِتابِ النِّسوانِ وحِيَلِهِنَّ حتّى كان ذاتَ يَوْمٍ في زحلة ما كان.

كان ذَلِكَ في وادي البِرْدَوْني المَدْعُوِّ عِنْدَ أهْلِ الغَرامِ وادي الحِسان، حَيْثُ الصَّفْصافُ على ضِفافِ النَّهْرِ الرَّقْراقِ يَسْتَحي مِنْ كَثْرَةِ ما يرى مِنْ مَشاهِدِ الحُبِّ والغَرامِ، فَيُدْلي بأغْصانِهِ نَحْوَ الماءِ ساتِرًا بِها وَجْهَهُ مَخْجولًا.

ووادي البِرْدَوْني، مُلْتَقى العُشّاقِ المُفَضَّلُ، يأتونَهُ في الصَّيْفِ والخَريفِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وحَدْبٍ، يَحْلُمونَ بالغَرامِ على أنغامِ مُوسيقاه، ويَعْمَلونَ الحُبَّ في ظِلالِ أشْجارِهِ وبَيْنَ خَمائِلِهِ السُّنْدُسِيَّةِ، وعلى شَجى زَقْزَقَةِ العَصافيرِ ورَقْرَقَةِ المِياهِ وتلاعُبِ النَّسيم.

وذات يَوْمٍ، عِنْدَ الغَسَقِ، جَلَسْتُ مَعَ أحَدِ رفاقي الأقْرَبِينَ على النَّهْرِ، حَيْثُ كُنْتُ دَوْمًا أنْصُبُ شِراكي، أصْطادُ الطَّريدةَ التي أسْتَحْلي دونَ كَبيرِ عَناء.

قُلْتُ: ذاتَ يَوْمٍ، عِنْدَ الغَسَقِ، أطَلَّت عَلَيْنا مِنْ بعيدٍ فَتاةٌ تَسْتَلْفِتُ حالًا الأنظارَ بِطولِ قامَتِها، وشُموخِ رأسِها، تَـتَمَجَّدُ لِنَفْسِها ولِغَيْرِها، عارِفَةً تَمامًا قيمةَ مَحاسِنِها، ومُعْتَزَّةً بِصَبْوَتِها ورَشاقَةِ قَدِّها، مُفاخِرَةً بهَذِهِ النَّظَراتِ، نظراتِ الاشْتِهاءِ عِنْدَ الرِّجال، التي تُحَدِّقُ بها،

فَتَتَصَوَّرُ أنَّ تِلْكَ النَّظَراتِ تَخْتَرِقُ الفُستانَ الجَميلَ الذي تَرْتَديهِ بِكُلِّ لَباقَةٍ، يَتَمَتَّعونَ مِنْ وَرائِهِ بِمَنْظَرِ عُرْيَتِها، كما خَلَقَها اللَّهُ تَمامًا، وكانَتْ هَذِهِ الفَتاةُ غَريبَةً عَنْ زحلة.

وكان يُرافِقُها رَجُلٌ يَجِبُ أنْ يَكونَ عُمْرُهُ ناهَزَ السِّتّينَ، وكان الرَّجُلُ يَسْتَلْفِتُ الأنْظارَ بحُسْنِ هِنْدامِهِ، وبِكثافَةِ وَتَبَعْثُرِ شَعْرِ رَأْسِهِ، وبابْتِسامَةٍ على فَمِهِ يَجِبُ أنْ تكونَ لا تُفارِقُهُ أبَدًا.

وكانَتِ النَّظَراتُ التي يَتَبادَلُها مَعَ الحَسْناءِ بَعْدَ أنْ جَلَسا على مائِدَةٍ بالقُرْبِ مِنّا، تَدُلُّ على أنَّهُ لَيْسَ والِدَها ولَيْسَ زَوْجَها ولَيْسَ رَفيقًا عادِيًّا لها.

وَقَدْ كانَتْ، ولا شَكَّ، نَظَراتُ الصَّبِيَّةِ إلَيْهِ أكْثَرَ حُرْقَةً واضْطِرابًا مِنْ نَظَراتِهِ إلَيْها.

وكانَتْ يَداهُما، عِنْدَما تَـتَلاقَيانِ بالصُّدْفَةِ أو بالقَصْدِ، تَـتَوَثَّقانِ وتَبْقَيانِ هكذا أكْثَرَ مِنَ اللّازم.

وقالَ لي الصَّديقُ: «أُراهِنُكَ على أنَّها مُغْرَمَةٌ بِهِ تَـتَعَشَّقُهُ تَعَشُّقًا جُنونيًّا».

وَهَزَزْتُ رأسي وَتَساءَلْتُ بِصَوْتٍ عالٍ: «كَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ وَعُمْرُها لا يُمْكِنُ أنْ يَتَجاوَزَ العِشْرين، وهو قد يَكونُ يَتَجاوَزُ السِّتّين؟».

ولكِنَّ كُلَّ ما كانَ يَجْري أمامَنا، وَلَوْ كانَ ذَلِكَ في غايَةِ الأدَبِ، أخَذَ يُؤَكِّدُ لي أنَّ صَديقِي قد لا يَكونُ مُخْطِئًا.

ومع ذَلِكَ، أخَذْتُ، أمامَهُ، أعِدُ النَّفْسَ بِمُلاحَقَةِ الفَتاةِ، كما كُـنْتُ قد لاحَقْتُ الكَثيراتِ غَيْرِها قَبْلَها. هذا إذا كانَتْ باقِيَةً في زحلة ولأيِّ وَقْتٍ كانَ، وقُلْتُ لِرفيقي إنَّني، طَبْعًا، سَأَصِلُ إلَيْها كما وَصَلْتُ لِكثيراتٍ غَيْرِها، وَلَمْ يَجِدْ رفيقي أيَّ اعْتِراضٍ على ادِّعائي هذا

لِمَعْرِفَتِهِ أنَّني دَوْمًا ناجِحٌ في مُغامراتي المُتَعَدِّدَةِ، وأنَّني إذا قُلْتُ فَعَلْت.

أيّامُ الغرامِ على ضفافِ النَّهرِ وفِعْلًا، عِنْدَما قُمْنا بَعْدَ ذَلِكَ إلى فُنْدُقِ قادري المَعْروف، بَعْدَ أنْ كانَتِ الصَّبِيَّةُ والرَّجُلُ تَرَكا القَهْوَةَ على ضِفافِ النَّهْرِ، وَجَدْناهُما هُناكَ يَجْلِسانِ على مَصْطَبَتِهِ الوَسيعةِ التي قَضَيْتُ نِصْفَ العُمْرِ أحْتَلُّ جانِبَها.

وعَرَفْتُ حالًا أنَّ الرَّجُلَ والفَتاةَ آتِيانِ مِنْ بَيْروتَ لِقضاءِ بِضْعَةِ أيّامٍ مِنْ شَهْرِ أيلولَ في زحلة، الشَّهْرِ الجَميلِ السّاحِرِ الذي يَتَأَلَّقُ فيهِ وادي الحِسانِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ في هَوائِهِ العَليلِ وسِحْرِهِ الفَتّان.

وعَرَفْنا أنَّها ابْنَةُ عائِلَةٍ مَعْروفَةٍ، وأنَّ الرَّجُلَ الذي مَعَها نَسيبٌ لَها، ولكنَّهُ النَّسيبُ المَعْشوقُ الذي يَعْرِفُ أنَّ حُبَّ النَّسيبِ للنَّسيبِ يَكونُ دَوْمًا أشَدَّ وأعْنَفَ مِنْ كلِّ حُبّ.

وفي ذَلِكَ المَساءِ، والفَتاةُ دَوْمًا بالقُرْبِ مِنَ الرَّجُلِ رَفيقِها، وهي مُداوِمَةٌ على التَّحْديقِ الغَريبِ به كأنَّها تَخافُ عَلَيْهِ أنْ يَطيرَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها ـ وفي ذَلِكَ المَساءِ، بَعْدَ أنْ قاما في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ إلى النَّوْم، جاءَ خادِمُ الطّابَقِ الذي نَزَلا فيهِ، وطَبْعًا كُنْتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ اعْتَدْتُ شِراءَ صَداقَةِ خَدَمِ هذا الفُنْدُقِ الكَبيرِ، ولوَقْتِ الحَشْرة ـ جاءَ الخادِمُ يَقولُ لي إنَّ كُلًّا مِنَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ أخَذَ غُرْفَةً لِوَحْدِهِ ولكِنَّ الغُرْفَتَيْنِ مُتَلاصِقَتَانِ وَلَهُما بابٌ يَفْتَحُ بَيْنَهُما، ويَجِبُ أنْ يَكونا دَفَعا للبَوّابِ بَخْشيشًا كَبيرًا فأعْطاهُما مِفْتاحَ ذَلِكَ الباب.

وعِنْدَها تَخَيَّلْتُ حالًا رَجُلَ السِّتّينَ سَنَةً وابْنَةَ العِشرينَ في

مَضْجَعٍ واحِدٍ يَعْمَلانِ الحُبَّ، والصَّبِيَّةُ شُعْلَةٌ مِنْ نارٍ بَيْنَ أحْضانِ الكَهْلِ الرَّشيق.

وطَبْعًا، تَصَوّراتي لِعَلاقَتِهِما، وَهُما غَيْرُ مُتَزَوِّجَيْنِ، زادَتْني شَوْقًا واشْتِهاءً للحَسْناءِ، مِمّا دَعاني أنْ أجيءَ للفُنْدُقِ في اليَوْمِ الثّاني صَباحًا باكِرًا، وأنْتَظِرَ على مَصْطَبَتِهِ ساعَتَيْنِ، حتّى رأيْتُ الفَتاةَ ورَفيقَها يَنْزلانِ مِنْ غُرْفَتِهِما ويَجْلِسان وحالَتُهُما تَنِمُّ على نَوْعٍ من الإعْياء.

وحالًا عَرَفْتُ أنَّ الصَّبِيَّةَ كانَتْ قد لاحَظَتْ مُنْذُ الأمْسِ مُلاحَقَتي لها، وأنَّني ما جِئْتُ للفُنْدُقِ عِنْدَ المَساءِ، وما عُدْتُ إلَيْهِ في ذاكَ الصَّباحِ، إلّا ساعِيًا إلَيْها، أُريدُ أنْ أراها، فَقَدْ كانَتْ نَظَراتي المُلْتَهِبَةُ إلَيْها قد أفْهَمَتْها قَصْدي ومُرادي.

وأخَذَتْ، مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ، وهي جالِسَةٌ بالقُرْبِ من الرَّجُل بِطَريقَةٍ تَـكادُ تُلاصِقُ جَسَدَها بجَسَدِهِ، تَرْميني بِنَظَراتٍ لَطيفةٍ مُبْتَسِمَةٍ جَعَلَتْني أسْتَأْنِسُ كثيرًا، وأسْتَسْهِلُ الأمْر.

وطَبْعًا ما عُدْتُ فارَقْتُ الفُنْدُقَ في ذَلِكَ النَّهار...

وعِنْدَ المَساءِ، جاءَتِ الفَتاةُ مَعَ رَفيقِها وَجَلَسا إلى طاوِلَةٍ مُلاصِقَةٍ لِطاوِلَتي، وبَعْدَ ذَلِكَ وَجَدَتِ الحَسْناءُ مُناسَبَـةً لِتَسْأَلَني بِطَريقَةٍ بَسيطةٍ جِدًّا إذا كانَ في البَلَدِ مَسْرَحٌ يَقْضِيانِ السَّهْرَةَ فيه.

وفِعْلًا، كانَتْ يَوْمَئِذٍ فِرْقَةُ كشكش تَنْزِلُ بزحلة، ومن كَلامٍ لِكلامٍ دَعَوْتُ الفَتاةَ ورفيقَها للذَّهابِ إلى المَسْرَحِ، ولمّا كانَتِ الرِّوايَةُ تَبْدَأُ بَعْدَ العَشاءِ، بِطَبيعَةِ الحالِ أيْضًا تَعَشَّيا بِضِيافَتي وذَهَبْنا للرِّوايَة.

وفي غُضونِ المَشاهِدِ ضَحِكْنا معًا وتَحادَثْنا معًا، وجَرَتْ، والمَسْرَحُ

في شِبْهِ ظَلامٍ، بَعْضُ مُلاصَقاتٍ خَفيفةٍ جِدًّا لَمْ أجِدْ عِنْدَ الفَتاةِ أيَّ مانِـعٍ فيها.

ولَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يُلاحِظُ شَيْئًا إذْ كانَ، لا بُدَّ واثقًا جِدًّا من تَعَشُّقِ الفَتاةِ لَهُ، ولا يَخْشى عَلَيْها مِنْ أحَدٍ ـ وَلَوْ كانَ ديكَ النِّساءِ الذي يُرافِقُهُما.

وعُدْنا مِنَ المَسْرَحِ وأنا أكْثَرُ مِنْ واثِقٍ أنَّ الحَسْناءَ سَتَـكونُ لي في الأرْبَعِ وَعِشْرينَ ساعَةً القادِمَة.

ولا شَكَّ أنَّني عِنْدَما قالَتْ لي فَجْأةً، ودونَ سابِقِ إنذارٍ، أنْ أُوافِيَها إلى غُرْفَتِها بَعْدَ الغُروبِ، في اليَوْمِ التّالي، بَيْنَما يَكونُ الرَّجُلُ الذي يُرافِقُها قد ذَهَبَ للمعلَّقة، لِزِيارَةِ آل نمّور الذين كان يَعْرِفُهُم جَيِّدًا، وهو لا يَعودُ قَبْلَ السّاعَةِ التّاسِعَةِ ـ ولا شَكَّ أنَّني ساعَتَئِذٍ اعْتَزَزْتُ بِنَفْسي، وتَفاخَرْتُ أكْثَرَ مِنْ كُلِّ وَقْتٍ مضى.

وفي اليَوْمِ الثّاني، كُنْتُ أرى فِتيانَ زحلة اللَّبِقينَ بأجْمَعِهِم يَقِفونَ على مَصْطَبَةِ الفُنْدُقِ يَنْظُرونَ إعْجابًا للصَّبِيَّةِ وهي لا تُعيرُهُم أقَلَّ الْتِفاتٍ، وتَخُصُّ اهْتِمامَها بي، مِمّا كانَ يَدْعوهُم لِلْغَيْرَةِ والحَسَدِ منّي أكْثَرَ مِنْ كُلِّ وَقْت.

وفي الوَقْتِ المُعَيَّنِ، عِنْدَ السّاعَةِ السّابِعَةِ، صَعِدْتُ بالخِفْيَةِ لغُرْفَةِ الفَتاةِ، وكانَ خادِمُ الطّابَقِ الذي نَزَلَتْ فيه يَتَرَصَّدُ، وبِطَلَبٍ مِنّي، عُيُونَ الرُّقَباءِ التي قَدْ تُفاجِئُنا.

دَخَلْتُ لِغُرْفَةِ الفَتاةِ دُخولَ السُّلْطانِ على إحْدى حِسانِ حَريمِهِ وأنا مُسْتَعِدٌّ لأنْ أُثْبِتَ لِلْحَسْناءِ أنَّها عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّها بي، وأنَّها، ولا بُدَّ، سَتَنْسى بَيْنَ أحْضاني الفَتِيَّةِ المُشْتَعِلَةِ أحْضانَ الرَّجُلِ الذي يُرافِقُها البارِدَةَ المُتَرَهِّلَة.

وكانَ ما كانَ... مِمّا لَسْتُ أذْكُرُه...

الشَّراكة على الحَسْناء ولكِنْ، عِنْدَما عُدْتُ في اليَوْمِ الثّاني لِلّوكَنْدَة، على جَناحِ الشَّوْقِ والهوى، كانَ أوَّلَ مَنْ شاهَدْتُ، الرَّجُلُ، رَفيقُ الحَسْناءِ، وَقَدْ كانَ يَنْتَظِرُني.

وابْتَسَمَ لِيَ ابْتِسامَةً عَريضَةً وقال: «كَلَّفَتْني سوزانُ أنْ أشْكُرَكَ على لُطْفِكَ وإنْسانِيَّتِكَ مَعَها، وهي تُوَدِّعُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِها... وَقَدْ سَبَقَتْني الآنَ إلى صوفر».

طَبْعًا، اعْتَرَتْني دَهْشَةٌ كَبيرةٌ، وعَرَفْتُ ساعَتَئِذٍ - مَهْما غالَيْتُ وتكابَرْتُ وادَّعَيْتُ أنَّني لا أعْرِفُ جَيِّدًا بِكتابِ النِّسْوان.

كما وأنَّني عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ بزَمَنٍ طَويلٍ، أنَّ الرَّجُلَ، عَشيقَ الفَتاةِ، يَغْفِرُ لها، مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، خُروجَها عَنْ حُبِّهِ، مُعْتَبِرًا أنَّ صِباها بِحاجَةٍ، بَعْضَ الأحْيانِ لِشابٍّ فتى، فَيَتْرُكُها تَفْعَلُ، ويُفْسِحُ لها المَجالَ وهو واثِقٌ مِنْ أنَّها تَنْتَهي دَوْمًا وتَرْجِعُ إلَيْه.

وهو كَرَجُلٍ حَكيمٍ يُفَضِّلُ أنْ يَعْرِفَ ما يَجْري، طالما أنَّ الشَّيْءَ لا بُدَّ أنْ يَجْري.

فالعَشيقُ الفَهيمُ الذي يَسْبُقُ عَشيقَتَهُ أرْبَعينَ سَنَةً بالعُمْر، يَجِبُ أنْ يَعْرِفَ أنَّها لا بُدَّ أنْ تَخونَهُ... فإذا كان شاطِرًا لَبِقًا عَرَفَ كَيْفَ يُنَقّي لها عُشّاقَها... وإلّا ما الفائِدَةُ إذا أبَعْدَها عَنْهُ وَخَسِرَها؟

الحَسْناءُ التي تَزَوَّجَت الدُّبّ

في اليَوْمِ الثّالِثِ خانَتْ زَوْجَها...
وما كانَ أحَدٌ يَلومُها في خِيانَتِها لَه إذ إنَّهُ كانَ هُناكَ فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ العَشيقِ الذي اتَّخَذَتْهُ قَبْلَ أنْ تَبْدَأَ باقاتُ أزْهارِ إكْليلِها بالذُّبول.
فالزَّوْجُ الذي أعْطَوهُ إيّاها كانَ نَوْعًا مِنَ الدِّبَبَةِ ـ الدِّبَبَةِ السّودِ البَشعين...
وَضَخامَةُ جِسْمِهِ، وكَثافَةُ شَعْرِ جَسَدِهِ، وَوَجْهُهُ الأفْطَسُ، كُلُّ هذا دعا عارِفيهِ لِتَسْمِيَتِهِ بالدُّبّ.
وكانَ فَوْقَ ذَلِكَ ذَميمَ الرّائِحَةِ لِكَثْرَةِ ولِكَثافَةِ شَحْمِ جِسْمِهِ، وكانَ أيضًا يُشَنْخِرُ قَوِيًّا جِدًّا لَيْسَ في نَوْمِهِ فَقَطْ، مِمّا هو طَبيعيٌّ عِنْدَ رِجالٍ كَثيرينَ مِنْ أهْلِ السُّمْنَةِ، كانوا بشعينَ أو حلوين، ولكِنَّهُ أيضًا كان يُشَنْخِرُ عِنْدَما يَمْشي.
كانَ في تَنَفُّسِهِ يُزَمْجِرُ زَمْجَرَةً طالَما ساعَدَتْ عَشيقَ امْرَأتِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، عِنْدَما يَكونُ مَعَها في خَلْوَةِ الغَرامِ، لأنْ يَنْتَبِهَ عَنْ بَعيدٍ لِقُدومِهِ فَيَتْرُكَ العَشيقَةَ ويُسْرِعَ بالانْسِلالِ مِنَ النّافِذَةِ والهَرَب.
وهَذِهِ الزَّمْجَرَةُ كانَتْ بالأحْرى مِنَ الأسْبابِ التي جَعَلَتِ الفَتاةَ، بَعْدَ ثَلاثَةِ أيّامٍ غَيْرِ كامِلَةٍ، تَرْتَمي بأحْضانِ الفَتَى الذي وَقَعَ تَحْتَ

يَدِها، وصادَفَ أنَّ ذاكَ الفَتَى كانَ أنا، صاحِبَ هَذِهِ المُغامَرَةِ، وكانَتِ الصُّدْفَةُ حَسَنَةً للمَرْأةِ إذ إنَّني كُنْتُ في ذَلِكَ العَهْدِ، حَبيبَ النِّساءِ المُفَضَّلَ ـ كُنْتُ في أحْسَنِ أيّامي، وفي أزْهى صَبْوَتي.

لَيْلَةُ الزَّواجِ السَّوداءُ جِئْتُ أُهَنِّئُ العَروسَيْنِ، وكُنْتُ أعْرِفُ كُلًّا مِنْهُما مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، ويَرْبُطُني بِهِما نَوْعٌ مِنَ القَرابَةِ، ولا شَكَّ أنَّ غايَتي الأساسيَّةَ من تِلْكَ الزِّيارَةِ كانَتْ لأرَى ما حَلَّ بالفَتاةِ الصَّبِيَّةِ الحَسْناءِ اللَّعوبِ الزّاهِيَةِ، بَعْدَ أنْ نامَ مَعَها ذاكَ الرَّجُلُ البَشِعُ الحالِكُ الذي كان بالأحْرى يُشْبِهُ تَيْسًا مِنَ الماعِزِ أكْثَرَ مِمّا يُشْبِهُ الدُّبَّ، وهو المَعْروفُ عِنْدَ النّاسِ بكُنْيَتِه.
وَلَـكِـنَّني وَجَدْتُ العَروسَ، بالعَكْسِ عَمّا كُنْتُ أنْتَظِرُ ـ شاهَدْتُها لا تَقِلُّ جَمالًا وبَهاءً وصَبْوَةً عمّا كانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ أنْ يَتَمَتَّعَ بها ذاكَ الوَحْشُ الذي يَكْسو الشَّعْرُ جِلْدَهُ بِكثافَةٍ وكَثْرَة.
كُنْتُ أنْتَظِرُ أنْ أراها صارَتْ مِثْلَ ابْنَةِ ضَيْعَتِنا حنّة أنطون ـ الفَتاةِ التي كانَتْ جَميلةً فَتّانَةً عِنْدَما كانَ خوري الضَّيْعَةِ يُراوِدُها ويُصادِقُها قَبْلَ سَفَرِهِ إلى روما حَيْثُ قضى هُناكَ عَشْرَ سَنَواتٍ مُتوالِيَةً، وبَعْدَ ذَلِكَ أرْجَعَتْهُ روما إلى بِلادِهِ بِرُتْبَةٍ عالِيَةٍ ومُوفَدًا رَسْمِيًّا إكْليريكيًّا.
وجاءَ الضَّيْعَةَ يَزورُها، وجاءَ أهْلُ الضَّيْعَةِ يُسَلِّمونَ عَلَيْهِ، ومِنْهُم امْرَأةٌ مُجَعَّدَةُ الوَجْهِ، صَفْراءُ اللَّوْنِ، غائِرَةُ العَيْنَيْنِ، لاحَظَ سِيادَتُهُ أنَّها تُسَلِّمُ تَقْريبًا بدونِ كُلْفَةٍ، وَقَدْ ظَهَرَتْ على مَلامِحِها دَلائِلُ المَوْنَةِ عَلَيْهِ كأنَّها لَيْسَت غَريبةً عَنْهُ مُطْلَقًا، ولمّا رَأَتْهُ يَسْتَغْرِبُ

سُلوكَها صاحَتْ قائِلَةً: «ألَمْ تَعْرِفني يا بونا يعقوب؟ أنا حَنّة!».
وَذَكَرَ سِيادَتُه حنّة الحَسْناءَ الزّاهِيَةَ الصَّبِيَّةَ التي كانَتْ صَديقَتُهُ قَبْلَ سَفَرِهِ إلى روما، وقالَ لها مُسْتَغْرِبًا: «ولكِن، ماذا صارَ فيكِ يا حَنّة حتّى صِرْتِ هكذا؟».
قالَتْ له وهيَ تَنْتَحِبُ: «نَمْلَكْ لَيْلَة مَع جريس أنطون وتشوف عِنْدَئذٍ ماذا سيصير فيك!».
وفِعْلًا، الذين يَعْرِفونَ جريس أنطون، زَوْجَها وَوَسَخَهُ وبَشاعَتَهُ ورائِحَةَ فَمِهِ، ودَمامَةَ سِحْنَتِهِ، لا يَسْتَغْرِبُ أنْ يَرَى المَرأةَ التي تَنامُ مَعَهُ، وَلَوْ لَيْلَةً واحِدَةً، تُصْبِحُ بشعةً وهَزيلةً مِثْلَ حَنّة...
ولكِنَّ العروسَ، كما قُلْتُ سابِقًا، التي جِئْتُ لِعِنْدَها لأكْتَشِفَ إذا كان صارَ فيها مِثْلَما صارَ بِحَنّة أنطون كانَتْ بالعَكْسِ... لا تَزالُ على جَمالِها وفِتْنَتِها.
وفي أثْناءِ ذَلِكَ جاءَ رَجُلٌ يَدْعو الزَّوْجَ لشُغْلٍ هامٍّ عِنْدَ المُطران، فاعْتَذَر مِنّي ودَعاني أنْ أنْتَظِرَ عَوْدَتَهُ.
ولم أتَمالَكْ، عِنْدَما خَرَجَ زَوْجُها، مِنْ أنْ أرْويَ للصَّبِيَّةِ حِكايَةَ حَنّة أنطون، فأعْجَبَتْها القِصَّةُ، وضَحِكَتْ في البِدايَةِ، ثُمَّ ما عَتَّمَتْ أنْ أخَذَتْ تَجْمَعُ في مَلامِحِها، وخُصوصًا في عَيْنَيْها، الكَثيرَ مِنَ الشَّجَنِ والذُّعْرِ، إذْ يَجِبُ أنْ تَكونَ قالَتْ لِنَفْسِها إنَّهُ لَمْ يَمْضِ الوَقْتُ بَعْدُ، وكانَتْ في اليَوْمِ الثّالِثِ مِنْ زَواجِها بالرَّجُلِ الدَّميمِ، إذْ لَيْسَ مِنَ المُسْتَبْعَدِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ قَريبٌ يَصيرُ فيها مِثْلَما صارَ بِحَنّة أنطون.
ولا شَكَّ أنَّ الوَسْواسَ أصابَها مُنْذُ تِلْكَ السّاعَةِ، ولَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَتَمالَكَ نَفْسَها، وظَهَرَتْ على مَلامِحِها دَلائِلُ الهَمِّ والشَّجَن.

المَرأة بدونِ حُسْنٍ مِثْلُ الإبريق بدون ماء   ولَيْسَتْ هذِهِ الحَسْناءُ وَحْدَها يَهُمُّها جَمالُها والمُحافَظَةُ عَلَيْهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ في العالَمِ، والدِّفاعُ عَنْهُ دِفاعَ الأبْطالِ، بَلْ جَميعُ النِّساءِ هكذا، وكُلٌّ مِنْهُنَّ تُضَحّي بِأشْياءَ عَزيزةٍ جِدًّا، وتُقْدِمُ على أعْمالٍ مُخيفَةٍ جِدًّا، وتَصِلُ إلى أنْ تَقْتُلَ ـ إذا كانَ في ذَلِكَ ما يَحْفَظُ لها جَمالَها. فالمَرْأةُ الحَسْناءُ بِطَبيعَةِ حالِها تُحافِظُ وتَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ لِيَبْقى لها حُسْنُها الذي لَوْلاهُ لما كانَ الرِّجالُ يُلاحِقونَها ويَسْجُدونَ على أقْدامِها ويُقَدِّمونَ لها القَرابينَ، ويَعْمَلونَ السَّبْعَةَ وذِمَّتَها لإرْضائِها.

قُلْتُ: كانَ الهَمُّ قد دَخَلَ فَجْأةً على قَلْبِ الصَّبِيَّةِ، عَروسِ الثَّلاثَةِ أيّام، واسْتَوْلى عَلَيْها الخَوْفُ والاضْطِرابُ، وكانَ يَزيدُ على ذَلِكَ ما عانَتْهُ في اللَّيالي الثَّلاثِ التي قَضَتْها بَيْنَ أحْضانِ زَوْجِها مِنْ مَتاعِبَ وقَرَفٍ، عِنْدَما كانَتْ تَـتَقَلَّبُ في فِراشِ الرَّجُلِ الدُّبِّ الذي كانَ يَتَحَطّاها بِوَحْشِيَّةٍ وقَذارَةٍ جَعَلَتاها، كما قالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، تَـبْدَأُ تَـتَمَنّى لَوْ أنَّ الرَّجُلَ في هِياجِهِ الغَريبِ يَنْقَطِعُ لَهُ عِرْقٌ في القَلْبِ فيُصابُ بِنَوْبَةٍ تُميتُهُ فَجْأةً، مِمّا يَجْري عادِيًّا، وَغالِبًا، للرِّجالِ ذَوي الشَّحْمِ الضَّخْمِ الكَثير، عِنْدَما يَكونُونَ في مِثْلِ هذِهِ الحالَةِ المُهْتاجَةِ، ولكِنَّ الزَّوْجَ العَريسَ حتّى تِلْكَ السّاعَةِ لَمْ يَمُتْ، بَلْ بالعَكْسِ فَقَدْ كانَتْ ملامِحُهُ تَدُلُّ على أنَّهُ سَيَبْقى هكذا مِثْلَ الثَّوْرِ ويَعيشُ مائَةَ سَنَة.
وعِنْدَما المَرْأةُ تأخُذُ في التَّمَنّي لِمَوْتِ زَوْجِها أو عَشيقِها، تَنْتَهي، عادِيًّا، إذا لَمْ تُجِبِ السَّماءُ دُعاءَها، بأنْ تُفَتِّشَ عَنْ وَسيلَةٍ تُميتُ

زَوْجَها فيها، حتّى وَلَوْ كانَ عَنْ طَريقِ الجَريمَة... إنَّما الصَّبِيَّةُ كانَتْ حتّى ذَلِكَ الوَقْتِ أخَذَتْ فَقَطْ تَـتَمَنّى مَوْتَ زَوْجِها، ولَمْ تَـكُنْ وَصَلَتْ للحَدِّ الذي تأخُذُ تَفْتَكِرُ فيهِ بأنْ تَقْتُلَه.

وَلَـكِنْ، بانْتِظارِ ذَلِكَ، كان مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ تُسَيْطِرَ على هَذِهِ الصَّبِيَّةِ في مِحْنَتِها روحُ البَغْضاءِ، وحُبُّ الانْتِقامِ مِنْ رَجُلٍ حَطَّمَ أحْلامَها مِنَ الجِهَةِ العاطِفيَّةِ، ودَمَّرَ شَهَواتِها المُشْتَعِلَةَ، وجَعَلَها تَـتَدَنَّسُ بأوْساخِهِ مِنَ الجِهَةِ الجِنْسيَّة.

القُرونُ على الرَّأس ودَوْمًا كانَتِ الطَّريقَةُ الأُولى للمَرْأَةِ عِنْدَما تَأْخُذُ في كُرْهِ زَوْجِها، وَتَبْدَأُ بالانْتِقامِ مِنْهُ، والثَّأْرِ لِنَفْسِها هِيَ أنْ تَخونَهُ وتُرَكِّبَ له قرونًا.

وعِنْدَما جِئْتُ لِزيارَتِها كانَ كأنَّها تَنْتَظِرُ أوَّلَ رَجُلٍ تَجِدُهُ أمامَها حتّى تَـتَلَقَّطَ بِهِ، وتَقودَهُ إلى فِراشِها، فَوَقَعَتْ على الفتى الذي كانَتْ جَميعُ بَناتِ الوادي تَسْتَحْليهِ وتُريدُه.

وأثْناءَ تِلْكَ الزِّيارَةِ، عِنْدَما قالَ زَوْجُها إنَّهُ مُضْطَرٌّ للتَّغَيُّبِ وطَلَبَ مِنّي أنْ أنْتَظِرَهُ، أخَذَتِ العروسُ تَبْكي فَجْأَةً بِمَرارَةٍ وشَجَنٍ، وكانَ مِنَ الضَّرورِيِّ أنْ أُشْفِقَ عَلَيْها، وأنْ أعْمَلَ على تَخْفيفِ كُرْبَتِها، فَتَقَدَّمْتُ مِنْها، وَطَوَّقْتُ خَصْرَها بِكُلِّ لُطْفٍ أرْجوها أنْ تَـكُفَّ عَنِ البُكاءِ وأُفَتِّشُ كَـيْفَ أمْسَحُ دُموعَها، وعِنْدَما رأيْتُ أنَّها لَيْسَتْ مُسْتَعِدَّةً أنْ تُمانِـعَ وَجَدْتُ أفْضَلَ سَبيلٍ لِتَعْزِيَتِها أنْ أُقَبِّلَها مِرارًا، وبِحَرارَةٍ، على عَيْنَيْها وفَمِها، مِمّا يَجِبُ أنْ تَـكونَ اسْتَطابَتْهُ كثيرًا، وكانَ مَدْعاةً لِيَقَظَةِ قابِلِيَّتِها.

وتَسْتَيْقِظُ نَزَعاتُ المَرْأةِ عِنْدَما تَأخُذُ في البُكاء... فالدُّموعُ، كما

تَجْعَلُ مآقيها تَـتَفَتَّحُ، تَجْعَلُ اشْتِهاءَها الجِنْسيَّ يَتَفَتَّحُ أيضًا، وهي عِنْدَما تَبْكي تُصْبِحُ أشَدَّ إحْساسًا بالأمْيالِ الجَسَدِيَّة مِنْ كُلِّ وَقْتٍ آخَر...

وهكذا، بِطَريقَةٍ أوتوماتيكيَّةٍ، ودونَ أنْ تَدْري تَمامًا ماذا نَفْعَلُ، مَشَيْنا رُوَيْدًا رُوَيْدًا، ونَحْنُ مُتَعانِقانِ،[1] نَحْوَ الفِراشِ، وهكذا خانَتِ العَروسُ زَوْجَها بَعْدَ ثلاثَةِ أيّامٍ غَيْرِ كامِلَةٍ مِنْ زَواجِها، وَوَجَدَتْ بَيْنَ أحْضانِ الفتى الذي اسْتَسْلَمَتْ إلَيْهِ بِسُهولَةٍ كامِلَةٍ، الشَّيْءَ الجَميلَ اللَّذيذَ السَّماوِيَّ الذي كانَتْ تَحْلُمُ بِهِ قَبْلَ زواجِها، والذي كانَتِ اعْتَقَدَتْ أنَّ زَوْجَها الوَحْشَ قَدْ قَتَلَهُ فيها.

وطَبْعًا، بَعْدَ ذَلِكَ، تَتابَعَتْ رِوايَتُنا الغَرامِيَّةُ، فَكُنْتُ أجيءُ للحَسْناءِ في كُلِّ مَرَّةٍ يَكونُ زوجُها فيهِ غائبًا عَنِ البَيْتِ، وأبْقى عِنْدَها نَرْتَشِفُ مَلَذّاتِ الغَرامِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ فيها قَوِيَّةً ومُشْتَعِلَةً كَثيرًا، وكُـنْتُ أبْقى عِنْدَها حتّى أجِدَ أنَّهُ أصْبَحَ مِنَ الضَّروريِّ أنْ أذْهَبَ، فأنْزِلَ مِنَ النّافِذَةِ التي كانَتْ تُطِلُّ على أرْضٍ مَهْجورَةٍ كَثيرةِ الحِجارَةِ لا يَمُرُّ فيها أحَدٌ، فلا خَوْفَ مِنْ أنْ يَراني أحَدٌ، أقْفِزُ هكذا، وكانَ الرَّجُلُ طَبْعًا غَيُورًا مِثْلَ باقي الرِّجالِ البَشِعينَ الذين يَتَزَوَّجونَ بَناتٍ جَميلاتٍ أصْغَرَ مِنْهُم عُمْرًا بكثيرٍ، لِهذا كانَ يَتَرَصَّدُ امْرَأتَهُ بِكُلِّ انْتِباهٍ، إنَّما كُنّا نأخُذُ حَذَرَنا جَيِّدًا، وأخَذْنا نَعْرِفُ عاداتِهِ وحِيلَهُ مِمّا كانَ يَجْعَلُنا نَسْتَدْرِكُ أيَّةَ مُفاجَأةٍ كانَتْ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَتْ بَعْضُ الأحْيانِ تَنْتابُهُ الظُّنونُ فيُصابُ بِنَوْبَةٍ مِنَ الحُمْقِ والوَحْشِيَّةِ تَجْعَلُهُ يُقاتِلُها ويَمُدُّ يَدَهُ إلَيْها ضارِبًا، وهذا

(١) في الأصل «مُتَعانِقَيْن».

ما كانَ أيْضًا يَزيدُها كُرْهًا له، فتَجِدُ وِصالَهُ المُتَواصِلَ والذي لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَهْرَبٌ مِنْهُ شَيْئًا أكْثَرَ فَظاعَةً مِمّا كانَتْ تَجِدُهُ في البِدايَة.

وَمَعَ ذَلِكَ كانَتْ تُعيرُ جَسَدَها لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، وأكْثَرُ الأحْيانِ أيْضًا كُلُّ نَهار، إذْ لا نَنْسى أنَّ أهالي الضَّيْعَةِ كانوا قد أسْمَوا الرَّجُلَ دُبًّا بالنِّسْبَةِ أيضًا لما كانَ عَلَيْهِ مِنْ بأْسٍ وعافِيَةٍ وقُحَّة.

الفراش المُخيف وكانَتْ تَشْكو لي، في كُلِّ مَرَّةٍ نَجْتَمِعُ بها، الجَحيمَ الذي تُلاقيهِ في السّاعاتِ المُخيفَةِ التي كانَتْ تَقْضيها بَيْنَ أحْضانِ ذَلِكَ الزَّوْجِ، وكانَتْ تَـتَمَنّى لو أنَّهُ، مِثْلَ ابْنِ عَمِّهِ إبراهيمَ الذي كانَ بَشِعًا ومُخيفًا ودُبًّا مِثْلَهُ، وتَزَوَّجَ فَتاةً صَبِيَّةً حَسْناءَ وَلِكَثْرَةِ مالِهِ أيضًا رَماها أهْلُها بَيْنَ أحضانِهِ.

وَلَكِنَّهُ كانَ رَجُلًا حَكيمًا عَرَفَ مُنْذُ السّاعَةِ الأولى أنَّ زَوْجَتَهُ الصَّبِيَّةَ لا بُدَّ لها أنْ تَخونَهُ، لذَلِكَ انْتَقى لها فتًى لَطيفًا هادِئًا آدَمِيًّا وَجَعَلَهُ يَزورُ البَيْتَ حتّى يَعْلَقَ بالزَّوْجَةِ، وتَعْلَقَ الزَّوْجَةُ به، فَتُصْبِحَ عَشيقَتَهُ، وهكذا جَرى تَمامًا وبأقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، وكانَتِ الصَّبِيَّةُ تَعْرِفُ طَبْعًا أنَّ زَوْجَها يَعْرِفُ، وكان زَوْجُها يَعْرِفُ طَبْعًا أنَّها هي تَعْرِف ـ ولكِنَّها مَعْرِفَةٌ سَكوتَةٌ كَـتومَةٌ مِنَ الجانِبَيْنِ ـ دونَ أيِّ كَلامٍ ولا تَلْميحٍ، فلَقَدْ كانَ بَيْنَهُما ما يُسَمّونَهُ اتِّفاقٌ وُدِّيٌّ ـ اتِّفاقُ الجنتلمن.

وهكذا كانَتِ الصَّبِيَّةُ العَروسُ بالرَّغْمِ مِنْ مُعامَلَةِ زَوْجِها الوَحْشِيَّةِ لها، تُغْريهِ وتُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِها ساعَةَ يُريدُ دونَ أنْ تُظْهِرَ لَهُ أيَّ اسْتياءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَتَتَصَوَّرُ نَفْسَها عِنْدَما تَـكونُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ أنَّها

ضائِعَةٌ، وفي نَوْعٍ مِنَ الغَيْبوبَةِ، مِمّا كان يُخَفِّفُ كَثيرًا مِنْ قَرَفِها مِنْهُ، ولكِنَّ زَوْجَ صَديقَتي كانَ عَكْسَ ابْنِ عَمِّهِ تَمامًا، وكُنْتُ أرى، بِحَذَرٍ كُلِّيٍّ، تِلْكَ الصَّبِيَّةَ تَزْدادُ يَوْمًا عَنْ آخَرَ، ضَغينَةً وكُرْهًا لزَوْجِها ويَأْسًا لِقَلْبِها، وَيَزْدادُ تَمَنّيها على السَّماءِ أنْ تُنْقِذَها مِنْهُ فَتَأْخُذَهُ عَنْها، حتّى وَصَلَ ذَلِكَ التَّمَنّي أخيرًا أنْ دَخَلَتْ في الطَّوْرِ الأوَّلِ الذي تَدْخُلُ بِهِ النِّساءُ المُهَسْتَراتُ اللَّواتي يَقَعْنَ مِثْلَ هَذِهِ الوَقْعَة. وأخَذَتْ تَفْتَكِرُ أنْ تَنْتَحِر...

وَمَعَ أنَّها كانَتْ تَجِدُ الكَثيرَ مِنَ الرّاحَةِ واللّذَّةِ في غرامي لها، ولكِنَّ كُلَّ هذا كان يَغيبُ عَنْها تَمامًا عِنْدَما يَنْقَضُّ الرَّجُلُ عَلَيْها ويُواصِلُها... ساعَتَئِذٍ كانَتْ تَـتَمَنّى أنْ تموتَ أو يَموتَ هو.

المَرْأةُ التي لا تَخافُ الجريمة ولَكِنْ قَليلًا قَليلًا جاءَ التَّطَوُّرُ الثّـاني ـ التَّطَــوُّرُ النِّهائيُّ إذْ يَجِبُ أنْ تَـكونَ الفَتــاةُ قَدْ قالَتْ بِنَفْسِها: «ولَـكِنْ، لِماذا أموتُ أنا ولا يَموتُ هو؟».

كُـنْتُ أقْرَأُ كُلَّ هَذِهِ الأفكارِ تَنْتَقِلُ في رَأْسِها وَتَجْعَلُ ملامِحَ وَجْهِها عَبوسَةً لِدَرَجَةٍ كَبيرةٍ أخَذْتُ مِنْ بَعْدِها أخْشى أنْ أجِدَ هَذِهِ المَرْأةَ الصَّبِيَّةَ لا تَـتَرَدَّدُ في شَيْء.

وكُنْتُ أحْرِصُ دَوْمًا أمامَ شَكْواها المُتَواصِلَةِ في العَمَلِ لِتَهْدِئَتِها وأُوصيها بِشِدَّةٍ وبِقُوَّةٍ أنْ لا تَذْهَبَ إلى أبْعَدَ مِمّا تَعْني، وأنْ لا تُضَيِّعَ تَعَقُّلَها، وما كُـنْتُ أفْعَلُ ذَلِكَ حُبًّا بِها وشَفَقَةً عَلَيْها فَقَطْ، بل أيْضًا مُحافَظَةً على نَفْسي مِنَ الاشْتِراكِ بالمَأزَقِ المُخيفِ الذي كُـنْتُ أجِدُ أنَّه أخَذَ يَتَكَوَّنُ أمامَها.

أخَذْتُ أخْشى أنْ تَقْتُلَ هَذِهِ الصَّبِيَّةُ الحَسْناءُ زَوْجَها البَشِعَ، وأنْ

يأتيَ اسْمي في الفَضيحَةِ، وأخَذْتُ أشْعُرُ أنَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ أخَذَتْ تَـتَكَوَّنُ في رَأسِها وتُساوِرُها لَيْلًا نَهارًا، فأخَذْتُ أعْمَلُ كُلَّ جَهْدي، وبِكُلِّ تَحَفُّظٍ، ودونَ أنْ أجْعَلَها تَفْهَمُ أنَّني أفْهَمُها، لإبْعادِ هَذِهِ الفِكْرَةِ الجَهَنَّمِيَّةِ عَنْها.

الذَّهابُ مَعَ الرّيح ولَكِنْ، أخيرًا، كُلُّ ذَلِكَ ذَهَبَ عَبَثًا. فلَيْسَتِ البَغْضاءُ ولا العَداءَاتُ الدَّمَوِيَّةُ، أقْوى مِنَ القَرَف. القَرَفُ يُؤدّي إلى الجَريمَةِ أكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ، وكانَ القَرَفُ قد اسْتَوْلى على جَميعِ مَشاعِرِ هَذِهِ الفَتاةِ وَسَيْطَرَ على جَوارِحِها، فأخَذَتْ تَراهُ أفْظَعَ كَـثيرًا مِمّا كانَ بالحَقيقَةِ.

حتّى كان ذاتَ يَوْم...

وهذا قَبْلَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأُولى بِسَنَةٍ واحِدَةٍ، مِمّا يَجْعَلُ القَضاءَ اليَوْمَ لا يَطالُني لِمرورِ الزَّمَنِ على ما جرى، مَعَ أنَّني كُـنْتُ بَريئًا تَمامًا مِنَ الشَّيْءِ المُخيفِ الذي وَقَع.

قُلْتُ: حتّى كانَ ذاتَ يَوْمٍ، قامت مَناحَةٌ في القَرْيَةِ ـ مَناحَةُ الرَّجُلِ الدُّبِّ، زَوْجِ الحَسْناء.

وكانَ قَدْ قضى في اللَّيْلِ، بَعْدَ عَذاباتٍ كثيرة.

وسُمُّ «طُعْم الفَأْر» كانَ في ذَلِكَ الزَّمَنِ في مُتَناوَلِ جَميعِ النّاسِ، وكانَ أيضًا، في ذَلِكَ الزَّمَنِ، إغْفالٌ وإهْمالٌ في إجْراءِ الفَحْصِ الطِّبِّيِّ للمَيْتِ بَعْدَ وفاتِهِ، لا سِيَّما ولَمْ يَكُنْ في البَلْدَةِ طَبيبٌ شَرْعِيّ. ولَمْ تكُنِ السُّلُطاتُ تُطَبِّقُ مُطْلَقًا التَّشْريعَ المَعروفَ بهذا الصَّدَدِ ـ يَشْهَدُ بذَلِكَ جَميعُ المُعاصِرينَ في ذَلِكَ الوَقْتِ مِنَ اللبنانيين.

وَقَدْ يَكونُ الشَّكُّ ساوَرَ الكثيرينَ مِنْ أهْلِ الضَّيْعَةِ في أسْبابِ مَوْتِ الرَّجُلِ، ولكِنَّني أنا وَحْدي لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شكٌّ، وكُـنْتُ واثِقًا تَمامًا مِنْ أنَّها قَتَلَتْهُ، مَعَ أنَّها لَمْ تَقُلْ لي شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَمَعَ أنَّها أنْكَرَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ بَعْد.

وهي اليَوْمَ امرأةٌ كَهْلَةٌ لا تَزالُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، وفي كُلِّ مَرَّةٍ أتلاقى بِها أسْأَلُها ذاتَ السُّؤالِ: «هل فَعَلْتِ ذَلِكَ؟».

وفي كُلِّ مَرَّةٍ لا تُجيبُني على سُؤالي.

وكُـنْتُ أتَمَنّى أنْ تَنْفِيَ الشَّيْءَ أوْ تُقِرَّ بِهِ، وَلَـكِنْ، في روحٍ شَيْطانِيَّةٍ اكْـتَسَبَتْها مِنْ وَراءِ قَرَفِها مِنْ زَواجِها ومِنْ جَريمَتِها، أرادَتْ، وظَلَّتْ تُريد، أنْ تَجْعَلَني دَوْمًا في شكٍّ مِنْ أمْرِها... مَعَ أنَّني واثِقٌ مِنْ أنَّها قَتَلَت!

مؤسسة دار الجديد
Dar al Jadeed